سلسلة
كتب إسلامية

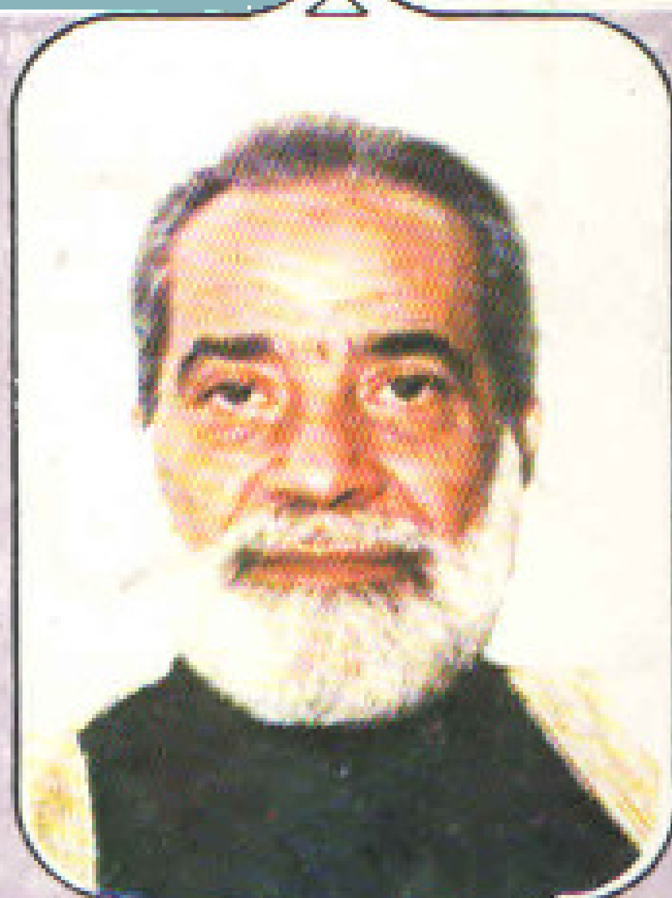
١٥

الطريق إلى الله

في رحاب المصطفى المختار

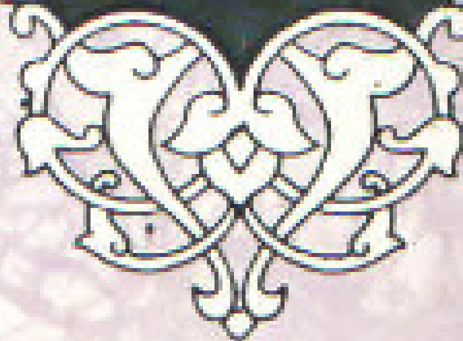
صلى الله عليه وسلم





الداعية الإسلامى

ياسين رشدى

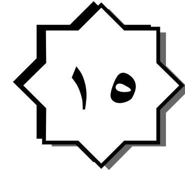




نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

الطَّرِيقُ إِلَى اللهِ

سلسلة كتب إسلامية



في رحاب المصطفى المختار صلى الله عليه وسلم

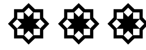
الداعية الإسلامى

ياســين رشــدى

بسم الله الرحمن الرحيم

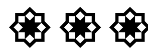
تقديم

الْحَمْـــــــــــــــدُ للهِ رَبِّ الْعَـــــــــــــــالَمين ..
لاَ يَسْـــــأَمُ مِـــــنْ كَثْـــرَةِ السُّـــؤَالِ وَالطَّلَـــب ..
سُبْحَانَهُ إِذَا سُئِلَ أَعْطَـى وَأَجَـاب .. وَإِذَا لَـمْ يُسْـأَلْ غَضِـب ..
يُعْطِى الدُّنْيَا لِمَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لاَ يُحِب .. وَلاَ يُعْطِى الدِّينَ إِلاَّ لِمَنْ أَحَبَّ وَرَغِب ..
مَنْ رَضِىَ بِالْقَلِيلِ أَعْطَاهُ الْكَثِير .. وَمَنْ سَخِطَ فَالْحِرْمَانُ قَدْ وَجَـب ..
رَزَقَ الأَمَانَ لِمَنْ لِقَضَائِه اسْتَكَـان .. وَمَنْ لَمْ يَسْتَكِنِ انْزَعَجَ وَاضْطَرَب ..
مَنْ رَكَنَ إِلَى غَيْرِهِ ذَلَّ وَهَان .. وَمَـنِ اعْتَـزَّ بِـهِ ظَهَـرَ وَغَلَـب ..
مَنْ تَبِعَ هَوَاهُ فَرَأْىُ شَيْطَانٍ ارتآه .. وَمَنْ تَبِعَ هُدَى اللهِ فَإِلَى الْحَقِّ وَثَب ..
نَحْمَـدُهُ تَبَـارَكَ وَتَعَـالَى عَلَـى كُـلِّ مَـا مَـنَحَ أَوْ سَـلَب ..
وَنَعُـوذُ بِنُـورِ وَجْهِـهِ الْكَـرِيمِ مِـنَ الْعَنَـاءِ وَالنَّصَـب ..
وَنَسْـأَلُهُ الْخُلُـودَ فِى دَارِ السَّـلاَمِ حَيْـثُ لاَ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ صَخَب ..



وَأَشْـهَدُ أَنْ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ وَحْـدَهُ لاَ شَـرِيكَ لَـه ..
هُوَ الْمَالِك .. وَهُـوَ الْمَلِـك .. لَـهُ الْمُلْـكُ وَإِلَيْـهِ الْمُنْقَلَـب ..
يَحْكُـمُ مَـا يُرِيـدُ فَـلاَ تَعْقِيـبَ وَلاَ عَجَـب ..
قَبَضَ قَبْضَتَين .. فَقَبْضَةُ الْجَنَّةِ لِرَحْمَتِه .. وَقَبْضَـةُ النَّـارِ لِلْغَضَـب ..

احْتَجَبَ عَنِ الْخَلْقِ بِنُــورِه .. وَخَفِــىَ عَلَــيْهِمْ بِشِــدَّةِ ظُهُــورِه ..
أَفْلَــــــــــحَ مَــــــــــنِ الْتَـــــــــــزَمَ الأَدَب ..
نَخَــــافُ اللّهَ وَنَخْشَـــــاه .. وَنَرْجُـــــوهُ وَنَطْلُــــبُ رِضَـــــاه ..
وَالْعَفْـــــــــــوُ مِنْــــــــــــهُ مُرْتَقَــــــــــــب ..
نُحِــــبُّ الصَّـــلاَحَ وَنَتَمَنَّـــاه .. وَنَكْـــرَهُ الْفَسَـــادَ وَنَتَحَاشَـــاه ..
فَهَـــــــــلْ ذَاكَ يَكْفِـــــــــــى لِبُلُـــــــــــوغِ الأَرَب ؟ ..
تَسَاؤُلٌ فِى نُفُوسِنَا تَسَـــاءَلْنَاه .. وَبِأَمَـــلٍ فِـــى قُلُوبِنَـــا رَجَوْنَـــاه ..
تَـــبَـــــارَكَ الَّـــذِى إِذَا شَـــــــــاءَ وَهَـــــــــــب ..



وَأَشْهَدُ أَنَّ خَاتَمَ الْمُرْسَلِين هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِب .. نَطَقَ بِأَفْصَحِ الْكَلاَم .. وَجَاءَ بِأَعْدَلِ الأَحْكَام .. وَمَا قَرَأَ وَلاَ كَتَـــب ..
آيَةُ الآيَات .. وَمُعْجِزَةُ الْمُعْجِزَات .. لِمَنْ سَلِمَ عَقْلُهُ مِـــنَ الْعَطَـــب ..
تَأَمَّلْ فِى حَيَاتِهِ وَانْظُر .. وَتَمَعَّنْ بِقَلْبِكَ وَتَدَبَّر .. وَهَاكَ بَعْضَ النَّسَـــب ..
الأَبُ يَمُوتُ وَلاَ يَرَاه .. وَالأُمُّ تُسْلِمُهُ لِغَرِيبَةٍ تَرْعَاه .. فَلاَ حَنَانَ وَلاَ لَعِب ..
عَمٌّ كَفَلَهُ وَرَبَّاه .. وَعَمٌّ هُوَ أَسَدُ الله .. وَعَمٌّ يَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَـــب ..
تَمَنَّـــى الإِسْـــلاَمَ لِمَـــنْ رَعَـــاه .. وَأَرَادَ الْهُـــدَى لِمَـــنْ عَـــادَاه ..
فَمَــــــا أُجِيــــــبَ لِمَــــــا تَمَنَّــــــى وَطَلَــــــب ..
زَوْجَةٌ حَنُونٌ تَكْبُرُهُ بِأَعْوَام .. يَعِيشُ مَعَهَـــا فِـــى وِئَـــامٍ وَسَـــلاَم ..

وَفَجْــــــــأَةً تَغَيَّـــــــرَ الْحَـــــــــالُ وَانْقَلَـــــــــب ..

رِسَالَةٌ لَمْ تَتَحَمَّلْهَا الْجِبَــال .. وَعَشِــيرَةٌ يَــرَى مِنْهـــا الأَهْــوَال ..

وَتَتْرُكُـــهُ الْوَلِيفَـــةُ إِلَـــى بَيْـــت فِـــى الْجَنَّـــة مِـــنْ قَصَـــب ..

جَاءَهُ مِنْهَا الْبَنَـــاتُ وَالْبَنُـــون .. فَـــاخْتَطَفَتْهُم مِنْـــهُ يَـــدُ الْمَنُـــون ..

فَـــــلاَ وَرِيـــــــث وَلاَ شَــــــقِيقَ وَلاَ عَصَـــــــب ..

هُمُـــومٌ وَآلاَم .. وَنِفَـــاقٌ مِـــنَ اللِّئَـــام .. وَلَيْـــلٌ لاَ يَنَـــام ..

وَنَهَـــــــارٌ لِلْجِهَـــــــاد قَـــــــد اصْـــــــطَحَب ..

لَـــمْ يَـــنْعَمْ بِلَذِيـــذِ الْحَيَـــاة .. وَلَـــمْ يَنَـــلْ فِيهَـــا مَـــا تَمَنَّـــاه ..

وَالْمَـــــــوْتُ مِنْـــــــهُ قَـــــــد اقْتَـــــــرَب ..

وُورِىَ فِى التُّرَابِ وَجْهُهُ الأَنْوَرُ ، وَغُطِّىَ بِالأَكْفَانِ جَبِينُـــهُ الأَزْهَـــرُ ،

بَعْـــــــدَ شَـــــــدِيد مَـــــــرَضٍ وَتَعَـــــــب ..

لَـــمْ يُـــورَثْ مِنْـــهُ مَـــال .. بَـــلْ عِلْـــمٌ تَنَاقَلَتْـــهُ الأَجْيَـــال ..

وَنُـــــورٌ فِـــــى الآفَـــــاقِ قَـــــدْ ضَـــــرَب ..

أَضَاءَ لِلْمُـــؤْمِنِينَ طَـــرِيقَهُم .. أَحَـــبَّهُمْ وَحَبَّـــبَ إِلَـــيْهِمْ رَبَّهُـــم ..

فَتَنَـــــوَّعَ الْعَطَـــــاءُ وَالْحُـــــبُّ السَّـــــبَب ..

إِمَـــامَ الْغُـــرِّ الْمَحَجَّلِـــين .. وَخَـــاتَمَ الأَنْبِيَـــاءِ وَالْمُرْسَـــلِين ..

وَجْهُـــــكَ بَـــــدْرٌ وَصَـــــوْتُكَ طَـــــرَب ..

سَيِّدَ كُلِّ قَبِيلَةٍ وَفَرِيـــق .. يَـــا مَـــنْ بِـــالْمُؤْمِنِينَ رَحِـــيمٌ وَشَـــفِيق ..

تَتَـــــزَاحَمُ الْمَعَـــــــانِى وَيَمْنَعُنـــــــــــى الأَدَب ..
سَيِّدِى وَحَبِيبِى .. قُدْوَتِى وَشَفِيعِى .. الشَّوْقُ مُشْتَعِلٌ وَالدَّمْعُ انْسَكَب ..
فَهَلْ تَنْعَمُ بِرُؤْيَةِ وَجْهِكَ عَيْنَاى .. وَتَهْنَأُ بِلَـثْمِ قَـدَمَيْكَ شَـفَتَاى ..
فَــالْعُمْرُ وَلَّــى وَالزَّمَــانُ قَــدِ اغْتَــرَب ..
فَيَا رَبِّ يَـا أَكْـرَمَ مَسْـئُول .. وَيَـا خَيْـرَ مُرْتَجًـى وَمَـأْمُول ..
صَـــلِّ عَلَـــى سَـــيِّدِ الأَعَـــاجِمِ وَالْعَـــرَب ..
وَعَلَى الصَّحْبِ وَالآلِ وَمَـنْ تَبِـعَ ، وَكُـلِّ مَـنْ إِلَيْـهِ انْتَسَـب ..
مَا لاَحَ فِى الأُفُقِ نَجْمٌ أَوْ غَرَب .. أَوْ ظَهَرَ فِى السَّمَاءِ هِلاَلٌ أَوِ احْتَجَب ..
وَكُلَّـمَـا انْحَنَـى لَكَ فِـى الصَّـلاَةِ ظَـهْـرٌ أَوِ انْـتَـصَـب ..

أما بعد ،،

فإن من أهم الأمور فى الطريق إلى الله الوفاء .. الوفاء لمن ساق الله الفضل على يديه فهدانا إلى الصراط المستقيم ، وأخرجنا من الظلمات إلى النور .. والوفاء يبدأ لأول من حدَّثنا عن الله تبارك وتعالى ، وأرشدنا إلى باب رضوانه فعلَّمنا فرائض الإسلام وأركانه .

وأهمية الوفاء تتضح من القول المأثور : من علَّمَنِى حرفًا صرتُ له عبدًا .. وكذلك من قول رسول الله (ﷺ) : (**إذا حَشَرَ الله الْخَلاَئِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، قَالَ لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ اصْطَنَعَ إِلَيْهِ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِهِ مَعْرُوفًا : هَلْ**

شَكَرْتَهُ ؟ فَيقُولُ : أَيْ رَبِّ عَلِمْتُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْكَ فَشَكَرْتُكَ عَلَيْهِ ، فَيَقُولُ : لَمْ تَشْكُرْنِي ، إِذْ لَمْ تَشْكُرْ مَنْ أَجْرَيْتُ ذَلِكَ عَلَى يَدَيْهِ)[1] .. ولا يتوقف الوفاءِ عند أول معلم لنا ، بل يتعداه إلى مَنْ علَّمه وأرشده ، ولذلك جـــرت عادة الشيوخ على أن يحدِّثوا أتباعهم عن شيوخهم ، وشيوخ شيوخهم بكل الوفاء والتقدير والعرفان .. ومن أهم أقوالهم : (**إن من العلم أن تنسب العلم إلى قائله**) ، وهى علامة من علامات الوفاء ، وكلما التزم العبد بالوفاء زاده الله تبارك وتعالى معرفة للفضل ، وجعله من أهل الفضل ، فقديـــما قالوا : (**لاَ يَعْرِفُ الْفَضْلَ لأَهْلِ الْفَضْلِ إِلاَّ أَهْلُ الْفَضْلِ**) ..

هذا .. ويترَقَّى العبد فى وفائه لكل من كان سببًا فى وصول العلم إليه كأئمة الفقه ، وأئمة الحديث حتى يصل إلى أصحاب النبى (ﷺ) الذين حملوا المشاعل من بعده وسخَّرُوا حياتـــهم لحفظ العلم ونقله إلى التابعين .. هؤلاء الرجال الذين اختارهم الله لنبيه (ﷺ) وزراء وأنصارًا ، وأدَّبهُم بأدب الإسلام ، وجعلهم أهلاً لصحبة سيد الخلق (ﷺ) ، صاحب الفضل العميم ، والـــذى أرسله الله رحمة للعالمين ..

ووجوب الوفاء لسيد الخلق (ﷺ) يتضح من أمر الله لنا بالصلاة عليـــه على رغم أن صلاتنا عليه تحصيل حاصل ، إذ نطلب من الله أن يصلى عليـــه

---

[1] رواه الطبرانى فى المعجمين الأوسط والصغير .

مع أنه يصلى عليه فعلاً هو وملائكته ، وكَأَنَّ صلاتنا عليه تـــذكرنا بـــه ، وبفضله علينا ، وبجهاده فى تبليغ الرسالة ، وبما لقى من مشقة وعنت حـــتى وصلت إلينا الرسالة كالْمَحَجَّةِ البَيْضَاء لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا مُشْرِقٌ وَضَّاء ..

ولقد ألهمنى الله تبارك وتعالى فى شهر رمضان منذ سنوات أن يكـــون حديثى بعد صلاة القيام عن حياة سيدنا محمد (ﷺ) ، وعشنا ثلاثين ليلـــة فى رحابه ، وتم تسجيل ما قلته على أشرطة كاسيت وفيديو .. ثم طلب إخوانى أن يصدر كتاب يضم هذه السيرة العطرة كما تم بالنسبة إلى أحاديث شهور رمضان الأخرى ، فاستعنت بالله تبارك وتعالى وبـــدأت فى تســـطير تلـــك الأحاديث مع اختصارها قدر الإمكان ، وحذف مـــا لا يُـــؤَثِّر فى صـــلب الموضوع حتى يتم التركيز على ما يجب معرفته والتأمل فيه من رحلة ســـيد الخلق (ﷺ) مع الرسالة الخاتمة حتى تم إبلاغها على أتم وجه وأكمله فتمَّـــت نعمة الله عز وجل على خير أمة أخرجت للناس ..

والله أسألُ الإعانة والتوفيق والهداية .

إنه خير مأمول وأكرم مسئول .

ياسين رشدى

الخليل عليه السلام ومكة

فى بيت تصنع فيه الأصنام نشأ الفتى ورأى أباه يصنعها بيديه ويضعها على الأرض تارة ، ويضربــها بالمطرقة تارة ، ويُشَكِّلها كيف شاء ، ثم يبيعها لقومه فيعبدونــها ويقدمون لها القرابين معتقدين فى نفعها وضرها .. وأخذ الفتى يفكر فيما يراه ، وينظر فى رحابة الكون ، وما يشتمل عليه من كواكب نيرة ، وشمس وقمر ، تلوحُ فى الأفــق مُشْرِقَة وغاربة يَعُمُّ نَفْعُها الخلائــق ، وقومه عنها غافلون ، وعن مُسَخِّرِها معرضون ، فلجأ إلى مَنْ خلق كل ذلك وسخره سائلاً إيَّاه الهداية .. وهنا تجلت رحمة الله - تبارك وتعالى - على الفتى فأضاءت بصيرته ، واستنار قلبه وعرف الله .. وكان أول ما خطر على باله هو إنقاذ أبيه من الضلال الذى هو فيه .. وكانت المفاجأة فى رد أبيه عليــه بمنتهى الغلظة والشدة على رغم اللين واللطف والأدب الذى خاطبــه بــه ، والحجة الواضحة التى بَيَّنَها له .. ولم يجد الفتى أمامه إلا أن يقدم لهم برهانًــا عمليًّا على سفاهتهم ، فتسلل إلى معبدهم وحطم أصنامهم تاركًا أضخم صنم فيها ليلزمهم الْحُجَّة .. وجن جنون القوم .. وجاءوا بالفتى واجتمعوا حولــه ليسألوه : أهو الذى فعل ذلك ، فأشار إلى الصنم الكبير مُتَّهِمًا إياه بفعل ذلك ، وطلب منهم أن يسألوا الأصنام المحطمة عمن فعل بــهم ذلك .. وهنا أُسْقِط فى أيديهم وكادوا يعودون إلى الحق لولا أن غلب عليهم الكبر وأخذتــهم حمية

الجاهلية ، وقرروا أن ينتقموا من الفتى أشد الانتقام ..

واستقر رأى زعماء الكفر على قتل الفتى بالحرق بالنار علنًا ليكون عبرة لِمَنْ تحدثه نفسه بالتطاول على آلهتهم .. وأوقدوا نارًا وظلوا يُحمُونَها ويقذفون فيها الحطب لمدة أيام عديدة ، وتحيروا من شدة لهيبها فى كيفية إدخال الفتى فيها ، فقرروا أن يبنوا له بنيانًا ليقذفوه فيها من بعيد .. وتم لهم ما أرادوا .. وينزل جبريل الأمين ليسأل الفتى : ألك حاجة يا إبراهيم ؟ فيقول بمنتهى الثبات واليقين : أما لك فلا ، وأما لله فعلمه بحالى يغنى عن سؤالى .. وهنا صدر الأمر الإلهى إلى النار بأن تكون بردًا وسلامًا على إبراهيم ، فلم تحرق النار سوى قيوده ، فتحرر وخرج من النار سالِمًا يمشى أمام أعين الجميع ..

وقرر سيدنا إبراهيم أن يهاجر فى سبيل الله تاركًا أرض الكفر سائلاً ربه أن يهديه سواء السبيل ، وأن يرزقه الذرية الصالحة .. ومَرَّ فى طريقه مع زوجه سارة ببلدة يحكمها كافر جبار إذا أعجبه حُسن امرأة أخذها لنفسه وقتل زوجها ، وحين علم بوصول رجل ومعه امرأة حسناء أرسل من يسأله عنها ، فقال : هى أختى ، فاستدعاها الملك .. وهنا قال لها سيدنا إبراهيم : يا سارة لا أعلم على الأرض مؤمنًا غيرى وغيرك فأنت أختى فى الله ، فإن سألك الملك فقولى إنك أختى .. وذهبت سيدتنا سارة إلى الملك وهى خائفة تدعو الله أن يحفظها ويقيها شر عدوان الملك الجبار ، واستجاب الله لدعائها ، فحين همَّ الملك

بـــها شُلَّ فى مكانه فوعدها بعدم التعرض لها إن هى أطلقته ، فسألت الله أن يُطْلِقَه خشية أن تُتَّهم فيه ، فأطلقه الله ، فهَمَّ بـــها ثانية فَشُلَّ فى مكانـــه ، وتكرر الأمر ثلاث مرات ، فعلم الملك ألا سبيل إليها فصرفها ، ووهب لهـــا جارية تدعى (هاجر) استرضاءً لها .. وعادت سيدتنا سارة إلى سيدنا إبراهيم فرحة بحماية الله لها وبِهدية الملك ، وأخبرته الخبر .. وآمنت هـــاجر بـــالله وبسيدنا إبراهيم فتزوجها ، ورزقه الله منها سيدنا إسماعيل ، وكان أول مولود له إذ كانت سيدتنا سارة عاقرًا لا تلد ..

وصدر الأمر الإلهى إلى سيدنا إبراهيم بالرحيل مع هاجر وولـــدها إلى مكة .. ومكة فى ذلك الوقت لم تكن بلدًا و لم يكن بـــها أناس ، وإنما كانت ملتقى القوافل الآتية من شمال الجزيرة العربية والقادمة من جنوبـــها ، فقـــد كانت واديًا بين الجبال تصلح للاستراحة وتبادل التجارة بين القوافل .. ومـــا كاد سيدنا إبراهيم يستقر بامرأته ، وطفله الرضيع حتى صدر إليه الأمر الإلهى بتركهما والعودة إلى الشام ..

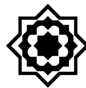
وانصاع إبراهيم للأمر ، واستسلمت هاجر لقدرها واثقة من رعاية الله لها ولرضيعها .. وفرغ الزاد ، وجف الضرع ، وليس فى المكـــان المـــوحش إنسان ، وهرعت هاجر تسعى بين الصفا والمروة لَعَلَّها تجد مَـــنْ يغيثهـــا ، وصراخ الرضيع يعلو على وقع قدميها ، واستمرت هى فى السعى وأملها فى

النجاة يضعف رويدًا حتى أتَمَّت سبعة أشواط ، وفجأة توقف صراخ الرضيع وعَمَّ السكون المكان .. وذهبت لترى الرضيع فإذا به يلعب بالماء المنفجر من الأرض ، فهوت على الماء تحاول جمعه بيديها وهى تقول : زمِّى زمِّى ، خشية أن يتسرب إلى الأرض ، ولكن الماء لم يتوقف عن التدفق وصار عينًا عذبة ، فشربت حتى ارتوت ، واطمأنت إلى رعاية الله لها ولرضيعها .. وبدأت الطيور تحوم حول المكان مما لفت أنظار القوافل التى سارعت إلى هذا الخير ، وبدأت السيدة هاجر تقايض الماء بالطعام .. وشب الرضيع وجاء سيدنا إبراهيم ، وما كاد الشمل يجتمع حتى رأى الأب فى منامه أنه يذبح ولده الوحيد - ورؤيا الأنبياء وحى - وقرر الأب الانصياع للأمر وشاور ابنه فى ذلك فاستسلم الفتى لأمر الله راضيًا محتسبًا كما استسلم الأب .. وهنا تم الفداء بِذِبْحٍ عظيم نزل من السماء ..

وأوحى الله إلى سيدنا إبراهيم أن يستعين بولده سيدنا إسماعيل لبناء الكعبة فى مكانها الذى حدده له .. وتم بناء الكعبة وانتشرت ملة سيدنا إبراهيم فى مكة وما حولها ، وحمل لواءها سيدنا إسماعيل الذى اصطفاه الله رسولاً ونبيًّا .. وتزوج سيدنا إسماعيل ، واستتب له الأمر بمكة ، وانتشر الإسلام فى ربوعها ، وأصبحت الكعبة قبلة الصلاة ، ومزارًا للحجيج يطوفون بها ، ويؤدون مناسكهم وفقًا لملة إبراهيم الحنيفية السمحاء ..

ومضت الأيام ، ومرت السنون ، ومكة آمنة يرزق أهلها مــن كــل الثمرات استجابة لدعوة إبراهيم الخليل ، واستقرت بــها بعــض القبائــل وشيدت مساكنها حول الكعبة التى كان يرعاها سيدنا إسماعيل كما كــان يرعى زمزم ، واستقر حبه والولاء له فى قلوب الجميع حتى اختــاره الله إلى جواره ، ودفن بالمسجد الحرام بحجر إسماعيل حيث دفنت أمه سيدتنا هاجر .. وبدأ يظهر طمع بعض القبائل فى السيطرة على مكة وحيازة شرف سِدَانَة البيت والسِّقَاية ، وكان ذلك كله لقبيلة جُرْهُم التى تزوج سيدنا إسماعيل امرأة منهم .. وتجهزت قبيلة خُزَاعَة للاستيلاء على مكة .. وهنا قام رئيس قبيلة جرهم بردم بئر زمزم ودفن معها غزالتين وأسيافًا ودروعًا ، كلها من ذهب كانت تــزين الكعبة ، وأخذ أولاد سيدنا إسماعيل وأحفاده ورحل بــهم إلى الشام ..

وهكذا استولت قبيلة خزاعة على مكة والبيت الحرام الذى أصبح مثابة للناس يأتون إليه من كل مكان ، وخاصة أنه كان فى طريق القوافل المتجهــة من الجنوب إلى الشام ، والمتجهة من الشام إلى اليمن .. واتسعت أرزاق أهل مكة ببركة الكعبة وبدعوة سيدنا إبراهيم .. وظل الأمل يحدو أحفاد ســيدنا إسماعيل فى العودة إلى مكة وإلى الكعبة التى بناها أبواهم سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل عليهما السلام ..



العودة إلى مكـة

كان الناس يطوفون حول الكعبة اتباعًا لسنة سيدنا إبراهيم ، وكـــان سيدنا إسماعيل رسولاً لأهل مكة ومن حولها يهديهم إلى الصراط المســتقيم ويبين لهم أحكام الإسلام .. وبعد وفاته – عليه السلام – سار الناس على هَدْيِهِ حقبة من الزمان .. ثم بدأ يدخل فى الدين ما ليس منه .. وكانت البداية اعتياد الناس من أهل الحرم أن يأخذوا قطعة حجر من الأرض حـــول الكعبـــة فى أسفارهم ليتبركوا بـــها ، ثم بدأ الشيطان يزين لهم تشكيل هذه الأحجار فى أشكال مختلفة ، وانتشرت صناعة الأصنام بمكة لبيعها ، وتحولت العبـــادة إلى تجارة ، وركن أهل مكة إلى الدعة والرفاهية ، وأصبح كل تفكيرهم فى جمـــع المال ، وبدأت صناعة الخمر تروج فى مكة وصارت من أهم تجاراتـــــهم ، وبدأ البغاء ينتشر وخُصصت له أمكنة تعرف بالرايات الحمراء الـــتى كـــانوا يرفعونـــها ليراها طلاب المتعة الحرام .. وأصبح الطواف حول الكعبة عرضًا للأجساد العارية ، وتحول الدعاء إلى تصفيق وصفير ، وجُعلت الأصنام آلهـــة تُقَدَّم لها القرابين ، وتُنْحَر عندها الذبائح ، وبدأ شياطين الإنس يُشرِّعون للناس ما لم يُنَزِّل الله به سلطانًا ، فيحلون لهم أشياء ويحرمون علـــيهم أشـــياء .. وتحولت البلدة الحرام إلى سوق للنخاسة ، وانتشرت تجارة الرقيق ، كما انتشر الظلم والعدوان ، وإغارة القبائل بعضها على بعض ، واستُحلت الحرمات ،

وكان وأد البنات وعقوق الأمهات من شائع العادات ..

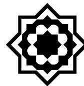
ومرت السنون على قبيلة جُرْهُم فى الشام .. وكان من أحفاد سيدنا إسماعيل رجل يقال له (قُصَىّ بن كلاب) كان تاجرًا كثير المال يملؤه الحنين للعودة إلى مكة مسقط رأس أجداده ، ولما تَهيأت له الفرصة رحل إليها بأمواله وبدأ يتاجر فيها بأمانة وحسن خلق فأحبه الناس لكرمه وسخائه ودماثة خلقه .. واستقر به المقام بمكة ، وفكر فى الزواج فتقدم لخطبة بنت زعيم قبيلة خزاعة ، والذى بيده مفتاح الكعبة وله شرف السِّدانة [1] ، ففرح به وزوجه إياها .. ومرت الأيام ، وحين حضرته الوفاة أوصى بمفتاح الكعبة لابنته امرأة قُصَىّ التى لم تقبل ذلك فأخذ المفتاح أحد أبناء عمومتها ، وكان رجلا سِكِّيرًا مِتْلافًا .. وفى يوم من الأيام ضاق به الحال واحتاج إلى المال فباع مفتاح الكعبة بزِقٍّ [2] من خمر لقُصَىّ بن كلاب .. وهاجت خزاعة لضياع هذا السلطان من أيديهم ، وقامت المعركة بينها وبين قُصَىّ ومن انضم إليه من قومه ومن غيرهم من العرب ، وانتصر قُصَىّ وأَجْلَى خزاعة عن مكة ، وصارت له الرياسة فيها .. وحين حضرت قُصَىّ الوفاة أوصى بالرياسة لابنه عبد الدار الذى كان له شقيق يدعى عبد مناف ، وحين حضرت عبد الدار الوفاة أوصى بالسدانة والسقاية لأحد أولاده فثار أبناء عبد مَناف وكاد القتال أن يشتعل بينهم لولا أنهم اصطلحوا على أن يقتسموا الأمر ، فصارت سدانة الكعبة لأولاد

(1) السِّدانة : الاهتمام بالكعبة والعناية بها .
(2) الزق : وعاء من جلد يُتخذ للشراب .

عبد الدار ، والسقاية والرفادة [1] لأبناء عبد مناف ، وقد صارت بعد ذلك لهاشم بن عبد مناف الذى تزوج فى إحدى رحلاته بفتاة من يثرب (المدينة المنورة) ، وعاد بها إلى مكة ، وحملت منه ، وحين اقتربت ساعة الوضع عادت إلى المدينة لتلد بين أهلها حيث جاءت بولد سَمَّتْه شيبة ، ومات هاشم بمكة بعد أن أوصى بالسقاية والرفادة لأخيه المطلب الذى سارع إلى المدينة لإحضار شيبة ابن أخيه ، وعاد به إلى مكة حاملاً إياه على بعيره ، ورآه الناس فقالوا : لقد اشترى المطلب غلامًا ، وأطلقوا عليه لقب عبد المطلب ، الذى اشتهر به بعد ذلك بين الناس .. ورُبِّىَ عبد المطلب فى حجر عمه المطلب حتى إذا حضرته الوفاة أوصى بالسقاية والرفادة لابن أخيه عبد المطلب إذ كانت لأبيه هاشم قبل أن يموت ويوصى بها لأخيه المطلب ..

وهكذا صارت أمور السقاية والإطعام لعبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ..

واستقرت الأوضاع بمكة ، وأصبحت الرياسة لعبد المطلب ، وأقرته عليها قبيلة قريش وغيرهم من أهل مكة ..



---

[1] الرِّفادة : إطعام الحجيج .

حفر بئر زمزم

كانت السقاية فى مكة تتم من آبار بعيدة عن الحرم ، وكان المسئول عن السقاية يجهز أحواضًا كبيرة حول الكعبة ، ثم يأتى بالماء من الآبار ويملأ به الأحواض وتتم السقاية بذلك .. ولقد كان فى الأمر مشقة كبيرة مما دفع عبد المطلب للتفكير فى زمزم التى ردمت ، ولا يعرف أحد أين كان مكانها .. ويقال إن عبد المطلب نام يومًا فى الحِجْر فجاءه هاتف فى منامه يأمره بحفر زمزم ، وتساءل عبد المطلب فى نفسه : وأنَّى لى بمكانها ؟! وتكررت رؤياه حتى قيل له : إنها بين إساف ونائلة الصنمين اللذين كانت قريش تعظمهما وتقدم لهما القرابين ..

ولم يكن لعبد المطلب سوى ولد واحد يدعى الحارث ، فأخذه وأخذ الفأس وذهب يحفر فتصدت له قريش خشية على أصنامها ، فأخبرهم برؤياه فتركوه وما أراد .. واستمر فى الحفر حتى ظهر له الأسياف والدروع والغزالتان ، وكلها من ذهب خالص .. وأرادت قريش أن يقاسموه هذا الكنز ، ولكنه أصر أن يكون ذلك من حق الكعبة ، فقام بصهر الأسياف والدروع وصنع منها بابًا للكعبة ، وزيَّنَه بالغزالتين ..

وانفجرت زمزم مرة ثانية ، وتيسر أمر السقاية ، وزاد تعظيم قريش لعبد المطلب ..

وكان تعنت قريش مع عبد المطلب فى حفر زمزم دافعًا لـــه علـــى أن يتوجه إلى الله بالدعاء أن يرزقه عشرةً من الأولاد ، ونذر أن ينحر أحدهم عند الكعبة تقربًا إلى الله إذا بلغوا معه مبلغ الرجال واستطاعوا أن يمنعوه ..

واستجاب الله لعبد المطلب ، ورزقه الأولادَ العشرة وكـــان عبـــد الله أصغرهم وأحبهم إليه .. وأراد عبد المطلب أن يفى بنذره ، فجمع أبناءه وأخبرهم بـــهذا النذر فاستجابوا له جميعًا ، فأخذهم وأخذ السكين وذهب بـــــهم إلى الكعبـــة ، حيث الرجل المختص بضرب القِدَاح [1] ، فخرجت على عبد الله .. واجتمعت قريش حول عبد المطلب ليمنعوه من تنفيذ النذر حتى لا يصـــبح الأمر سُنة فى العرب ، ولما رأوا إصراره اقترحوا عليه أن يستشيروا فى الأمـــر عَرَّافة مشهورة عندهم ، ووافقهم عبد المطلب على ذلك ، وذهبوا إلى العرافة التى أشارت عليهم بالذهاب إلى الكعبة ، وبتقديـــم عبد الله ، وتقديـــم عشرة من الإبل (وهى قيمة دِيَة المقتول عندهم) وبضرب القداح ، فإن خرجـــت على الإبل نحروها فداءً لعبد الله ، وإن خرجت على عبـــد الله زادوا الإبـــل عشرة أخرى وهكذا حتى يرضى الرب .. وقام عبد المطلب ومَنْ معه بتنفيذ الأمر ، وظلت القداح تخرج على عبد الله حتى بلغت الإبل مائة فخرجـــت عليها القداح ثلاث مرات متتاليات فنحروها ، وطابت نفس عبد المطلـــب ، وعاد بابنه عبد الله فرحًا مسرورًا ..

---

[1] القِدَاح : سهام تكتب عليها الأسماء تُجرى بـــها القرعة .

انتشر خبر فداء عبد الله .. وطمعت فتيات مكة فى هذا الشاب الوسيم نجل سيد قريش .. الذى لم يرضَ الرب فى فدائه بأقل من مائة من الإبـــل ، على رغم أن دية القتيل عندهم لا تزيد على عشرة من الإبل ..

وفكر عبد المطلب فى أن يزوج ابنه ، فاختار له بنت سيد بنى زهرة : آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، واختار لنفسه ابنة عمها : هالـــة – الـــتى ولدت له حمزة عم النبى (ﷺ) والمقارب له فى سنه – وأقيمت الأفراح ابتهاجًا بالفداء وبالزواج .. ولم يلبث عبد الله إلا قليلاً حتى سافر فى قافلة إلى الشام للتجارة ، وفى طريق العودة إلى مكة توقف فى يثرب (المدينة المنورة) لزيارة أخواله من بنى النجار ، ومرض مرضًا شديدًا أقعده عن السفر مع القافلة التى عادت إلى مكة من دونه .. وحين علم أبوه بمرضه أرسل إليه أخاه الحارث بن عبد المطلب ليعود به ، ولكن الموت كان أسرع منه ، فمات عبد الله ودفـــن بيثرب (المدينة المنورة) .. وعاد الحارث إلى مكة يحمل خبر الفاجعة إلى أبيه الذى ملأه الهم والحزن على هذا الابن الحبيب الذى لم يمض على فدائه سوى أشهر قليلة .. وأصابت الصدمة فؤاد العروس السيدة آمنة بالحزن الشديد .. تلك العروس التى كانت تنتظر عودة زوجها بفارغ الصبر ليستقبلا معًا ذلك الوليد الذى بدأ يتحرك فى أحشائها .. وانتقلت الأرملة الحزينة للعيش فى بيت والد زوجها ليرعاها ويحنو عليها ، ويشاركها فجيعتها ..

الفيل والطير الأبابيل

كان استقرار الأحوال بمكة ، ورحلات التجارة إلى اليمن فى الشتاء وإلى الشام فى الصيف ، بالإضافة إلى موقعها المتوسط فى طريق القوافل التى كانـــت تتوقف عندها للاستراحة سببًا لتمتع أهلها بكثرة الأموال والعبيـــد والإمـــاء ، فعاشـــوا فى ترف ونعيم .. وكان المارون بـــها يستمتعون بالخمور ، وباللهو والفجور فى الأماكن التى خُصصت لذلك وامتلأت بالجوارى الحسان .. هذا إلى جانب تعظيم الكعبة فى نفوس العرب جميعًا ، وعبـــادة الأوثـــان الـــتى تقربـــهم - فى زعمهم - إلى الله زلفى وتشفع لهم عنده .. تلك الوثنية التى لم يسمح أهلها بوجود دين آخر كاليهودية أو النصـــرانية إلى جوارهـــا .. كل ذلك دفع البلاد الأخرى إلى إقامة معابد فيها لجذب العـــرب وقوافـــل التجارة إليها .. وكان فيمَنْ فكَّر فى ذلك ملك الحبشة ، وأراد أبرهة الأشرم - عامله على اليمن - أن يرضيه فبَنَى كنيسة عظيمة باليمن وزخرفها وزينها ، ولم يفلح ذلك فى صد العرب عن مكة أو البيت الحرام ، فلم يجد أبرهة طريقة إلا هدم الكعبة ، وجهَّز لذلك جيشًا كبيرًا يتقدمه فيل ضخم عظيم ، وسار إلى مكة .. ونزل الجيش على حدود مكة ، وأرسل أبرهة بعض فرسانه فاستولوا على غنم وإبل كثيرة كانت ترعى ، منها مائة بعير لعبد المطلب .. واجتمـــع أهل مكة لبحث هذا الأمر الجلل الذى نزل بـــهم دون توقع أو انتظـــار ،

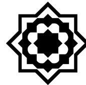
وقرروا الحرب والدفاع عن بلدهم ، إلا أنـــهم اكتشفوا أنه لا طاقة لهم بذلك .. وإذا برسول أبرهة يأتى ليستدعى سيد أهل مكة لمقابلة قائد الجيش الغازى .. وذهب عبد المطلب لمقابلة أبرهة الذى أكرم وفادته وأحسن استقباله للهيبة التى كانت تعلوه وللوقار الذى كان يكسوه ، وأخبره بأنه لا يريد قتالاً وإنما جاء فقط ليهدم الكعبة ، فإن تركوه وما أراد عصموا أموالهم ودماءهم .. وإذا بعبد المطلب يطلب منه الإبل التى استولى عليها فرسانه ، فقال له أبرهة : جئـــتُ لأهدم كعبتكم التى تعظمونـــها فتكلمنى فى الإبل ولا تكلمنى فى الكعبة ؟!! فقال عبد المطلب : أما الإبل فأنا ربـــها ، وأما البيت فله رب يحميه .. ورد أبرهة له الإبل وصرفه ، وتجهز لدخول مكة .. وحين همَّ بالتحرك بَرَكَ الفيلُ ولم يتحرك ، وحاولوا معه بالسياسة تارة ، وبالشدة تارة فلم يفلح ذلـــك ، فوجهوه إلى جهة أخرى فتحرك ، ثم عادوا ووجّهوه إلى مكة فلم يتحرك ، وباءت جميع محاولاتـــهم بالفشل ، واحتمل الفيل الضرب والعذاب وهـــو صامد لا يتحرك – وسميت هذه المنطقة بعد ذلك بوادى (مُحَسِّر) لأن الفيل حُسِرَ فيها – وعاد عبد المطلب إلى قومه ، وأمرهم بالخروج من مكـــة إلى شعاب الجبال ، وذهب إلى الكعبة ، وأخذ بحلقات بابـــها يدعو الله أن يحمى البيت العتيق قبلتهم وقبلة إبراهيم وإسماعيل ..

وتحدث المعجزة .. ويرسل الله طيرًا أبَابِيل تحمل فى مناقيرها وأرجلها حجارة من سِجِّيل تقذف بـــها جيش أبرهة فلم تغادر منهم أحدًا ، وانـــهزم

الجيش وفَرَّ جنوده عائدين وهم يتساقطون الواحد تلو الآخر لم ينجُ منـــهم إلا القليل الذين حدَّثُوا قومهم بما حدث ، ثم وقعوا صرعى مثل الآخرين ..

وانتشرت القصة فى ربوع الجزيرة العربية وما حولها مما زاد من مكانة مكة فى نفوس الجميع ، وصارت بلدًا آمنًا كما طلب سيدنا إبراهيم عليه السلام فى دعائه حين لم تكن إلا واديًا بلا زرع ولا ضرع ..

واطمأن أهل مكة إلى حماية الله لبلدهم الحرام وزادهم ذلك غــرورًا واستعلاءً ، وأمعنوا فى الرفاهية ، وانغلقت مكة على عبــادة الأصــنام ، ولم يسمح بوجود دين آخر فيها ، وأصبحت مكة مستقلة بنفسها كما كانــت كل قبيلة من قبائل العرب مستقلة بنفسها ، ولم يفكر العرب فى أن تكون لهم دولة أو أمَّة كدولة الفُرْس أو دولة الرُّوم أو دولة الْحَبَشَة ..



مولد النور

مضت أشهر الحمل بالسيدة آمنة بطيئة حزينة حتى إذا جاءت ساعة الوضع وضعته (ﷺ) فى بيت جده عبد المطلب الذى كان يجلس عند الكعبة ، وحين جاءه الخبر أسرع إلى بيته فرحًا مسرورًا ، وحمل الوليدَ – الذى كان عوضًا له عن أبيه – حمله إلى الكعبة وطاف به ، وأسماه مُحَمَّدًا .. و لم يكن هذا الاسم شائعًا عند العرب ، وحين سُئل لماذا عَدَل عن أسماء آبائه إلى هذا الاسم ، قال : أردت أن يكون محمودًا عند الله فى السماء وعند الناس فى الأرض ..

وكعادة أشراف العرب فى ابتغاء المراضع لأبنائهم انتظرت آمنة قدوم المراضع من قبيلة بنى سعد بن بكر اللاتى اشتهرن بذلك ، ودفعته لثُوَيْبَة جارية عمه أبى لهب لترضعه ريثما تأتى المراضع ، وقد أرضعت ثُوَيْبَة حمزة بن عبد المطلب كذلك ، فكان أخا للنبى (ﷺ) فى الرضاعة ..

وجاءت المراضع ومعهن حليمة السعدية ومعها زوجها الحارث بن عبد العزى وطفل لها رضيع ، وبسبب ما كان يبدو على حليمة من الضعف ورقة الحال ، لم ترغب واحدة من الأمهات فى دفع طفلها إليها .. فى الوقت نفسه لم ترغب واحدة من المراضع أن تأخذ ابن آمنة لأنه يتيم وهن يطمعن فى مكافآت الأب .. فبقى هو من غير مرضع ، وبقيت هى بغير رضيع ، مما دفعها إلى أخذ هذا اليتيم حتى لا ترجع دون صويحباتها بغير طفل ترضعه ..

وارتحلت حليمة السعدية من مكة وهى تحمل اليتيم الذى أخذته على مضض ، وهى لا تعلم أنــها تحمل أغلى مَنْ فى الوجود وسيد الخلق جميعًا ورحمة الله إليهم .. وبدأت آثار البركة تظهر .. فإذا بالأَتَان [1] الضعيفة تنشط وتُسْرِع الْخُطَا ، وإذا بالناقة الهزيلة يمتلئُ ضرعها باللبن ، ويتوقف بكاء طفل حليمة فقد فاض اللبن من ثدييها فأشبعه ورواه .. وتتعجب صويحبات حليمة من هذا التحول المفاجئ : أهذه هى الأتان التى جاءت عليها ؟!! وتلك هى الناقة التى جاءت بــها معها ؟!! .. لابد أن فى الأمر شيئًا .. وأيقنت حليمة وزوجها أن اليتيم الذى معهما له شأن عظيم ، فتعلقت قلوبــهما بــه ، وزادت رعايتهما له ..

ووصل الركب المبارك إلى ديار بنى سعد بن بكر حيث الطبيعة على أصلها ، واللسان العربى على فصاحته وســلامته .. وزادت البركــة فى دار حليمة إذ تخرج أغنامها ترعى وتعود وقد امتلأت ضروعها باللبن وانتفخــت خواصرها من الشبع ، ويسعى الجميع بأغنامهم إلى حيث ترعى أغنام حليمة ولكن هيهات هيهات .. ويزداد تعلــق حليمة بذلك اليتيم المبارك ، وتحنــو عليه وترعاه ابنتها الشَّيْمَاء ، وتحبه كحبها لأخيها عبد الله الذى يشــاركه فى ثدى أمه ..

---

[1] الأتان : أُنْثَى الحمار .

وتمر الأيام ويأتى موعد الفطام ورد الأمانة إلى أهلها ، وتذهب حليمة إلى مكة تقدم رِجلاً وتؤخر أخرى ، فما أصعب التخلى عن هذا الابن من الرضاع .. وترى السيدة آمنة وليدها وقد كساه ثوب الصحة والعافية ، وتفاجأ بإصرار حليمة على العودة به مما لا يدع لها مجالاً للرفض .. وتعود السيدة حليمة بهذا اليتيم المبارك الغالى إلى ديارها فرحة مسرورة مجتهدة فى رعايته والعناية به .. وتمضى الأيام سعيدة مشرقة بما حَلَّ على هذه الأسرة من بركات ..

وتفاجأ حليمة يومًا بابنها عبد الله يأتى مسرعًا وهو يقول : يا أمى أدركى أخى القرشى ، فقد جاء رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه وشقَّا صدره وأخرجا منه شيئًا ألقياه بعيدًا .. وتذهل حليمة وتسرع يملؤها الرعب إلى حيث كان يلعب الصبيان فتجده ممتقع الوجه فتسأله ، فيخبرها الخبر ، فتخشى عليه من أن يكون قد أصابه مس من الجن ، وتحكى لزوجها فينصحها بإعادته إلى أمه قبل أن يحدث له شىء أو أن يظهر عليه أثر لما حدث ، وتعود به حليمة ، وتتعجب أمه من هذه العودة المفاجئة وتسألُ حليمةَ : أين حرصك على الاحتفاظ به ، وماذا حدث ؟!! فأخبرتها الخبر ، فلم تنزعج السيدة آمنة وطمأنتها قائلة : إن ابنى هذا سيكون له شأن عظيم ، ولا سلطان للجن عليه ، فقد رأيت فى منامى وأنا حامل به كذا وكذا .. فعادت به حليمة إلى ديارها مرة أخرى حتى بلغت سِنُّهُ خمس سنين ، فرجعت به وأسلمته إلى أمه فصيح اللسان سليم اللغة قوى البيان ..

الرحلة الحزينة

فرح عبد المطلب بعودة حفيده ، وأغدق عليه من حبه وحنانه ، وكان يُجلسه إلى جواره على فراشه حين يجلس فى ظل الكعبة ، بينما يجلس بنوه حول الفراش وليس عليه إجلالاً لأبيهم سيد قريش وسيد مكة كلها ..

و لم يدم هذا الحال طويلاً ، فقد قررت السيدة آمنة أن تذهب إلى يثرب ليزور ابنُها قبر أبيه ويتعرف بأخوال جده من بنى النجار ، وأخذت معها أم أيمن (بركة الحبشية) التى كانت ضمن التركة التى خَلَّفَها زوجها عبد الله .. ومكثت آمنة شهرًا بيثرب ، لا يرى ابنها فيها سوى دموعها ولا يسمع إلا أنَّات ألمها وهى تحكى له عن أبيه الذى لم يمكث معها إلا قليلاً ثم جاء إلى هذه البلدة ليوافيه أجله المحتوم .. وعزمت آمنة على العودة إلى مكة ، وتحرك الركب حتى إذا كانوا بالأَبْوَاءِ [1] مرضت آمنة مرضًا شديدًا ماتت على إثره ودفنت هناك .. وتضاعف اليتم على الصغير الذى عادت به أم أيمن إلى مكة حزينًا أسيفًا لا يملك إلا دموع الألم والحزن على الأم التى ذهبت وتركته وحيدًا كما ذهب أبوه من قبل أن يراه .. وهكذا انتهت رحلة ذى السنوات الست من العمر حيث تلقاه جده عبد المطلب ليكفله ويرعاه ، ويبقى فى حضانة أم أيمن حتى يبلغ من العمر ثمانى سنين ، ثم يفاجأ بموت الجد ذى القلب الحنون الذى كان يحاول أن يعوضه عن فقد أبويه ، ويسير خلف نعشه منتحبًا حزينًا لا يدرى ما تخبئه له الأيام .

---

[1] الأبواء : بلدة بين المدينة والْجُحْفَة فى الطريق إلى مكة .

كفالة العم

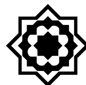
كان موت عبد المطلب ضربة قاصمة على بنى هاشم وعلى قـــريش وأهل مكة جميعًا ، فقد كان ذا رأى سديد ، وحكمة بالغة ، وعزم وأصـــالة وحسن خلق ، بالإضافة إلى ما كان يقوم به من إطعام الحجيج وســـقيهم ، والبر بأهل مكة فيحل مشاكلهم ، ويقف إلى جوار المظلوم منهم ، ويرعـــى فقيرهم وضعيفهم .. مكانة لم يصل إليها أحد من أبنائه من بعده ، فقد كان فقيرهم عاجزًا عن أن يأتى بمثل عمله كالحارث أكبر أبنائه ، وكان غنـــيهم حريصًا على ماله كالعباس الذى فضَّل أن يحتفظ بالسقاية فقط دون الرفـــادة (الإطعام) .. وكان أنبلهم ، وأكرمهم ، وأفضلهم مكانة فى قريش : أبو طالب ، ولذلك عهد إليه عبد المطلب دون غيره برعاية ابن أخيه .. ولقد قام أبو طالب بذلك خير قيام ، فأحب ابن أخيه حبًّا شديدًا حتى إنه كان يقدمه على أبنائه ، خاصة لما وجد فيه من نبل ، وحسن خلق ، وطيب نفس ، وحلو معشر ، وزاد تعلق كل منهما بالآخر حتى إن أبا طالب لما همَّ بالخروج إلى الشام للتجارة تعلق به ابن أخيه تعلقًا شديدًا وأصر على الخروج معه ، وأشفق عليه عمه من وَعْثَاء السفر وحَرِّ الصحراء ، إذ كان فى الثانية عشرة من العمر .. وأخـــيرًا وافق على اصطحابه معه حين رأى شدة تعلقه به وإصراره على السفر معه .. وتحركت القافلة ووصلت إلى مدينة بصرى فى جنوب الشام حيث مـــرت براهب يدعى بَحِيرَى الذى حين رأى الغلام مع عمه سأل عنه ، وحين علم

أنه يتيم الأبوين ورأى فيه أمارات يعلمها من كتبهم نصح عمه بالرجوع به إلى مكة والحرص على أن لا تقع عليه أعين اليهود ، ولم يزد على ذلك ..

وعاد أبو طالب إلى مكة دون أن يجنى كثيرًا من المال فى رحلته تلك ، التى لم يتبعها برحلات أخرى ، وبقى بمكة يعول بماله القليل أولاده وابن أخيه الذى بدأ يرعى الغنم لأهله ولأهل مكة ليكفى عمه مؤنته ..

وفى الوقت الذى كان شباب مكة فيه ينهلون من متع الحياة دون رادع أو زاجر ، خاصة أن الخمر والميسر والزنا كانت من الأمور المباحة عندهم ، ويكفيهم – فى نظرهم – أن يطوفوا بالكعبة ، ويقدموا القرابين إلى أصنامهم وأوثانهم التى تشفع لهم عند ربهم ليرضى عنهم ، كان هو متمسكًا بالعفة والفضيلة ، لا يشارك أترابه فى لهوهم ولا فى السجود لأصنامهم ، واشتهر بالصدق والأمانة حتى لَقَّبَه أهل مكة بالصادق الأمين ..

وهكذا كُتب له أن يرعى الغنم كما فعل الأنبياء من قبله .. ولا شك أن رعى الغنم وسياستها تدعو إلى الحرص والمراقبة والحنان ، إذ إن الأغنام من الحيوانات الأليفة جدًّا ، والضعيفة التى لا تستطيع حماية نفسها ، ولا تعتدى على غيرها ، بالإضافة إلى خروج الراعى بها إلى حيث الخلاء والمكان الواسع الذى يدعو إلى التفكر والتأمل فى الكون الفسيح وما فيه من آيات تدل على التدبير والتقدير من عليم خبير ..



كانت السيدة خديجة من أشراف قريش ، وذات مال وفير ، وكانت تستأجر الرجال للخروج بتجارتها إلى الشام ، وذهب إليها أبو طالب يعرض عليها أن تستأجر ابن أخيه لذلك ، فرحبت ترحيبًا شديدًا لما سمعته عنه من صدق وأمانة وحسن خلق ، بل وعرضت أن تعطيه ضعف ما تعطيه لغيره .. وكان عمره فى ذلك الوقت ثلاثة وعشرين عامًا .. وخرج معه فى القافلة (مَيْسَرَة) غلام السيدة خديجة الذى كان يراقب تصرفات الأمين وسلوكه طوال الرحلة ..

وشاء الله تبارك وتعالى أن يبارك فى هذه الرحلة فعادت القافلة وقد فاق الربح كلَّ ربح سابق ..

وسألت السيدة خديجة ميسرة عما حدث فى خلال الرحلة ، فحكى لها ما جعلها تتعلق تعلقًا شديدًا بهذا الشاب الأمين الذى لم تَرَ مكة مثله فى صدقه ، وأمانته ، وحسن خلقه ، وتواضعه ، وعفته ، وحلو معشره .. وقد شعر بذلك أبو طالب حين ذهب لمقابلتها والاطمئنان على رضائها عن الرحلة وما حققته من أرباح مما دفعه أن يعرض عليها الزواج من ابن أخيه ، فكانت موافقتها الفورية ، مما أثلج صدره وأسعد قلبه .. وتم الزواج بعد موافقة أعمامها وأعمامه ، واجتمع شمل الملقب بالأمين بالملقبة بالطاهرة .. وعلى رغم أنها تكبره بخمس عشْرة سنة ظلت هى الزوجة الوحيدة له طوال عمرها معه ..

نعم .. ظلت هى الزوجة الوحيدة حتى آخر عمرها و لم يشاركها فى زوجها امرأة أخرى لا بالزواج ولا بملك اليمين على رغم شيوع تعدد الزوجات بلا حدود ولا قيود ، وعلى رغم كثرة الجوارى وتفشى الزنا دون اعتبار ذلك نقيصة أو عيبًا ..

وأثمر هذا الزواج من الأبناء عن : القَاسِم ، وعَبْدِ اللهِ الملقب بالطَّيِّب والطَّاهِر ، وقد ماتا صغيرين قبل البعثة .. وأما من البنات فعن : زَيْنَب ، ورُقَيَّة ، وأُمِّ كُلْثُوم ، وفَاطِمَة ، وقد أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن ..

ولا شك أن موت الولدين وهما صغيران قد أَثَّرَ تأثيرًا بالغًا فى صفو الحياة الهانئة السعيدة للزوجين ، خاصة وأن الذكور من الأولاد فى ذلك الزمان كان لهم من الأهمية ما لم يكن للبنات اللاتى اعتاد العرب وَأْدَهُنَّ بمجرد الميلاد خشية الفقر أو العار .. وقد يفسر ذلك حرص النبى (ﷺ) على شراء زيد بن حارثة عندما رآه طفلاً صغيرًا يُباع بمكة وتعلقه به حتى إنه تبناه وسماه زيد بن محمد ، وذلك قبل أن يُحَرِّم الإسلام التبنى ..

واستمرت الحياة وأهل مكة ينظرون إلى النبى (ﷺ) نظرة إجلال وإكبار على رغم عزوفه عن مجالس لهوهم ، وابتعاده عن أصنامهم ، وميله إلى الجد من القول .. وقد كان (ﷺ) كثير الصمت ، قليل الكلام ، عظيم التواضع ، يُحْسِن الاستماع إلى من يُحَدِّثه ويلتفت إليه بكل جسمه ولا ينشغل عنه ، ويَبَشُّ فى وجه من يلقاه ..

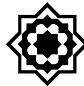
وجاءت حليمة السعدية فى تلك الفترة تشكو ما أصابها من فاقة فأكرمها وأحسن استقبالها ، وعادت من عنده بخير كثير ..

إعادة بناء الكعبة

أصاب مكة سيل عارم أثَّر فى جُدران الكعبة التى لم تكن مسقوفة وأوشكت على الانهيار ، وكانت قريش تفكر من قبل فى هدمها وإعادة بنائها إلا أن خوفهم من رب الكعبة كان يمنعهم من ذلك .. فلما حدث ما حدث اقتسمت قريش جوانب الكعبة الأربعة لكل قبيلة جانب تَهدمه وتُعيد بناءه ، على أن لا يُدْخِلوا فى بنائها من كسبهم إلا طيبًا ، فلا ينفقوا فيها مهر بَغِىّ ، ولا ربح رِبَا ، ولا مظلمة أحد من الناس .. وتَهَيَّب كل منهم أن يبدأ الهدم ، فتقدم الوليد بن المغيرة فضرب بفأسه عند الركن اليمانى ، وانتظروا إلى اليوم التالى ليروا ما يحدث للوليد ، فلما أصبح سليمًا لم يحدث له شىء تشجعوا ، وبدأوا الهدم حتى وصلوا إلى حجارة خُضْر ارْتَدَّ عنها الفأس فاتخذوها أساسًا للبناء فوقه .. ولما ارتفع البناء ووصل إلى مكان الحجر الأسود اختلفوا فيمَنْ يكون له الشرف فى وضعه فى مكانه ، وكادت الحرب أن تنشُب بينهم لولا أن أشار أحد كبرائهم عليهم بتحكيم أول من يدخل عليهم من باب الصفا .. وإذا بالنبى (ﷺ) هو الداخل عليهم – وكان فى الثلاثينات من العمر – فقالوا : هذا الأمين رضينا بحكمه .. ولا شك أن ذلك يدل على ثقتهم فى رجاحة عقله وصواب رأيه .. واستمع لهم بإنصات واهتمام ثم قال : هَلُمَّ إِلَيَّ بِثَوْب ، فجاءوه به ، فوضع الحجر فيه بيده ثم قال : ليأخذ كبير كل قبيلة

بطرف من الثوب ، فحملوه جميعًا إلى ما يحاذى موضع الحجر ، فأخذه بيده فوضعه فى مكانه ، وانحسم الخلاف وتم البناء ..

هذا .. وإن دلَّ خلافهم فى بناء الكعبة على شىء فإنما يدل علـــى أن السلطة فى مكة قد انـــهارت ، فلم يكن من بينهم رجل مثل قُصَىّ أو هاشم أو عبد المطلب يجمع كلمتهم وينصاعون لأمره .. ولا شك أن ضعف السلطة بمكة قد أعطى الفرصة للبعض أن يجاهر برأيه فيما عليه أهل مكة من ضـــلال ، كأمثال زيد بن عمرو بن نُفَيْل ، وعُبَيْد الله بن جحش ، وورقة بن نوفـــل ، وغيرهم ممن كانوا لا يأكلون من ذبائح أهل مكة التى كـــانوا يقدمونـــــها لأصنامهم وأوثانـــهم ، ولا يسجدون للأصنام ، ويسفهون ما عليه قـــومهم من أحلام .. كما شجع ذلك اليهودَ بالذات على أن يعيِّروا العرب بأنـــهم ليسوا على دين وأن زمان النبى المنتظر قد أظلهم ، وأنه حين يبعث سيُقَتِّلون أهلَ مكة من عبدة الأصنام قتل عاد وثمود .. وبدأت تشيع فى مكة أخبار النبى المنتظر الذى جاء ذكره فى كتب اليهود والنصارى ..



بدء الوحى

اهتم النبى (ﷺ) بتزويج بناته ، فزَوَّج زَيْنَب من أبى العاص بن الربيع ابن أخت السيدة خديجة .. وزَوَّج رُقَيَّة وأم كُلْثُوم من عُتبة وعُتيبة ابنى عمه أبى لهب الذى أمر ابنيه بطلاقهما بعد بعثة النبى (ﷺ) فتزوجهما عثمان بن عفان (رضي الله عنه) الواحدة بعد الأخرى كما سيأتى .. أما فاطمة فكانت لا تزال صغيرة ، ثم تزوجت من على بن أبى طالب (رضي الله عنه) بعد الهجرة ..

واستقرت حياة النبى (ﷺ) فى كنف زوجته التى كانت ترعاه وتحنو عليه وتُسْبِغ عليه من الوُدِّ والأُلْفَة والمحبة ما هَوَّن عليه فقد ولديه القاسم وعبد الله .. وحُبِّبَ إليه الخلاء ، واختار لذلك غار حِرَاء فى أعلى جبل حِرَاء خارج مكة ، فكان يذهب إليه كل فترة ويقيم فيه أيامًا تزوده فيها السيدة خديجة بما يكفيه من طعام وشراب .. وهناك بعيدًا عن ضجيج مكة وما يحدث فيها يفكر فى ما عليه قومه من ضلال ملتمِسًا الحق متأمِلاً فيما حوله من جبال ووديان وسماء وكواكب ونجوم ابتغاء الحقيقة والهداية ..

وبعد فترة من الزمان صار يرى فى نومه الرؤيا الصادقة فتأتى كَفَلَقِ الصُّبْح ، واستمر الحال على ذلك ستة أشهر ، وقد شارف النبى (ﷺ) الأربعين من العُمُر .. وفى ليلة من ليالى رمضان وهو يَتَحَنَّث [1] فى الغار فُوجِئ

[1] يتحنث : يتعبد .

بالروح الأمين يأتيه فى صورة رجل ويقول له : (ٱقۡرَأۡ) .. فقال النبى (ﷺ) : ما أنا بقارئ .. فاحتضنه الْمَلَك وضَمَّه بشدة ثم قال له : (ٱقۡرَأۡ) .. فقال النبى (ﷺ) : ما أنا بقارئ .. فضمه الْمَلَك ضمة شديدة وقال : (ٱقۡرَأۡ) .. فقال النبى (ﷺ) وقد أخذه الْجَهْدُ من هذا الضَّم الشديد الذى كـاد يُحَطِّمُ ضُلُوعَه : ماذا أقرأ ؟ .. قال الْمَلَك : (ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥) [1] .. ووقعت الكلمات على قلبه (ﷺ) وثبتت فيه فأضاءته وأضاءت له الدنيا بأسرها .. وانصرف الْمَلَك وتركه يتأمل فى معنى هذه الكلمـات : مَنْ هذا الذى خلق الإنسان وعلمه ما لم يعلم ؟ ومـا معنى كل ذلك ؟ وما المراد منه ؟ ولِمَ هو بالذات ؟ .. وبدأ القلق يجتاح نفسه وتحول إلى فزع شديد ، وخرج من الغار مسرعًا خائفًا وَجِلاً ، وإذا بصوت يناديه من السماء : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، فرفع بصره إلى السماء فوجد الْمَلَك الذى جاءه فى الغار على صورة رجل ، وأينما وجَّه بصره رآه فى أفق السماء مما زاد من خوفه ، ودخل على السيدة خديجة وهو يرتعد ويقول : زَمِّلُونِى .. زَمِّلُونِى .. فزملته بغطاء ، وضمته إليها بحنان وإشفاق ، وجلست إلى جواره تراقبه بكل حب وعطف وأمل ، فإذا به يهتز

---

[1] سورة العلق .

ويتفصد منه العرق غزيرًا ثم يقوم وهو يتلو ما أوحى به جبريل إليه : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧) [1] .. فازدادت إشفاقًا عليه ، إلى أن قَالَ لها ما حدث وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ : (لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي) ، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ : كَلاَّ ، وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا ، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ .. فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِالْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ – وَكَانَ امْرَأً قَدْ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ – فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ : يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ : يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى ؟ ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ : هَذَا النَّامُوسُ [2] الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى ، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا ، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ ؟ ".. قَالَ : نَعَمْ ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِيَ ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا .. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ [3] ..

اطمأن النبى (ﷺ) إلى صدق ورقة ، وأرادت السيدة خديجة أن تزيده اطمئنانًا فطلبت منه أن يخبرها إذا جاءه الْمَلَك ، فلما رآه أخبرها فأجلسته

---

[1] سورة المدثر .
[2] صاحب السر ، والمراد جبريل عليه السلام .
[3] رواه البخارى كتاب بدء الوحى.

على فخذها اليسرى ثم على فخذها اليمنى ثم فى حجرها وهو ما يزال يراه ، فألقت خمارها وكشفت رأسها فإذا هو لا يراه .. فلم يبق شك فى أن ما يراه مَلَك وليس شيطانًا .. آمنت السيدة خديجة وصَدَّقت ، وكانت بذلك أول من آمن بالله ورسوله (ﷺ) على الإطلاق ..

بدأ النبى (ﷺ) يفكر كيف يدعو قومه إلى الإيمان بالله وحده وبصدق رسالته ، وانتظر توجيه الوحى له .. فإذا بالوحى يفتر وتنقطع عنه رؤية الْمَلَك مما زاد من خوفه وقلقه .. ثم جاءه جبريل عليه السلام بعد فترة من الزمن وأوحى إليه بسورة الضحى .. ويالها من سورة تنطق بحنان الله وبرعايته لرسوله ووعده له بكل خير فى الدنيا والآخرة ..

ونزل جبريل عليه السلام فعلَّم النبى (ﷺ) الوضوء والصلاة ، وكانت الصلاة ركعتين فقط ولم تكن قد فرضت بَعْدُ بِعَدد ركعاتها وأوقاتها .. وبدأ صلى الله عليه وسلم يصلى ومعه زوجته ، وكان يقيم معهما بالبيت عَلِىّ بن أبى طالب ، الذى كان صبيًّا لم يبلغ الحلم بعد .. ودخل عليهما يومًا فوجدهما يصليان فتعجب من فعلهما وانتظر حتى فرغا من صلاتهما فسألهما عما يفعلان ، فأخبره النبى (ﷺ) بالخبر وعرض عليه الإسلام ، وبات عَلِىّ ينتظر الصباح حتى يشاور أباه فى ذلك ، وحين أصبح سارع بالإسلام قائلا : إن الله لم يشاور أبا طالب حين خلقنى ، فما حاجتى لأن أشاوره فى عبادتى لله .. وأصبح بذلك أول من أسلم من الصبيان .. ثم أسلم زيد بن حارثة وأصبح أول

من أسلم من الموالى ..

وبقى الإسلام محصورًا فى بيت النبوة إلى أن أخبر النبى (ﷺ) أبا بكر الصديق الذى كان مشهورًا بالنـــزاهة والأمانة والصدق ورجاحة العقل ، وكان ذا مكانة عند أهل مكة ، وكان صديقًا حميمًا للنبى (ﷺ) يشاركه البعد عن عبادة الأصنام والعزوف عن مجالس الخمر واللهو التى كانت منتشرة بمكة .. وبمجرد عرض الإسلام على أبى بكر أسلم فورًا دون أدنى تردد ، وأصبح بذلك أول من أسلم من الرجال .. وأراد أن يشاركه فى هذا الخير العظيم مَنْ يثق فيهم من أصحابه ، فأسلم على يديه : عُثْمَان بن عَفَّان ، وعبد الرحمن بن عَوْف ، وطَلْحَة ابن عُبَيْد الله ، وسَعْد بن أبى وَقَّاص ، والزُّبَيْر بن العَوَّام ، ثم أسلم بعد ذلك أبو عُبَيْدة بن الْجَرَّاح ، وسَعِيد بن زَيْد ، وغيرهم من المسلمين الأوائل ..

وكان مَنْ أسلم يذهب إلى النبى (ﷺ) يعلن إليه إسلامه ويتلقى تعاليمه ، وكان هؤلاء المسلمون الأولون يستخفون ولا يعلنون إسلامهم خشية ما يمكن أن يحدث لهم على أيدى كفار مكة ، فكانوا يذهبون إلى شِعَاب الجبال للصلاة ويلتقون سرًّا ، وظل الأمر كذلك لمدة ثلاث سنين حتى نزل الأمر الإلهى بالجهر بالدعوة والبدء بدعوة الأهل والعشيرة بقوله عز وجل (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ) [1] ..

---

[1] سورة الشعراء آية ٢١٤ .

النبى (ﷺ) وعشيرته

حين نزل الأمر بإبلاغ الدعوة إلى عشيرته الأقربين دعا النبى (ﷺ) أعمامه إلى طعام فى بيته ، وبعدما طعموا حدثهم عن الإسلام والإيمان بالله الواحد الأحد ، فلم يستجيبوا له وأخذوا الأمر على سبيل المزاح ، فدعاهم مرة أخرى وحدثهم عن الإسلام ، وأنه هو النبى المنتظر ، فلم يستجب له أحد ، وهاج عمه أبو لهب هياجًا شديدًا ، بل وأمر وَلَدَيه عُتْبة وعُتَيْبة بطلاق ابنتى رسول الله (ﷺ) رُقَيَّة وأم كُلْثُوم ، ففعلا .. ولم يجد النبى (ﷺ) بُدًّا من أن يجهر بالدعوة على رؤوس الناس تنفيذا لأمر الله عز وجل (فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ)[1] ، فذهب إلى الصفا وصعد عليه ثم نادى : يا معشر قُرَيْشٍ .. فاجْتَمَعُوا إليه ، فقال : أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ ؟ قَالُوا : نَعَمْ مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلاَّ صِدْقًا ، قَالَ : فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ، فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ : أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا ؟! تَبًّا لَكَ[2] .. كانت تلك المقالة صدمة ومفاجأة إذ صدرت من العم الذى يُنتظر منه أن يُصَدِّق ابن أخيه وينصره ، فهو من أقرب الناس إليه يعرف أصله ونسبه وصدقه ، لذلك نزل جبريل (عليه السلام) بقول الله عز وجل (تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ

---

[1] سورة الحجر آية ٩٤ .

[2] رواه البخارى ، وفى رواية أخرى (أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخبَرْتُكُمْ أَنَّ الْعَدُوَّ يُصَبِّحُكُمْ أَوْ يُمَسِّيكُمْ أَمَا كُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي) .

وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصۡلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣)[١] ، وانتهى المشهد على ذلك .. لكن الدعوة وصلت إلى الناس ، وبدأ البعض يفكر ويعمل عقله ويقارن بين ما هو عليه من ضلال بعبادة أحجار لا تنفع ولا تضر وبين الدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد الذى بيده الأمر كله ، والذى كانوا يُقِرُّون بوجوده وبأنه الخالق لكل الموجودات .. كما أن هذه الرسالة تدعوهم إلى مكارم الأخلاق : كصلة الأرحام ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وبر الوالدين ، والوفاء بالعهود ، ومراعاة حق الجار ، وتنهاهم عن الكذب ، وعن الزنا ، وعن السرقة ، وعن عقوق الأمهات ، وعن وأد البنات ..

لذلك كانت مسارعة ذوى العقول الراجحة والفطرة السليمة إلى الدخول فى الإسلام مما أثار غضب زعماء قريش وخوفهم على سلطانهم وتجارتهم ، خاصة أن ما جاء به الإسلام من المساواة فى الحقوق والواجبات ، ومن أن للعبيد ما للأسياد ، وأن الناس كلهم لآدم ، وآدم من تراب دعا الكثير من العبيد والإماء للدخول فى الإسلام ، والمجاهرة بذلك .. وبدأت حركة التمرد والعصيان تسود بين الأبناء الذين أسلموا دون موافقة آبائهم الذين ظلوا على كفرهم ، وكذلك بين العبيد والإماء الذين أحسوا بالحرية لأول مرة وبأن الجميع عباد لإله واحد ..

---

[١] سورة المسد .

الملأ من قريش

اجتمع سادة قريش يتشاورون فى أمر هذا الخطر الداهم الذى يتهددهم فى صميم عقيدتهم ، ويهدد مصالحهم وسلطانهم كى يواجهوه قبل أن يستفحل أمره ، فقرروا أن يحاربوا النبى (ﷺ) بالحط من شأنه وتكذيبه فيما يزعم من نبوته فأغروا به شعراءهم كى يتولوا هجاءه وسبَّه وتسفيه ما يقول ، فتولت طائفة من الشعراء الذين أسلموا الرد عليهم .. وبدأ صناديد قريش يشيعون عنه أنه كاهن سريعًا ما ينتهى أمره كما انتهى أمر من سبقه من الكهان ، وقال بعضهم : إنه ساحر ، وقال آخرون : بل إنه قد مسَّه مسٌّ من الجن ولن يلبث من آمن به أن يعود إلى دين آبائه .. ثم بدأوا يطالبونه بمعجزات كمعجزات موسى وعيسى عليهما السلام : فعليه أن يحيل الصفا والمروة ذهبًا ، أو يَفْجُر لهم من الأرض ينبوعًا ، أو ينزل عليه الكتاب مخطوطًا ليروه ، وزاد تَهَكُّم بعضهم به فطالبوه بأن يخبرهم بأثمان السلع فى المستقبل كى يضاربوا عليها !! كل ذلك فى الوقت الذى يعبدون فيه حجارة وخشبًا لا تنفع ولا تضر ويزعمون أنها تقربهم إلى الله زلفى ، فكان من الطبيعى أن ينزل من الآيات ما يُسَفِّه أفعالهم ، ويلزمهم الحجة ، ويطالبهم بالبرهان على ما يدَّعون من ألوهية تلك الأصنام التى لا تتكلم ولا تبصر ولا تسمع .. واعتبر المشركون ذلك سبًّا لآلهتهم وتحقيرًا لشأنها ، وسخرية مما يعبدون ويعبد آباؤهم من قبل ، فأخذوا يفكرون بجدية فى أمر هذا

الرجل الذى بدأ يؤمن به مَنْ عرفت نفوسهم النـــزاهة والعفة والعفاف من تجار مكة وأشرافها ، وكذلك الضعفاء والمحرومون رجالاً ونساءً صغارًا وكبارًا .. وراحوا يتساءلون : ماذا يكون عليه الحال لو أَلَّبَ عليهم أهل مكة ، وصرفهم عن عبادة آلهتهم ؟ ألا تنهار مكانة مكة الدينية ، وتبور تجارتـــهم ، وينصرف الناس عن تقديـــم القرابين لأصنامهم ، وينصرفون عن مجالس لهوهم ؟ .. لذلك قرروا أن يشكلوا وفدًا من زعمائـــهم يذهب إلى عمه أبى طالب – الذى لم يكن قد أسلم – يشكون له ابن أخيه ، ويطالبونه بأن يمنعه عن سب آلهتهم ، والتوقف عن دعوته وما يَدَّعِيه .. فذهبوا إليه وقالوا : يا أبا طالب .. إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفَّه أحلامنا ، وضلَّل آباءنا ، فإما أن تَكُفَّه عنَّا وإما أن تُخَلِّى بيننا وبينه .. فاستمع لهم أبو طالب بحلم وردهم ردًّا جميلاً ..

واستمر النبى (ﷺ) فى دعوته لا يَكِلُّ ولا يَمَلُّ ، ويضرب المثل لأتباعه فى البر والرحمة والتواضع ، ويعامل الضعيف والمسكين بحنان وعطف ومودة ، ويتهجد بالليل مُرَتِّلاً ما نزل عليه من قرآن ، ويتوجه إلى الله وحده بالدعاء والثناء مما جعل أتباعه يزدادون إيمانًا ويقينًا وتمسكًا بدينهم وحرصًا عليه .. وذهب زعماء مكة إلى أبى طالب مرة أخرى وقالوا له : يا أبا طالب .. إن لك سنًّا وشرفًا ومنـــزلة فينا ، وقد استنهيناك عن ابن أخيك فلم تنهه عنا ، فإما أن تَكُفَّه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين .. وعظم الأمر على أبى طالب فهو لا يرضى عما يفعله ابن أخيه ولا يريد خذلانه كذلك ، فماذا يفعل ؟ ..

استدعى أبو طالب النبيَّ (ﷺ) وأخبره بما قاله زعماء مكة ، ثم قال له : فأبق عليَّ وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق .. فأجابه النبى (ﷺ) قائلا : (يا عم .. والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته)[1] .. فلما رأى أبو طالب استمساك ابن أخيه بدينه وحرصه عليه أكثر من حرصه على الحياة ، وزهده فى الدنيا بأسرها قال له : اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء مما تكره أبدًا .. وجمع أبو طالب بنى هاشم وبنى المطلب وأخبرهم بمقالة زعماء مكة ومقالة ابن أخيه ، وطلب منهم حماية ابن أخيه ، فاستجابوا له جميعًا إلا أبا لهب الذى انضم إلى الخصوم وشاركهم فى العداوة للنبى (ﷺ) ..

واعتصم النبى (ﷺ) بقومه من أذى قريش ، وبحنان السيدة خديجة وعظيم حبها له وإيمانـــها به من أى همٍّ يَتَطَرَّق إلى نفسه من تكذيب قومه له .. ولما رأى زعماء مكة إصرار أبى طالب وبنى هاشم على حماية النبى (ﷺ) أخذوا فتى من فتيانـــهم شابًّا قويًّا جميلاً (عمارة بن الوليد) وذهبوا به إلى أبى طالب قائلين : إليك هذا الفتى فاتخذه ولدًا لك وأسلم لنا ابن أخيك ، فإنما هو رجل برجل .. فقال لهم : والله لبئس ما تسوموننى ، أتعطونى ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابنى تقتلونه ؟! هذا والله لا يكون أبدًا .. فانصرفوا عنه غاضبين وهم يدبرون فى نفوسهم أمرًا ..

---

[1] سيرة ابن هشام .

صبر المسلمين على الأذى

لم ينعم بالنوم زعماء قريش ، ولم يعودوا إلى ما كانوا عليه من هدوء واستمتاع بمكانتهم ومكانة أصنامهم فى نفوس العرب جميعًا ، فقد ظهر نور الحق وبدأ يزلزل عقائد الناس ، وبدأ الإسلام يفشو فى مكة وما حولها .. فقرر زعماء الكفر أن يواجهوا الأمر بالقسوة والإرهاب ، فوثبت كل قبيلة على مَنْ فيها من المسلمين يعذبونـــهم بأشد ألوان العذاب .. فألقى أحدهم عبده الحبشى (بلال بن رباح) على الرمل تحت الشمس المحرقة ، ووضع على صدره حجرًا عظيمًا ، وتركه بلا طعام ولا شراب ليموت ، فما كان من بلال إلا أن أصر على التمسك بدينه وأخذ يكرر كلمة واحدة : (أَحَدٌ .. أَحَد) ، فرآه أبو بكر فاشتراه وأعتقه ، واشترى كذلك كثيرًا من العبيد والإماء لإنقاذهم من العذاب وأعتقهم فى سبيل الله .. وعُذِّبت سُمَيَّة أم عَمَّار بن ياسر حتى ماتت من التعذيب ولم ترجع عن دينها ، وكذلك عُذِّب عمار بن ياسر وأبوه .. أما خَبَّاب بن الأَرَتِّ فكانت أم أنمار تكويه بالنار ولا يفتنه ذلك عن دينه .. وهناك ألوان وأصناف من العذاب يضيق المقام عن حصرها نالت المستضعفين من المسلمين رجالاً ونساء ، وما زادهم ذلك إلا إيمانًا وإصرارًا وتمسكًا بدينهم ، فقد هان عليهم الموت فى سبيل الحق ..

ولم يسلم النبى (ﷺ) من الأذى على رغم حماية عمه وبنى هاشم له .. فقد

كانت امرأة أبى لهب (أم جميل) تلقى النجاسات أمام بيته .. وكان عُقْبَة بْن أَبِى مُعَيْط يلقى على ظهره وهو ساجد أحشاء ما يُذْبَح من البهائم للأصنام فيظل صلى الله عليه وسلم ساجدًا حتى تأتى ابنته فاطمة لتزيل عنه ذلك .. واجتمعوا عليه يومًا وهو يطوف بالكعبة ، وأخذ أحدهم بمجامع ثيابه حتى كاد يختنق لولا أن جاء أبو بكر فقال لهم : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟ وخَلَّصَه منهم ..

كل ذلك لم يوهن عزمه ، ولم يمنعه عن الدعوة إلى الله ، مما كان له الأثر الكبير فى اقتداء أصحابه به ، فتمسكوا بدينهم واحتملوا التعذيب والإهانة ، وهانت عليهم جميعا التضحيات ، فلم يكونوا طُلاَّب مال ولا جاه ولا سلطان ، وإنما كانوا طُلاَّب حق ..

ولما رأت قريش أن التعذيب لا يصرف المسلمين عن إيمانهم والجهر به فَكَّرُوا فى التفاوض مع النبى (ﷺ) فأرسلوا إليه عتبة بن ربيعة فقال له : يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت من المكان فى النسب ، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فَرَّقْت به جماعتهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا .. وعرض عليه أن يجمعوا له من المال حتى يكون أكثرهم مالاً إن كان يريد ذلك ، وإن كان يريد مُلكا مَلَّكوه عليهم ، وإن كان يريد تشريفًا سودوه عليهم ، أما إن كان ما يأتيه هو من الجن طلبوا له العلاج حتى يُشْفى .. فما كان من النبى (ﷺ) إلا أن قال له : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم ، قال : فاسمع منى ، قال :

أفعل .. فقرأ عليه النبى (ﷺ) من أول سورة فُصِّلَت حتى آية السجدة ، فسجد (ﷺ)ثم قال : قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعتَ ، فأنت وذاك .. فانصرف عتبة راجعًا إلى قومه ، فلما رأوه قال بعضهم لبعض : لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، ولما جلس قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : لقد سمعتُ قولاً ما سمعتُ مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعونى وخَلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كُفِيتُمُوه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فمُلْكُه مُلْكُكُم ، وعِزُّه عِزُّكُم ، وكنتم أسعد الناس به .. فقالوا : سَحَرَك والله يا أبا الوليد بلسانه .. قال : هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم ..

وقد بدا لزعماء قريش أن يفاوضوا رسول الله (ﷺ) بأنفسهم ، فذهب إليه أبو سفيان بن حرب ، وأمية بن خلف ، وأبو جهل ، ورجال آخرون فعرضوا عليه ما سبق أن عرضه عليه عتبة بن ربيعة من مالٍ أو سُؤْدُدٍ أو شرفٍ فرفض كل ذلك وأخبرهم أنه إنما بعث بشيرًا ونذيرًا .. فقالوا : إن كنت غير قابل منا شيئًا مما عرضناه عليك فسل لنا ربك أن يُسَيِّر عنا هذه الجبال ، وليَبْسُط لنا بلادنا ، ولَيَفْجُر لنا فيها أنــهارًا ، وليبعث لنا مَنْ مضى من آبائنا وليكن فيمن يبعث لنا منهم قُصَىّ بن كلاب فإنه كان شيخ صدق ، فنسألهم عما تقول ، فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك وعلمنا أن الله بعثك

رسولا ، وإن لم تفعل هذا لنا فسل ربك أن يبعث معك مَلَكًا يصدقك بما تقول ، وسله فليجعل لك قصورًا وجنانًا وكنوزًا من ذهب وفضة يغنيك بـها عما نراك تبتغى ، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، وذلك حتى نعرف فضلك .. فأخبرهم أنه إنما بعث بشيرًا ونذيرًا .. فقالوا : فأسقط السماء علينا كِسَفًا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ، وطالبه بعضهم أن يأتى بالله والملائكة قبيلا .. فقام عنهم رسول الله (ﷺ) وهو آسف عليهم وحزين ..

وفى خضم هذا الجو المشحون بالعداوة والبغضاء والإيذاء ، والجدال العقيم والسفيه ، كان المسلمون يزدادون كل يوم ، مما زاد من جهالات قريش وتطاولهم على رسول الله (ﷺ) ، فسبه أبو جهل يومًا سبابًا شديدًا ، فلم يرد عليه وتركه وانصرف ، فأخبر بعضهم حمزة بن عبد المطلب - ولم يكن قد أسلم بعد - بما حدث ، وكان عائدًا من الصيد الذى يمارسه ويهواه ، فغضب غضبًا شديدًا وذهب إلى الكعبة حيث يجلس القوم ، ووجد أبا جهل يجلس بينهم فتوجه إليه ورفع قوسه وضربه بـها فى رأسه فَشَجَّهُ شَجَّةً كبيرة وقال له : أَتَشْتُم ابن أخى وأنا على دينه أقولُ ما يقول ، فَرُدَّ ذلك علىَّ إن استطعت ، فأُسْقِط فى يد القوم .. فمن ذا الذى يقف أمام حمزة ؟! ..

وأسلم حمزة بن عبد المطلب ، وعرفت قريش أن رسول الله (ﷺ) قد عزَّ وامتنع ، وأن حمزة سيحميه ، فكَفُّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه ..

الهجرة إلى الحبشة

ولما رأى النبى (ﷺ) أن قريشًا زادت من تعذيبها للمسلمين ومحاولة فتنتهم عن دينهم بكل وسائل القسوة والوحشية نصحهم بالهجرة إلى الحبشة ، حيث بـــها مَلِكٌ لا يُظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لهم فرجًا مما هم فيه .. فخرج فريق منهم سرًّا وكانوا أحد عشر رجلا وأربع نساء ، فأقاموا فى خير جوار عند النجاشى ملك الحبشة الذى كان على دين النصرانية ، حتى ترامى إلى سمعهم أن المسلمين بمكة أصبحوا بمأمن من أذى قريش فعادوا ، ولما تبين لهم أن الأمر ليس كما سمعوا عادوا مرة أخرى إلى الحبشة وكانوا فى هذه المرة ثمانين رجلا مع بعضهم نساؤهم وأطفالهم ، وأقاموا بـــها إلى أن هاجر النبى (ﷺ) إلى المدينة فلحقوا به هناك ..

وثار زعماء مكة حين علموا بِهجرة هؤلاء إلى الحبشة حيث خرجوا عن سلطتهم وسيطرتـــهم فأرسلوا عمرو بن العاص ، وعبد الله بن أبى ربيعة إلى النجاشى وحَمَّلُوهما بالهدايا النفيسة ، فلما استقبلهما وقبل منهما الهدايا قالا له : أيها الملك .. إنه قد لجأ إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم فهم أعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .. فأبى النجاشى أن يفعل حتى يسمع من المسلمين ما

يقولون ، فبعث فى طلبهم ، فلما جاءوا سألهم قائلا : ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ، و لم تدخلوا به فى دينى ولا دين أحد من هذه الملل ؟ .. فرد عليه جعفر بن أبى طالب قائلا : أيها الملك .. كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونُسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونــهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام – وعدد عليه أمور الإسلام – فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئا ، وحرَّمنا ما حرَّم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا ألا نُظلم عندك ..

فقال النجاشى : هل معك مما جاء به من الله شىء تقرؤه علىَّ ؟ .. قال جعفر : نعم ، وتلا عليه سورة مريم من أولها إلى الآية الثانية والثلاثين [قصة سيدنا زكريا وسيدتنا مريم وحملها بسيدنا عيسى وكلامه فى المهد] ..

فبكى النجاشى حتى اخْضَلَّت [1] لحيته ، وبكى أساقفته حين سمعوا ما تلا جعفر عليهم ، وقالوا : هذه كلمات تصدر من النبع الذى صدرت منه كلمات سيدنا يسوع المسيح ، وقال النجاشى : إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة .. والتفت إلى رسولى قريش وقال : انطلقا ، والله لا أسلمهم إليكما .. فلما كان الغد عاد عمرو بن العاص إلى النجاشى وقال له : إن المسلمين ليقولون فى عيسى ابن مريم قولاً عظيمًا ، فأَرْسِلْ إليهم فسلهم عما يقولون .. فلما دخلوا عليه وسألهم قال جعفر بن أبى طالب : نقول فيه الذى جاء به نبينا ، يقول هو عبد الله ، ورسوله ، وروحه ، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .. فلما سمع النجاشى ذلك ضرب الأرض بيده فأخذ منها عودًا وخط به خطًّا ، وقال : ليس بين دينكم وديننا أكثر من هذا الخط ، ثم التفت إلى المسلمين وقال : اذهبوا فأنتم آمنون بأرضى ، من سَبَّكم غَرِم ، ما أحب أن لى جبلا من ذهب وأنى آذيت رجلا منكم ، ثم قال لمن حوله : ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لى بها ، فوالله ما أخذ الله منى الرِّشْوَة حين ردَّ علىَّ ملكى فآخذ الرِّشْوَة فيه .. فخرج رسولا قريش من عنده ذَلِيلَيْن مَهْزُومَيْن ، وعادا إلى قومهما بالهدايا التى رفضها النجاشى ..

هذا .. وقد أسلم النجاشى ، وحين مات كان رسول الله (ﷺ) بالمدينة المنورة فعلم من سيدنا جبريل بموته فأخبر المسلمين بذلك ، وصلى عليه هو والمسلمون صلاة الجنازة على الغائب ، واستغفر له ..

---

[1] اخضلت : تبللت .

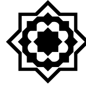
كان عمر بن الخطاب (ﷺ) يومئذ رجلاً قويًا فتيًا بين الثلاثين والخامسة والثلاثين من العمر ، شديد البأس ، حاد الطبع ، سريع الغضب ، بعيدًا عن الإسلام والمسلمين ، وكان فى الوقت نفسه بارًّا بأهله عطوفًا عليهم ، وقد ساءه هجرة بعض المسلمين إلى الحبشة وحماية النجاشى لهم ، وشعر لفراقهم بوَحْشَة ، وتألَّم لتركهم وطنهم وفراقهم لأهليهم .. وكان النبى (ﷺ) يومًا مجتمعًا مع أصحابه فى بيت من البيوت ، وعلم عمر بذلك فخرج متوشحًا سيفه يملؤه الغضب وحمية الجاهلية ، فلقيه رجل من قبيلته يُدعى نُعَيْم بن النَّحام – وكان قد أسلم وأخفى إسلامه عن قومه – فقال له : أين تريد يا عمر ؟ فقال : أريد محمدًا الذى فرَّق أمر قريش ، وسفَّه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها فأقتله .. فقال له نُعَيْم : والله لقد غَرَّتك نفسك من نفسك يا عمـــر ، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدًا ؟! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟!! .. قال عمر : وأىُّ أهل بيتى ؟! قال : أختك فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد بن عمرو ابن عمك [١] ، فقد والله أسلما وتابعا محمدًا على دينه ، فعليك بـــهما .. فرجع عمر قاصدًا بيت أخته التى كانت تجلس مع زوجها ، وعندهما خَبَّاب بن الأَرَتِّ يقرئُهما سورة طه من

[١] سعيد بن زيد هو أحد العشرة المبشرين بالجنة .

صحيفة معه ، فلما اقترب عمر من البيت وشعروا به اختبأ خباب ، وأخفت فاطمة الصحيفة ، ودخل عمر وهو يقول : ما هذه الهينمة [1] التى سمعتها ؟ قالا له : ما سمعت شيئًا ، قال : بل والله لقد علمت أنكما تابعتما محمدًا على دينه ، وبطش بابن عمه سعيد ، فقامت إليه فاطمة لتمنعه من زوجها ، فضربـــها ضربة أسالت الدم من وجهها ، فثار الزوجان وقالا : نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك .. فلما رأى عمر ما بأخته من دم اضطرب وندم على ما صنع ، وقال لأخته بلطف : أعطينى الصحيفة التى سمعتكم تقرؤُون آنفا أنظُرْ ما هذا الذى جاء به محمد .. قالت : إنا نخشاك عليها .. فحلف لَيَرُدَّنَّها إليها .. فقالت : إنك امرؤ على شركك ، وإنه لا يَمَسُّها إلا الطاهر .. فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة ، فقرأ فيها من أول سورة (طه) ، ثم قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه .. فلما سمع ذلك خَبَّاب بن الأَرَتِّ خرج إليه فقال : يا عمر ، والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصَّك بدعوة نبِيِّه ، فقد سمعته أمس وهو يقول : (اللَّهُمَّ أَيِّدِ الإسْلاَم بأبى الحكم بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب) فاللهَ اللهَ يا عمر .. فقال عمر : دُلَّنِى يا خباب على محمد حتى آتيه فأُسْلِم ، فَدَلَّه خَبَّاب .. فانطلق عمر وقد لانت نفسه ، واطمأن قلبه ، وأخذه إعجازُ الآيات التى قرأها وسُمُوُّها وجلالُ معانيها وما تدعو إليه .. وطرق الباب على النبى (ﷺ) ، فلما سمعوا صوته قام رجل فنظر من خَلَل الباب ورجع فَزِعًا يقول :

[1] الهينمة : كلام غير مفهوم .

يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشِحًا سيفه .. فقال حمزة بن عبد المطلب : إن كان جاءِ يريد خيرًا بذلناه له ، وإن كان يريد شرًّا قتلناه بسيفه .. فأذن له رسول الله (ﷺ) ، فدخل وأعلن إسلامه ، فكبر رسول الله (ﷺ) ومَنْ معه .. وخرج عمر ليعلن إسلامه على الملأ ، ولم يرض عن استخفاء المسلمين وذهابـــهم إلى شِعاب مكة يقيمون الصلاة فيها بعيدًا عن أذى قريش ، بل دأب على نضال قريش حتى صلى عند الكعبة وصلى المسلمون معه ..



صحيفة المقاطعة

أغضب إسلامُ عمر بن الخطاب وإعلانه له زعماءَ قريش ، وعلموا أن ما ينالون به محمدًا وأصحابه من أذى لن يحول دون إقبال الناس على الدخول فى الإسلام والاحتماء بعمر بن الخطاب ، وبحمزة بن عبد المطلب ، أو بالنجاشى ملك الحبشة ، أو بِمَنْ يستطيعون الاحتماء به .. فاجتمعوا يتدارسون الموقف ويتشاورون فيما يصنعون ، وتوصَّلوا إلى أن سياسة التعذيب والأذى لم تُثْمر بل زادت المسلمين تمسكًا بدينهم واعتصامًا به ، فقرروا اتباع سياسة المقاطعة والتجويع ، وتعاقدوا وتعاهدوا على مقاطعة بنى المطلب : فلا يتزوجون منهم ، ولا يزوجونهم ، ولا يبيعونهم شيئًا ، ولا يبتاعون منهم ، وكتبوا ذلك فى صحيفة وعلقوها فى جوف الكعبة توكيدًا لها ، وإلزامًا لهم .. فلما فعلوا ذلك انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبى طالب بن عبد المطلب ، فدخلوا معه فى شِعْبِه [1] ، إلا أبا لهب الذى ظل على عداوته للنبى (ﷺ) ..

هذا .. وقد أحكمت قريش المقاطعة وهى ترجو أن يعتزل قومُ محمدٍ محمدًا فيصبح وحيدًا ، ولا يبقى لدعوته خطر يُذكر .. ولم تكتف قريش بالمقاطعة بل استمر زعماؤها فى إيذاء المسلمين بكل وسائل الإيذاء .. ولم يزد هذا الإعنات المسلمين إلا تمسكًا بدينهم ، ولم يزد أهل النبى (ﷺ) إلا التفافًا

---

[1] مكان فى الجبل .

حوله وذودًا عنه ، حتى مَن لم يؤمن منهم كأبى طالب وغيره ، فقد كان الأمر تحديًا للبقاء .. و لم يمنع ذلك من انتشار الإسلام خارج مكة ، وذاع أمره بين قبائل العرب المختلفة مما أثار غضب زعماء قريش وقلقهم على تجارتـــهم مع القبائل فى شبه الجزيرة العربية كلها ..

واستمرت فترة المقاطعة والحصار حوالى ثلاث سنين ، كان البعض من أهل مكة – كهشام بن عمرو – يتسللون بالطعام والشراب خلالها إلى المسلمين بِشِعْبِ أبى طالب ، وكان وجود المسلمين فى الشِّعْبِ مع غير المسلمين من بنى هاشم وبنى المطلب له أثر كبير عليهم ، فهم يرون المسلمين يتوضؤون ، ويصلون ، ويناجون ربـــهم بالليل ، ويتحابون ، ويتعاطفون .. كل ذلك بالإضافة إلى ما يدعو إليه الإسلام من إِعْمَالٍ للعقل وإيقاظٍ للضمائر ، وما تَصْدَعُ به الآيات من حُجَجٍ وبراهين على وحدانية الله عز وجل جعل منـــزلة الأصنام تــهتز فى نفوسهم ويكتشفون ما هم عليه من ضلال فتنفتح قلوبـــهم وعقولهم للإسلام ..

هذا .. ولقد كانت تلك المقاطعة دافعًا لتساؤل كثير من الناس الذين يجيئون كل عام إلى مكة للحج ، وللتجارة ، ويجتمعون فى أسواق عُكاظ ، ومجنة ، وذى المجاز عن هؤلاء الذين يكادون يموتون جوعًا : ماذا جَنَوْا ، وماذا فعلوا حتى يستحقوا هذا الحصار وتلك العدواة والبغضاء والقسوة ؟! .. تلك التساؤلات التى

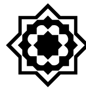
كانت سببًا لتعاطف ذوى القلوب الرحيمة مع المسلمين .. ولقد كانت الأشهر الْحُرم ومواسم الحج فرصة لنــزول المحاصرين إلى الأسواق ومقابلة الوافدين ، وعرض مبادئ الإسلام عليهم .. وكان النبى (ﷺ) يدعوهم للإيمان بالله وحده ويقرأ عليهم ما نزل من قرآن فاستجاب له الكثيرون منهم مما دفع زعماء مكة لمقابلة الحجاج قبل أن يلقاهم النبى (ﷺ) كى يحذروهم من الاستماع إليه مُدَّعين أنه ساحر البيان ، وأن ما يقوله سحر يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته ، ولهم فيما حدث بمكة عبرة ..

ولقد دفع طول زمن الحصار وكثرة ما أصــاب المسلمين من عَنَت قريــش - وهم أبناؤهم وإخوانــهم وأصهارهم وأبناء أعمامهم وأخوالهم - بعض أهل مكة للشعور بفداحة ما ارتكبوا من ظلم وقسوة فى حق هؤلاء الذين يكادون أن يموتوا جوعًا ، فاجتمع خمسة منهم وهم : هشام بن عمرو ، وزهير ابن أمية ، والْمُطْعِم بن عَدِىّ ، وزمعة بن الأسود ، وأبو البَخْتَرى بن هشام وتعاهدوا على العمل على نقض الصحيفة المعلقة بجوف الكعبة والتى تعاهد فيها زعماء مكة على مقاطعة النبى (ﷺ) ومَن انــحاز إليه ، فذهبوا إلى الكعبة ثم صاح أحدهم : يا أهل مكة أنأكل الطعام ، ونلبس الثياب ، وبنو هاشم هَلْكَى لا يبتاعون ولا يُبْتَاع منهم ؟!! .. والله لا أقعد حتى تُشَقَّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .. فصاح به أبو جهل كذبتَ ، والله لا تُشَق .. فتصايح الأربعة الآخرون قائلين : بل تُقْطَع وتُشَق .. فقال أبو جهل : ذاك أمر بُيِّتَ بِلَيْل ،

وشعر أن هناك اتفاقًا وأن مخالفتهم قد تثير شرًّا فتراجع .. وقام الْمُطْعِم بن عَدِىّ ليشق الصحيفة فوجد القرضة قد أكلتها إلا أولها المكتــوب فيــه (باسمك اللهم) .. وبنقض الصحيفة أُتيح للمحصورين فى شِعْب أبى طالب النــزول إلى مكة والتعامل مع سائر الناس فى البيع والشراء ..

وجاء إلى مكة عشرون رجلا - أو قريب من ذلك - من النصارى الذين سمعوا من الحبشة نبأ النبى (ﷺ) فاجتمعوا معه عند الكعبة ، وسألوه وكلموه - وكان رجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة - فلما فرغوا من أسئلتهم دعاهم رسول الله (ﷺ) إلى الإسلام وقرأ عليهم بعض ما نزل من القرآن ، فلما سمعوا ما تلاه عليهم فاضت أعينهم من الدمع ، واستجابوا لله ، وآمنوا برسوله وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابــهم من أمـــره .. فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل فى نفر من قريش وسَبَّهم ، فأعرضوا عنه وقالوا : لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه ..

وهكذا .. عاد النبى (ﷺ) ومَنْ معه إلى مكة ، وجعل النبى (ﷺ) يُبَلِّغُ دعوته فى مكة وفى القبائل التى تجِىءُ إليها فى الأشهر الحرم ، ومع كثرة الذين اتبعوه فإنه ظل لا يَسْلَم المسلمون من أذى قريش ولا يستطيع هو لهم منعًا ..



عام الحزن

لم تمض إلا شهور قليلة على نقض الصحيفة حتى فوجئ النبى (ﷺ) بمرض عمه أبى طالب وإشرافه على الموت ، فذهب إليه فوجد عنده أبا جهل وأشراف قريش يكلمونه فى شأنه ويطالبونه بأن يَكُفَّه عنهم فيكفّوا عنه ، ويَدَعَهُم ودينهم فيَدَعُوه ودينه .. فقال لهم النبى (ﷺ) : نعم ، كلمة واحدة تعطونيها تملكون بـها العرب ، وتدين لكم بـها العَجَم .. فقال أبو جهل : نعم وأبيك ، وعشر كلمات .. قال : تقولون لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه .. فقالوا : أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلَهًا واحدًا ؟! إن أمرك لعجب .. ثم قال بعضهم لبعض : إن هذا الرجل لن يعطيكم مما تريدون شيئًا ، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه .. ثم تفرقوا فقال أبو طالب للنبى (ﷺ) : والله يا ابن أخى ما رأيتك سألتهم شططا .. ولما رأى رسول الله (ﷺ) أن الموت قد حضر عمه دعاه إلى الإسلام وطلب منه أن ينطق بكلمتى الشهادة .. وتوفى أبو طالب الذى كان سندًا للنبى (ﷺ) مُدَافِعًا عنه مُحبًّا له .. ثم لم تلبث السيدة خديجة أن تُوفيت .. تلك السيدة العظيمة التى نزل جبريل يومًا يقول للنبى (ﷺ) فى شأنـها : يَا رَسُولَ اللَّه هَذِه خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلاَمَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي ، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ ، لاَ

صَخَبَ فِيهِ وَلاَ نَصَبَ [1] ..

وتموت الزوج الحنون التى كانت بقوة إيمانــــها ، وطهارة قلبها ، ورِقَّة نفسها ، وحبها الشديد تُهَوِّنُ على النبى (ﷺ) كلَّ شدة ، وتزيل من نفسه كلَّ أَلَمٍ وحزن ، وتواسيه بنفسها ومالها .. وتضاعف الحزن على فقد هذين النصيرين الْمُحِبَّيْن ، وتركت الفاجعتان الأليمتان أبلغ الأثر فى نفس النبى (ﷺ) ، وما لا يمكن وصفه من حزن وأسف وأسى ..

واشتد أذى قريش للنبى (ﷺ) بعد وفاة عمه وزوجه ، وزادت مساءاتــــهم حتى ضاق بــــهم ذرعًا فخرج إلى الطائف منفردًا لا يعلم بأمره أحد يلتمس إسلام قبيلة ثقيف ويرجو نصرتــــهم ، فلم يكن منهم إلا أنــــهم أغروا به سفهاءهم يسبونه ويصيحون به ، ففر منهم إلى حائط [2] فاحتمى به وجلس إلى ظل شجرة آسفا حزينًا ، ورفع رأسه إلى السماء ضارعًا فى أَلَم وحزن : (اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِى ، وَقِلَّةَ حِيلَتِى ، وَهَوَانِى عَلَى النَّاس ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبِّى ، إِلَى مَنْ تَكِلُنِى ؟! إِلَى بَعِيد يَتَجَهَّمُنِى [3] ؟! أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِى ؟! إِنْ لَمْ يَكُنْ بكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلاَ أُبَالِى ، وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ هِىَ أَوْسَعُ لِى ، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِى أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِى غَضَبَك ، أَوْ يَحِلَّ

---

[1] رواه البخارى كتاب المناقب .
[2] بستان به نخل وشجر .
[3] يتجهمنى : يستقبلنى بوجه عبوس كريه .

عَلَيَّ سُخْطُكَ ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِكَ) [1] ..

وتحركت نفس بعضهم شفقة عليه فأرسلوا إليه قِطْفًا من عنب مع غلامهم النصرانى (عَدَّاس) ، فأخذه النبى (ﷺ) وقال : بسم الله ، ثم أكل .. فقال عَدَّاس : هذا كلام لا يقوله أهل هذه البلاد !! فسأله النبى (ﷺ) عن بلده ودينه ، فلما علم أنه نصرانى من بلدة نِينَوَى قال له : أَمِنْ قَرْيَةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ يُونُسَ بْنِ مَتَّى ؟ فسأله عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟! قال : ذَاكَ أَخِى ، كَانَ نَبِيًّا وَأَنَا نَبِىٌّ .. فَأَكَبَّ عدَّاس عليه يُقَبِّل رأسه ويديه وقدميه ..

وعاد النبى (ﷺ) إلى مكة حزينًا بعد أن طلب من أهل ثقيف عدم إخبار أهل مكة بقدومه إليهم حتى لا يشمتوا به .. وعرفت قريش بالأمر فازدادوا فى إيذائهم له ، والشماتة به ..

وبدأ رسول الله (ﷺ) يَعْرِضُ نفسَه على القبائل فى المواسم التى يأتون فيها إلى مكة للحج ، ويدعوهم إلى الإيمان بالله وحده ، ويخبرهم بأنه نبىٌّ مُرْسَلٌ ، ويحدِّثهم عن الإسلام وما يدعو إليه من مكارم الأخلاق ، وما ينتظر الناس من بعث وحساب ، وما يؤدى إلى الجنة أو النار .. ولم يكتف بذلك بل كان يذهب إلى القبائل فى منازلها ، فذهب إلى قبائل : كندة ، وكلب ، وبنى حنيفة ،

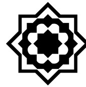
---

[1] سيرة ابن هشام .

وبنى عامر بن صعصعة فلم يسمع له أحدٌ أو يستجب له .. وكان عمه عبد العُزَّى بن عبد المطلب (أبو لهب) يتبعه أينما ذهب ويُحَرِّض الناس على عدم الاستماع له مُتَّهِمًا إياه تارة بأنه شاعر ، وتارة أخرى بأنه ساحر ... إلخ ، مما زاد من حُزْنِ النبى (ﷺ) وأَلَمِه وهَمِّه ..

وضاقت نفس النبى (ﷺ) بما يلقاه من أذى أقرب الناس إليه ، وبما تُسْتَقبل به دعوتُه من تكذيب ، وبما يُسْتَقبل به هو نفسه من سخرية واستهزاء من قوم يدعوهم إلى النجاة وإلى السلامة وإلى عِزِّ الدَّارَيْن ، متجاهلين أنه لا يريد لنفسه شيئًا من مال أو جاه أو سلطان .. بالإضافة إلى ما امتلأت به نفسه من حزن عميق على فقد الحنان والحب بموت السيدة خديجة ، وفقد الحماية بموت عمه أبى طالب الذى ربَّاه وكفله ورعاه ..

وفى ليلة من الليالى حيث ينام (ﷺ) بالمسجد وحيدًا تحدث معجزة الإسراء والمعراج لِيُعْلِمَه الله بمنــزلته (ﷺ) فى الملأ الأعلى ، وأن أهل الأرض إن كانوا قد كذَّبوه ولم يعرفوا قَدْرَه ، فقد علم أهل السماء قَدْرَه ..



تعددت الروايات عن قصة الإسراء والمعراج ، كما اختلفت الآراء فى كون الإسراء والمعراج أكانا بالجسد والروح معًا ، أم كانا بالروح فقط ، أم كان الإسراء بالجسد والروح ، وكان العروج بالروح فقط .. ولا شك أن الأمرين كانا بالروح والجسد معًا ، إذ إن الأمر لو كان بالروح فقط لما كانت فيه معجزة ، وما كان لقومه أن يكذبوه حين حدَّثَهم به ..كما أن الأمر يتعلق بقدرة الله عز وجل التى تتمثل فى قول (كُن فَيَكُونُ) .. وعليه فإن الموضوع كله غير قابل للمناقشة أو الجدل ..

هذا .. وقد آثرنا ألاَّ نذكر الروايات المختلفة ، ولا نسوق إلاَّ ما ورد فى أصح كتب السيرة ، وما رواه الإمامان البخارى ومسلم فى صحيحيهما ..

فأما ما يتعلق بقصة الإسراء ، فيقول النبى (ﷺ) : فُرِجَ سَقْفُ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ ، فَفَرَجَ [1] صَدْرِي ، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا ، فَأَفْرَغَهَا فِي صَدْرِي ، ثُمَّ أَطْبَقَهُ .. وَأُتِيتُ بِالْبُرَاقِ ، وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ ، فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ ، يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ ، فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ ، فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ بِهَا الأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ [2] .. ويقول الحسن (رضي الله عنه) : فَوَجَدَ فِيهِ

---

(1) فرج : فتح .
(2) رواه البخارى فى كتاب أحاديث الأنبياء ، ومسلم فى كتاب الإيمان .

إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى فِي نَفَرٍ مِنَ الأَنْبِيَاءِ ، فَأَمَّهُمْ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) فَصَلَّى بِهِمْ ، ثُمَّ أُتِيَ بِإِنَاءَيْنِ فِي أَحَدِهِمَا خَمْرٌ ، وَفِي الآخَرِ لَبَنٌ .. قَالَ : فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) إِنَاءَ اللَّبَنِ فَشَرِبَ مِنْهُ ، وَتَرَكَ إِنَاءَ الْخَمْرِ .. قَالَ : فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ : هُدِيتَ لِلْفِطْرَةِ ، وَهُدِيَتْ أُمَّتُكَ يَا مُحَمَّدُ ، وَحُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْخَمْرُ .. ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) إِلَى مَكَّةَ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدا عَلَى قُرَيْشٍ فَأَخْبَرَهُمُ الْخَبَرَ .. فَقَالَ أَكْثَرُ النَّاسِ : هَذَا وَاللهِ الأَمْرُ [١] الْبَيِّنُ ، وَاللهِ إِنَّ الْعِيرَ لَتَطَّرِدُ شَهْرًا مِنْ مَكَّةَ إِلَى الشَّامِ مُدْبِرَةً ، وَشَهْرًا مُقْبِلَةً ، أَفَيَذْهَبُ ذَلِكَ مُحَمَّدٌ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ وَيَرْجِعُ إِلَى مَكَّةَ ؟! .. قَالَ : فَارْتَدَّ كَثِيرٌ مِمَّنْ كَانَ أَسْلَمَ [٢] .. وذهب بعض الناس إلى بيت أبى بكر يقولون لـــه : أدركْ صاحبك ، فإنه فى الْحِجْر يُحدث الناس أنه قد أُسْرِيَ به البارحة إلى المسجد الأقصى وعاد فى الليلة نفسها ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهرًا غدوًّا وشهرًا رواحًا !! فقال أبو بكر : والله إن كان قاله فقد صدق ، فإنى أصدقه فى خبر السماء فى غدوة أو روحة فى لحظة من الليل أو لحظة من النهار ، أفلا أصدقه فى خبر الأرض ؟! ثم جاء يسعى إلى النبى (ﷺ) وهو يحدث الناس بقصة الإسراء ، و لم يكن قد تحدث عن قصة المعراج بعد ، فقال له : صدقت يا رسول الله ، والله لئن أخبرتنا أنه قد عُرِج بك إلى السماوات العُلاَ لصَدَّقْناك ، فأجابه النبى (ﷺ) قائلاً : وقد عُرِج بى إلى السماوات العلا ، وأنت يا أبا بكر الصدّيقُ ..

---

[١] الأمر : العجيب المنكر .

[٢] سيرة ابن هشام (الجزء الثانى) .

هذا .. ويقول النبى (ﷺ) : لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الْحِجْرِ وَقُرَيْشٌ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَايَ ، فَسَأَلَتْنِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمْ أُثْبِتْهَا [١] ، فَكُرِبْتُ كُرْبَةً مَا كُرِبْتُ مِثْلَها قَطُّ ، فَرَفَعَهُ اللَّهُ لِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ ، مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلاَّ أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ .. [٢]

وتروى السيدة أم هانئ (رضى الله عنها) فتقول : إن المشركين قالوا للنبى (ﷺ) بعد عودته من رحلة الإسراء والمعراج : إن كنت صادقًا فخبرنا عن عيرنا أين لقيتها ؟ قال : بمكان كذا وكذا مررتُ عليها ، ففزع فلان — فقيل له بعد عودة العير : ما رأيت يا فلان ؟ قال : ما رأيتُ شيئًا غير أن الإبل قد نفرت — قالوا : فأخبرنا متى تأتينا العير ؟ قال : تأتيكم يوم كذا وكذا ، قالوا : أية ساعة ؟ قال : ما أدرى طلوع الشمس من هاهنا أسرع ، أم طلوع العير من هاهنا .. فقال رجل ذلك اليوم : هذه الشمس قد طلعت ، وقال رجل : هذه عيركم قد طلعت [٣] ..

وأما عن قصة المعــــراج فيقول النبى (ﷺ) : جاء جبريل بالمعراج ، ثُمَّ عَرَجَ [٤] بِنَا إِلَى السَّمَاءِ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ ، فَرَحَّبَ بِي ، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ .. ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَم ، فَقِيلَ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ :

---

[١] أثبتها : أحفظها ، وأضبطها .
[٢] رواه مسلم ، كتاب الإيمان .
[٣] تفسير القرطبى .
[٤] عرج : صعد .

وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْه ؟ قَالَ : قَدْ بُعِثَ إِلَيْه ، فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِابْنَيِ الْخَالَة : عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّاءَ ، صَلَوَاتُ اللَّه عَلَيْهِمَا ، فَرَحَّبَا ، وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ .. ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَة ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ (ﷺ) ، قِيلَ : وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْه ؟ قَالَ : قَدْ بُعِثَ إِلَيْه ، فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ (ﷺ) ، إِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ [1] الْحُسْنِ ، فَرَحَّبَ ، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ .. ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَة ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْه السَّلاَم ، قِيلَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْه ؟ قَالَ : قَدْ بُعِثَ إِلَيْه ، فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ ، فَرَحَّبَ ، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا) [2] .. ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَة ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، قِيلَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْه ؟ قَالَ : قَدْ بُعِثَ إِلَيْه ، فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ (ﷺ) ، فَرَحَّبَ ، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ .. ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَة ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْه السَّلاَم ، قِيلَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْه ؟ قَالَ : قَدْ بُعِثَ إِلَيْه ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى (ﷺ) ، فَرَحَّبَ ، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ .. ثُمَّ عَرَجَ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَة ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ؟ قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ

---

[1] شطر : نصف .

[2] سورة مريم آية ٥٧ .

(ﷺ) ، قيلَ : وَقَدْ بُعثَ إِلَيْه ؟ قَالَ : قَدْ بُعثَ إِلَيْه ، فَفُتحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهيمَ (ﷺ) مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْت الْمَعْمُورِ ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَك لاَ يَعُودُونَ إِلَيْه .. ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى سدْرَة الْمُنْتَهَى ، وَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الْفيلَة ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقلاَل [١] ، فَلَمَّا غَشيَهَا [٢] منْ أَمْرِ اللَّه مَا غَشيَ ، تَغَيَّرَتْ فَمَا أَحَدٌ منْ خَلْقِ اللَّه يَسْتَطيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا [٣] منْ حُسْنهَا ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى ، فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسينَ صَلاَةً في كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَة ، فَنَزَلْتُ إِلَى مُوسَى (ﷺ) ، فَقَالَ : مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتكَ ؟ قُلْتُ : خَمْسينَ صَلاَةً ، قَالَ : ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفيفَ ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ يُطيقُونَ ذَلكَ ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ [٤] بَني إِسْرَائيلَ وَخَبَرْتُهُمْ ، فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي فَقُلْتُ : يَا رَبِّ خَفِّفْ عَلَى أُمَّتي ، فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقُلْتُ : حَطَّ عَنِّي خَمْسًا ، قَالَ : إِنَّ أُمَّتَكَ لاَ يُطيقُونَ ذَلكَ ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفيفَ ، فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، وَبَيْنَ مُوسَى عَلَيْه السَّلام حَتَّى قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَات كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَة ، لكُلِّ صَلاَة عَشْرٌ ، فَذَلكَ خَمْسُونَ صَلاَةً ، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَة فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتبَتْ لَهُ حَسَنَةً ، فَإِنْ عَملَهَا كُتبَتْ لَهُ عَشْرًا ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَة فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا ، فَإِنْ عَملَهَا كُتبَتْ سَيِّئَةً وَاحدَةً .. فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى (ﷺ) فَأَخْبَرْتُهُ ، فَقَالَ : ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ

---

[١] القلال : جمع قُلَّة ، وهى الجرة الكبيرة .
[٢] غشيها : أصابـــها .
[٣] ينعتها : يصفها .
[٤] بلوتُ : اختبرتُ .

التَّخْفِيفَ ، فَقُلْتُ : قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ .. [1]

هذا .. وقد اختلف الناس أيضا فيما إذا كان النبى (ﷺ) قد رأى ربَّه أَمْ لاَ .. ونحن نسوق فى هذا الشأن أصح ما قيل ..

فعَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ : كُنْتُ مُتَّكِئًا عِنْدَ عَائِشَةَ فَقَالَتْ : يَا أَبَا عَائِشَةَ .. ثَلاَثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ ، قُلْتُ : مَا هُنَّ ، قَالَتْ : مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا (ﷺ) رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ ، قَالَ : وَكُنْتُ مُتَّكِئًا فَجَلَسْتُ فَقُلْتُ :يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنْظِرِينِي وَلاَ تَعْجَلِينِي ، أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ) [2] (وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ) [3] ؟! فَقَالَتْ : أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) فَقَالَ : "إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ " .. فَقَالَتْ : أَوَ لَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ (لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ) [4] أَوَ لَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ) [5]..

---

[1] رواه مسلم ، كتاب الإيمان .

[2] سورة التكوير آية ٢٣ .

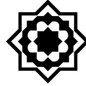
[3] سورة النجم آية ١٣.

[4] سورة الأنعام آية ١٠٣ .

[5] سورة الشورى آية ٥١ .

قَالَتْ : وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) كَتَمَ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ ، وَاللَّهُ يَقُولُ (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ) [1] .. قَالَتْ : وَلَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ (ﷺ) كَاتِمًا شَيْئًا مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ لَكَتَمَ هَذِهِ الآيَةَ (وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ) [2] ..

قَالَتْ : وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُخْبِرُ بِمَا يَكُونُ فِي غَدٍ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ ، وَاللَّهُ يَقُولُ (قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ) [3] .. [4]



---

[1] سورة المائدة آية ٦٧ .

[2] سورة الأحزاب آية ٣٧ .

[3] سورة النمل آية ٦٥ .

[4] رواه مسلم كتاب الإيمان .

بيعتا العقبة

زادت حادثة الإسراء والمعراج المؤمنين إيمانًا ويقينًا ، وثقة بنصر الله عز وجل لدينه ، فى الوقت الذى ارتد فيه ضعاف النفوس عن دينهم ، وكأنها كانت اختبارًا وامتحانًا ليتبين الصادق قوى الإيمان من المتردد المتشكك .. وانتهزت قريش هذه الفرصة فزادت من إيذائها للمسلمين لعلهم يرتدون إلى دين آبائهم كما فعل غيرهم .. كما أن القبائل حول مكة حين رأت ما تفعله قريش بالمسلمين ومن يناصرهم آثرت السلامة خوفًا على تجارتهم مع قريش ، فازدادوا إعراضا عن النبى (ﷺ) وما يدعو إليه .. ومع ذلك ظل هو وأصحابه على ثقة ويقين بنصر الله ، وإعلائه لدينه على الدين كله ..

وجاء موسم الحج .. وخرج من يثرب إلى مكة نفر من قبيلة الخزرج ، فلقيهم النبى (ﷺ) ، وعرف منهم ما بينهم وبين قبيلة الأوس من عداء مستحكم بسبب ما كان اليهود يثيرونه بينهم من دسٍّ ووقيعة وتفريق ، حتى لا يتحدوا عليهم ولكى ينشغلوا بالاقتتال ، ويتفرغ اليهود للزراعة والتجارة وجمع المال .. وكانت آخر المعارك بين الأوس والخزرج وقعة (بُعَاث) التى كان القتال فيها شديدًا فَقَدَ الفريقان فيه الكثير من الرجال والأموال ، مما دفع الخزرج إلى إرسال هؤلاء النفر فى موسم الحج إلى مكة لكى يجدوا حليفًا لهم من أهلها على أعدائهم من الأوس .. فدعاهم النبى (ﷺ) إلى الإسلام الذى يؤلف بين

القلوب ، ويدعو إلى نبذ الغِلِّ والأحقاد ، وإرساء السلام بين الناس ، فاستجابوا له وقالوا : إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، وإن يجمعهم عليك فلا رجل أعزَّ منك .. وقـــال بعضهم لبعض : والله إنه النبى الذى تواعدكم به يهود فلا يَسْبِقُنَّكم إليه !! فقد كان يهود يثرب يقولون لهم إذا اختلفوا وإياهم : إن نبيا مبعوثًا الآن قد أظل زمانُه ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ..

وعاد هؤلاء النفر إلى المدينة ، وكان من بينهم اثنان من بنى النجار أخوال عبد المطلب جد النبى (ﷺ) ، فذكروا لقومهم إسلامهم فاستجاب لهم الكثير منهم ..

واستدار العام وحَلَّ موسم الحج التالى ، وجاء اثنا عشر رجلاً من أهل يثرب ، فالتقوا بالنبى (ﷺ) بالعقبة فبايعوه على ألاَّ يشركوا بالله شيئًا ، ولا يسرقوا ، ولا يزنوا ، ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ، ولا يعصوه فى معروف ، فمن وَفَى فله الجنة ، وإن غَشِىَ من ذلك شيئًا فأمره إلى الله ، إن شاء عذَّب وإن شاء غفر .. وأرسل النبى (ﷺ) معهم مُصْعَب بن عُمَيْر يعلمهم الإسلام ، ويُفَقِّهُهُم فى الدين ، ويُقْرِئُهُم القرآن ، فكان نعم السفير إلى أهل يثرب ، حيث لم يبق بيت من بيوت الأوس والخزرج إلا وفيه ذكر النبى (ﷺ) ..

وحَلَّ موسم الحج ، وجاء مع مصعب بن عمير إلى مكة ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان من أهل يثرب ممن أسلموا ، واتصل بـــهم النبى (ﷺ) سِرًّا وواعدهم على اللقاء بالعقبة جوف الليل فى أوسط أيام التشريق ، وأقبل النبى (ﷺ) فى الموعد ومعه عمُّه العباس بن عبد المطلب – وكان لا يزال على دين قومه – وقد شعر أن النبى (ﷺ) قد يريد الهجرة إلى المدينة فأراد أن يستوثق من عزم المسلمين من أهلها على نُصْرته ، ومنعه من قومه .. لذلك كان هو أول من تكلم فقال : يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ .. إِنَّ مُحَمَّدًا مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ ، وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنَا فِيهِ ، وَهُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ ، وَمَنَعَةٍ فِي بَلَدِهِ ، وقد أَبَى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له فيما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم مسلميه [1] وخاذليه بعد خروجه إليكم فمن الآن فدعوه .. فقالوا : سَمِعْنَا مَا قُلْتَ ، فَتَكَلَّمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَخُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتَ .. فأجاب النبى (ﷺ) قائلا : أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ [2] .. فمد القوم أيديهم وبسط النبى (ﷺ) يده فبايعوه ، فطلب منهم أن يختاروا من بينهم اثنى عشر نقيبًا ، فاختاروا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس .. وانتهى الاجتماع على ذلك ، وتسرَّب أمره إلى قريش فأقبلت على

---

[1] مسلميه : التخلى عنه وقت الشدة .
[2] رواه أحمد ، مسند المكيين .

الخزرج فى منازلهم بالعقبة فى الصباح يستوثقون الخبر ويعاتبونـــهم على تحالفهم مع محمد عليهم ، فأخذ المشركون من الخزرج يحلفون بالله لهم أنه ما كان من هذا شيء ، والتزم المسلمون بالصمت لما رأوا قريشًا قد مالت إلى تصديق المشركين ..

واستراحت نفس النبى (ﷺ) لبيعة من جاء من أهل المدينة ، ولِمَا أخبره به مصعب بن عمير عن اشتياق أهلها للإسلام ومسارعتهم إلى الدخول فيه ، فأمر أصحابه أن يهاجروا إلى المدينة متفرقين وأن يخفوا أمرهم عن قريش حتى لا تثور ثائرتـــهم عليهم ، ولكن قريشًا علمت بالأمر ، فحاولت أن ترد كل مَن استطاعت رده إلى مكة لِتُعَذِّبَه وتُنَكِّل به ، وكانت تحول بين الرجل وامرأته إن كانت من قريش ، فلا تسمح لها بالخروج معه .. أما عمر بن الخطاب فقد تَوَشَّح سيفه وأخذ كنانة وملأها بالسهام وأخذ القوس ، ثم ذهب إلى البيت فطاف بالكعبة أمام المشركين ، ثم وقف وصلى ركعتين وهو آمن ما يكون ، ثم مَرَّ عليهم فى مجلسهم مجلسًا مجلسًا وهو يقول : من أراد أن تَثْكَلَه أمُّهُ وَيُـــيَـــتَّم ولدُه وَتُرَمَّل زوجُه فليلقنى وراءِ هذا الوادى ، إنى مهاجر .. وجمع عمر المستضعفين وأخذهم فى حمايته وخرج إلى المدينة ومعه عشرون راكبًا ، ونزل على بنى عمرو بن عوف .. وكانت هجرة عمر قبل هجرة رسول الله (ﷺ) ، فلما سأله الناس كيف حال رسول الله (ﷺ) قال : هو على إثرى .. ومع كل ما فعلت قريش فقد تتابعت هجرة المسلمين إلى يثرب حيث الْمَنَعَة ، والنُّصْرة ، والأخوة فى الله ، وحسن الاستقبال ..

كانت قريش تحسب لهجرة النبى (ﷺ) إلى يثرب ألف حساب ، فقد كثُر المسلمون بـــها كثرة جعلتهم أصحاب اليد العليا ، خاصة وقد انضم إليهم المهاجرون من مكة ، فإذا ذهب إليهم النبى (ﷺ) فلا يُستَبعد أن يهاجموا مكة أو يقطعوا طريق تجارتـــها إلى الشام ، وإذا حَصَرُوه بمكة ومنعوه من الهجرة فقد يثور المسلمون فى المدينة ويفكرون فى الهجوم على مكة لتخليص نبيهم ، وإذا قتلوه ثـــار بنو هاشم وبنو المطلب وطالبوا بدمه فتقوم حرب أهلية لا يُعْلَم مداها .. لذلك اجتمع زعماء مكة بدار الندوة يتشاورون فى الأمر ، واجتمعت كلمتهم على أن يأخذوا من كل قبيلة شابًّا قويًّا ويعطوه سيفًا صارمًا فيضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دَمُهُ فى القبائل ، فلا يبقى أمام بنى هاشم وبنى المطلب إلا القبول بالدِّيَة .. وهكذا تستريح قريش ، ويعود لمكة مكانتها ووحدتـــها ..

هذا .. وكان أبو بكر (رضي الله عنه) قد تَجَهَّزَ مهاجرًا فقال له النبى (ﷺ) : عَلَى رِسْلِكَ [1] ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ : هَلْ تَرْجُو ذَلِكَ بِأَبِي أَنْتَ ؟ قَالَ : نَعَمْ .. فَحَبَسَ أَبُو بَكْرٍ نَفْسَهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) لِيَصْحَبَهُ ، وَعَلَفَ رَاحِلَتَيْنِ [2] كَانَتَا عِنْدَهُ وَرَقَ السَّمُرِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ .. [3]

---

[1] على رسلك : تأن وتمهلْ .

[2] راحلتين : ناقتين .

[3] رواه البخارى ، كتاب الحوالة ..

وقد أَعْلَم الله تبارك وتعالى رسوله (ﷺ) بتدبير قريش لقتله ، وأذن له فى الهجرة .. وتقول السيدة عائشة رضى الله عنها : لَقَلَّ يَوْمٌ كَانَ يَأْتِي عَلَى النَّبِيِّ (ﷺ) إلاَّ يَأْتِي فِيهِ بَيْتَ أَبِي بَكْرٍ أَحَدَ طَرَفَيِ النَّهَارِ ، فَلَمَّا أُذِنَ لَهُ فِي الْخُرُوجِ إِلَى الْمَدِينَةِ لَمْ يَرُعْنَا [1] إِلاَّ وَقَدْ أَتَانَا ظُهْرًا ، فَخُبِّرَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ : مَا جَاءَنَا النَّبِيُّ (ﷺ) فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلاَّ لأَمْرٍ حَدَثَ .. فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ لأَبِي بَكْرٍ : أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ .. قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّمَا هُمَا ابْنَتَايَ – يَعْنِي عَائِشَةَ وَأَسْمَاءَ – قَالَ : أَشَعَرْتَ أَنَّهُ قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ ؟ قَالَ : الصُّحْبَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ .. قَالَ : الصُّحْبَةَ .. قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ : إِنَّ عِنْدِي نَاقَتَيْنِ أَعْدَدْتُهُمَا لِلْخُرُوجِ ، فَخُذْ إِحْدَاهُمَا .. قَالَ : قَدْ أَخَذْتُهَا بِالثَّمَنِ .. [2]

وَاسْتَأْجَرَ النَّبِيُّ (ﷺ) وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلاً مِنْ بَنِي الدِّيلِ هَادِيًا خِرِّيتًا [3] ، فَأَمِنَاهُ فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا ، وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلاَثِ لَيَالٍ .. [4]

وقد أمر النبى (ﷺ) عليَّ بن أبى طالب أن يبيت فى فراشه ويتغطى ببرده وقال : يا على .. لا يخلص إليك شىء تكرهه ، وأمره بالبقاء بعده ثلاثة أيام ليؤدى الودائع عنه .. ونام علىٌّ فى فراش النبى (ﷺ) ، وفى ذلك يقال إن الله عز وجل أَوْحَى إلَى جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ عليهما السلام : (إِنِّي آخَيْت بَيْنَكُمَا ،

---

[1] الروع : الخوف والفزع .
[2] رواه البخارى ، كتاب البيوع .
[3] هَادِيًا خِرِّيتًا : دليلا ماهرًا بِالْهِدَايَة .
[4] رواه البخارى ، كتاب الإجارة .

وَجَعَلْت عُمُرَ أَحَدكُمَا أَطْوَلَ منْ الآخرِ ، فَأَيُّكُمَا يُؤْثِرُ صَاحبَهُ بالْحَيَاة ؟) .. فَاخْتَارَ كِلاهُمَا الْحَيَاةَ .. فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِمَا : (أَفَلا كُنْتُمَا مثْلَ عَليٍّ بْنِ أَبِي طَالِب ؟! آخَيْت بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَبِيِّي مُحَمَّد ، فَبَاتَ عَلَى فِرَاشِه ، يَفْدِيه بِنَفْسه ، وَيُؤْثِرُهُ بِالْحَيَاةِ .. اهْبِطَا إِلَى الأَرْضِ فَاحْفَظَاهُ مِنْ عَدُوِّهِ) [1] .. فنـــزل جبريل وميكائيل لحماية على بن أبى طالب من كفار مكة .. فيبيت عَلِىّ فى فراش النبى (ﷺ) وينظر الناس من خصاص الباب معتقدين أن الذى يبيت فى الفراش هو محمد بن عبد الله ، ثم يخرج النبى (ﷺ) عليهم ويأخذ من تراب الأرض ويضع على رأس كل واحد منهم وهو يتلو قول الله عز وجل : (وَجَعَلْنَا مِنْۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩) [2] .

وذهب النبى (ﷺ) إلى بيت أبى بكر (رضي الله عنه) فى الثلث الأخير من الليل ، وتقول أسماء رضى الله عنها : صَنَعْتُ سُفْرَةَ رَسُول اللَّه (ﷺ) فِي بَيْت أَبِي بَكْرٍ حِينَ أَرَادَ أَنْ يُهَاجِرَ إِلَى الْمَدِينَة ، قَالَتْ : فَلَمْ نَجِدْ لِسُفْرَته وَلاَ لِسقَائِه مَا نَرْبِطُهُمَا بِه .. فَقُلْتُ لأَبِي بَكْرٍ : وَاللَّه مَا أَجِدُ شَيْئًا أَرْبِطُ بِه إِلاَّ نِطَاقِي .. قَالَ : فَشُقِّيه بِاثْنَيْنِ فَارْبِطِيه : بِوَاحِدٍ السِّقَاءَ وَبِالآخَرِ السُّفْرَةَ .. فَفَعَلْتُ .. فَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ . [3]

وخرج النبى (ﷺ) ، وأبو بكر (رضي الله عنه) من خوخة فى ظهر بيت أبى بكر ،

---

[1] أسد الغابة لابن الأثير .   [2] سورة يس آية ٩ .   [3] رواه البخارى ، كتاب الجهاد والسير .

وتوجها إلى غـــار ثور فَمَكَثَا فيه ثَلاَثَ لَيَالٍ يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِـــي بَكْرٍ – وَهُوَ غُلاَمٌ شَابٌّ لَقِنٌ ثَقِفٌ [1] – فَيَرْحَلُ مِنْ عِنْدهمَا سَحَرًا [2] فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائت ، فَلاَ يَسْمَعُ أَمْرًا يُكَادَانِ بِهِ إِلاَّ وَعَاهُ حَتَّى يَأْتِيَهُمَـــا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلاَمُ .. وَيَرْعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ مَوْلَى أَبِـــي بَكْرٍ مِنْحَةً [3] مِنْ غَنَمٍ ، فَيُرِيحُهَا [4] عَلَيْهِمَا حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ .. فَيَبِيتَانِ فِي رِسْلِهَا [5] حَتَّى يَنْعِقَ [6] بِهَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ بِغَلَسٍ [7] .. يَفْعَلُ ذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلاَثِ .. [8]

وما إن لجأ النبى (ﷺ) وصاحبه إلى الغار حتى أسرعت العنكبوت إلى نسج بيتها لتستر به مَنْ فى الغار عن الأعين ، وجاءت حمامتان فباضتا عند بابه ، ونمت شجرة كبيرة لم تكن نامية ..

وأثنـــاء ذلك كانت قريش تَجِدُّ فى طلبهما غير وانية ، وكيـــف لا تفعل وهى ترى الخطر محدقًا بـــها إن هى لم تُدرك محمدًا ولم تَحُلْ بينه وبين يثرب ! .. وأقبل فتيان قريش بأسيافهم وعِصِيِّهم وهراواتـــهم يدورون باحثين فى كل الأنحاء .. والتقوا براعٍ على مقربة من غار ثور فسألوه ، فكان جوابه :

---

[1] لقن ثقف : حاذق فطن .
[2] السحر : آخر الليل قبل الفجر .
[3] المنحة : الدابة الحلوب تعار للانتفاع بلبنها .
[4] فيريحها : فيردّها .
[5] يبيتان فى رسلها : يبيتان يشربان من لبنها .
[6] ينعق : يصيح .
[7] الغلس : ظلمة آخر الليل .
[8] رواه البخارى ، كتاب اللباس .

قد يكونان بالغار ، وإن كنت لم أر أحدا أَمَّه .. وتصبَّب أبو بكر عرقًا حين سمِع جواب الرَّاعى ، وخاف على رسول الله (ﷺ) من أن يقتحم الباحثون عنهما الغار ، فأمسك أنفاسه وبقى لا حَرَاك به وأسلم لله أمره .. وأقبل بعض القرشيِّين يتسلَّقون إلى الغار ، ثم عاد أحدهم أدراجَه ، فسأله أصحابه : ما لك لم تنظر فى الغار ؟ فقال : إن عليه العنكبوت من قبل ميلاد محمد ، وقد رأيت حمامتين وَحْشيتين بفم الغار فعرفت أن ليس أحد فيه .. ويزداد أبو بكر خوفًا فيقول هامسًا : لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لأَبْصَرَنَا ، فأجابه النبى (ﷺ) : مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا ! [1] .. وزاد القرشيين اقتناعًا بأن الغار ليس به أحد أن رأوا الشجرة تدلَّت فروعها إلى فوهته ، ولا سبيل إلى الدخول إليه من غير إزالة هذه الفروع .. إذ ذاك انصرفوا ..

ويشير إلى ذلك قول الله عز وجل : (إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾) [2] ..

وفى صبيحة اليوم الرابع جاءهما الدليل عبد الله بن أريقط بِرَاحِلَتَيْهِمَا

---

[1] كتاب حياة محمد (ﷺ) .

[2] سورة التوبة آية ٤٠ .

فَارْتَحَلاَ ، وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ ، وَالدَّلِيلُ الدِّيلِيُّ ، فَأَخَذَ بِهِمْ أَسْفَلَ مَكَّةَ ، وَهُوَ طَرِيقُ السَّاحِلِ .. [1]

هــذا .. وقد مــرَّ الرَّكْب المبارك وهم فى الطريق بخيمتى أُمِّ مَعْبَد الخُــزَاعِيَّة – وكانت امرأة بَرْزَةً جَلْدَة [2] – تَحْتَبِى [3] بفناء الخيمة ، ثم تُطْعِمُ وتَسْقِى مَنْ مَرَّ بــها ، فسألها النبى (ﷺ) هل عندها شىء .. فقالت : و"الله" لو كان عِنْدَنا شىءٌ ما أعوزكم القِرَى [4] والشاءُ عَازِبٌ [5] وكانت سَنَةً شَهْبَاءَ [6].

فنظر رســول الله (ﷺ) إلى شاة فى كسر الخيمة [7] فقال : " ما هذه الشَّاةُ يا أُمَّ مَعْبَد ؟ " قالــت : شَاةٌ خَلَّفَهَا الجَهْدُ [8] عَن الغنَم ، فقال : " هَلْ بــها مِنْ لَبَنٍ ؟ " .. قالت : هى أجْهَدُ مِنْ ذَلِكَ .. فقال : " أَتَأْذَنِينَ لِى أَنْ أَحْلِبَهَا ؟ " قالت : نَعَمْ بِأَبِى وَأُمِّى إنْ رَأَيْتَ بِهَا حَلْبًا فَاحْلِبْهَا .. فَمَسَحَ (ﷺ) بيده ضَرْعَها وسَمَّى "الله" ودَعَا فتفاجَّت [9] عَلَيْه وَدرَّتْ .. فَدَعَا بِإِنَاءٍ لَهَا يَرْبِضُ الرَّهْطَ [10] ، فَحَلَبَ فِيهِ حَتَّى عَلَتْهُ الرَّغْوَةُ ، فَسَقَاهَا ، فَشَرِبَتْ حَتَّى رَوِيَتْ ، وسَقَى أَصْحَابَهُ حَتَّى رَوُوا ، ثُمَّ شَرِبَ وحَلَبَ فِيهِ ثَانِيًا حَتَّى مَلأَ الإِنَاءَ ثُمَّ غَادَرَهُ عِنْدَهَا .. فَارْتَحَلُوا .. فَقَلَّمَا لَبِثَتْ أَنْ جَاءَ زَوْجُهَا أبو مَعْبَد يَسُوقُ أَعْنُزًا عِجَافًا يَتَسَاوَكْنَ هُزالاً [11] .. فَلَمَّا رَأَى اللَّبَنَ عَجِبَ ، فقال : مِنْ أَيْنَ لَكِ هَذَا والشَّاةُ

---

(1) رواه البخارى ، كتاب الإجارة .
(2) قَوِيَّة شديدة .
(3) تجلس .
(4) ما يُقدَّم للضيف .
(5) لم يطرقْها ذَكَــرٌ .
(6) شديدة القَحْط .
(7) جانبها .
(8) التعب والجوع .
(9) اندفع اللبن من ضرعها.
(10) يكفى الجماعة من الناس .
(11) يسرن سيرًا ضعيفًا .

عَازِبٌ ، ولاَ حَلُوبَةَ فِى الْبَيْتِ ؟ فقالت : لا والله إلاَّ أَنَّه مَرَّ بِنَا رَجُلٌ مُبَارَكٌ كَانَ مِنْ حَدِيثِه كَيْت وكَيْت ، ومِنْ حَالِه كذا وكذا .. قال : و"الله" إنى لأَرَاهُ صَاحِبَ قُرَيْشٍ الذى تَطْلُبُه .. [1]

واستمر الركب المبارك فى طريقه ، وكلما لقيهم أحَدٌ سَأَلَ أبا بكر : مَنْ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ ؟! فَيَقُولُ : هَذَا الرَّجُلُ يَهْدِينِي السَّبِيلَ .. قَالَ : فَيَحْسِبُ الْحَاسِبُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَعْنِي الطَّرِيقَ ، وَإِنَّمَا يَعْنِي سَبِيلَ الْخَيْرِ [2]..

ولما شعرت قريش بخروج النبى (ﷺ) رصدت مائة بعير مكافأة لمن يقتله أو يأسره .. ويحكى سُرَاقَةُ بْنُ جُعْشُمٍ يَقُولُ :جَاءَنَا رُسُلُ كُفَّارِ قُرَيْشٍ يَجْعَلُونَ فِي رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) وَأَبِي بَكْرٍ دِيَةَ كُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَنْ قَتَلَهُ أَوْ أَسَرَهُ .. فَبَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ قَوْمِي بَنِي مُدْلِجٍ أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ حَتَّى قَامَ عَلَيْنَا وَنَحْنُ جُلُوسٌ فَقَالَ : يَا سُرَاقَةُ إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ آنِفًا أَسْوِدَةً [3] بِالسَّاحِلِ أُرَاهَا مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ .. قَالَ سُرَاقَةُ : فَعَرَفْتُ أَنَّهُمْ هُمْ ، فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِهِمْ وَلَكِنَّكَ رَأَيْتَ فُلاَنًا وَفُلاَنًا انْطَلَقُوا بِأَعْيُنِنَا ..ثُمَّ لَبِثْتُ فِي الْمَجْلِسِ سَاعَةً ثُمَّ قُمْتُ فَدَخَلْتُ فَأَمَرْتُ جَارِيَتِي أَنْ تَخْرُجَ بِفَرَسِي ، وَهِيَ مِنْ وَرَاءِ أَكَمَةٍ [4] فَتَحْبِسَهَا [5] عَلَيَّ .. وَأَخَذْتُ رُمْحِي فَخَرَجْتُ بِهِ مِنْ ظَهْرِ الْبَيْتِ ، فَحَطَطْتُ

---

(١) كتاب زاد المعاد لابن القيم .

(٢) رواه البخارى ، كتاب المناقب .

(٣) أسودة : جماعة من الأشخاص .

(٤) أكمة : هضبة .

(٥) الحبس : الإمساك والمنع .

بِزُجِّهِ الأَرْضَ وَخَفَضْتُ عَالِيَهُ حَتَّى أَتَيْتُ فَرَسِي فَرَكِبْتُهَا فَرَفَعْتُهَا تُقَرِّبُ بِي حَتَّى دَنَوْتُ مِنْهُمْ فَعَثَرَتْ [١] بِي فَرَسِي فَخَرَرْتُ [٢] عَنْهَا ، فَقُمْتُ فَأَهْوَيْتُ يَدِي إِلَى كِنَانَتِي [٣] فَاسْتَخْرَجْتُ مِنْهَا الأَزْلاَمَ [٤] فَاسْتَقْسَمْتُ بِهَا [٥] : أَضُرُّهُمْ أَمْ لا ؟ فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ .. فَرَكِبْتُ فَرَسِي - وَعَصَيْتُ الأَزْلامَ - تُقَرِّبُ بِي حَتَّى إِذَا سَمِعْتُ قِرَاءَةَ رَسُـــولِ اللَّهِ (ﷺ) وَهُوَ لاَ يَلْتَفِتُ وَأَبُو بَكْرٍ يُكْثِرُ الالْتِفَاتَ سَاخَتْ [٦] يَدَا فَرَسِي فِي الأَرْضِ حَتَّى بَلَغَتَا الرُّكْبَتَيْنِ فَخَرَرْتُ عَنْهَا ، ثُمَّ زَجَرْتُهَا [٧] فَنَهَضَتْ ، فَلَمْ تَكَدْ تُخْرِجُ يَدَيْهَا فَلَمَّا اسْتَوَتْ قَائِمَةً إِذَا لأَثَرِ يَدَيْهَا عُثَانٌ [٨] سَاطِعٌ فِي السَّمَاءِ مِثْلُ الدُّخَانِ ، فَاسْتَقْسَمْتُ بِالأَزْلاَمِ فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ ، فَنَادَيْتُهُمْ بِالأَمَانِ فَوَقَفُوا ، فَرَكِبْتُ فَرَسِي حَتَّى جِئْتُهُمْ وَوَقَعَ فِي نَفْسِي حِينَ لَقِيتُ مَا لَقِيتُ مِنَ الْحَبْسِ عَنْهُمْ أَنْ سَيَظْهَرُ أَمْرُ رَسُـــولِ اللَّهِ (ﷺ) فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ جَعَلُوا فِيكَ الدِّيَةَ ، وَأَخْبَرْتُهُمْ أَخْبَارَ مَا يُرِيدُ النَّاسُ بِهِمْ ، وَعَرَضْتُ عَلَيْهِمُ الزَّادَ وَالْمَتَاعَ فَلَمْ يَرْزَآنِي [٩] ، وَلَمْ يَسْأَلاَنِي إِلاَّ أَنْ قَالَ : أَخْفِ عَنَّا ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَكْتُبَ لِي كِتَابَ أَمْنٍ ، فَأَمَرَ عَامِرَ بْنَ فُهَيْرَةَ فَكَتَبَ فِي رُقْعَةٍ مِنْ

---

[١] العثرة : الزلة والسقطة . [٢] خر : سقط ووقع .

[٣] الكنانة : إناء من جلد تحفظ فيه السهام .

[٤] الأزلام : أقداح في الجاهلية كانوا يقترعون بـــها لانفاذ أمر ما .

[٥] استقسم : طَلَبَ معرفة ما قُسِمَ وكُتِبَ له . [٦] أى غاصت فى الرمال .

[٧] الزجر : الحث على السير . [٨] العثان : دخان من غير نار .

[٩] أى ينقصانى .

أَدِيــمٍ [1] ، ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) .. [2]

وَسَمِعَ الْمُسْلِمُونَ بِالْمَدِينَةِ مَخْرَجَ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) مِنْ مَكَّةَ فَكَانُوا يَغْدُونَ [3] كُلَّ غَدَاةٍ إِلَى الْحَرَّةِ [4] فَيَنْتَظِرُونَهُ حَتَّى يَرُدَّهُمْ حَرُّ الظَّهِيرَةِ ، فَانْقَلَبُوا يَوْمًا بَعْدَ مَا أَطَالُوا انْتِظَارَهُمْ ، فَلَمَّا أَوَوْا إِلَى بُيُوتِهِمْ أَوْفَى رَجُلٌ مِنْ يَهُودَ عَلَى أُطُمٍ مِنْ آطَامِهِمْ [5] لأَمْرٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِ فَبَصُرَ بِرَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) وَأَصْحَابِهِ مُبَيَّضِينَ يَزُولُ بِهِمُ السَّرَابُ [6] ، فَلَمْ يَمْلِكِ الْيَهُودِيُّ أَنْ قَالَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : يَا مَعَاشِرَ الْعَرَبِ هَذَا جَدُّكُمِ الَّذِي تَنْتَظِرُونَ ، فَثَارَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى السِّلاَحِ فَتَلَقَّوْا رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) بِظَهْرِ الْحَرَّةِ ، فَعَدَلَ بِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ ، وَذَلِكَ يَوْمَ الاثْنَيْنِ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الأَوَّلِ ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّاسِ وَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) صَامِتًا ، فَطَفِقَ [7] مَنْ جَاءَ مِنَ الأَنْصَارِ مِمَّنْ لَمْ يَرَ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) يُحَيِّي أَبَا بَكْرٍ حَتَّى أَصَابَتِ الشَّمْسُ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) ، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى ظَلَّلَ عَلَيْهِ بِرِدَائِهِ ، فَعَرَفَ النَّاسُ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) عِنْدَ ذَلِكَ ، فَلَبِثَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً ، وَأُسِّسَ الْمَسْجِدُ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى (وهو المعروف بمسجد قباء) وَصَلَّى فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) [8] ..

---

[1] الأديم : الجلد المدبوغ .
[2] رواه أحمد فى مسند الشاميين ، والبخارى فى كتاب المناقب .
[3] الغدوة : الخروج أول النهار .
[4] موضع غربيّ المدينة المنورة .
[5] الأطم : بناء مرتفع كالحصن .
[6] يَزُولُ بِهِمُ السَّرَابُ : يتحركون ولا يستقرون على حالة .
[7] طفق : شرع وبدأ .
[8] رواه البخارى كتاب المناقب .

هذا .. وقد قام على بن أبى طالب بِرَدِّ الودائع بعد خروج النبى (ﷺ) من مكة كما أمَرَه .. ثم خرج مهاجرًا إلى المدينة يمشى ليلاً ويَكْمُن نَهارًا حتى وصل بعد أربع عشرة ليلة ، وقد تورمت قدماه وسال منهما الدم ، فيستقبله رسول الله (ﷺ) ، ويحتضنه ، ويُقبِّله ، وينظر إلى قدميه فتفيض الدموع من عينيه ، ثم يمسح على قدمى ابن أبى طالب ويَصُبُّ عليهما ماءً فَشُفِيتَا ببركة مسح النبى (ﷺ) ..

فلما قرر النبى (ﷺ) مغادرة قُبَاء [1] رَكِبَ ناقته القصواء [2] ، وسَارَ قاصدًا المدينة التى خرجت عن بَكْرَةِ أبيها تستقبله ، والكُلُّ فى شوق عارِم إلى رُؤْيته والتطلُّع إليـــه .. فقد آمنوا به وصدَّقوه ، دون أن يروه أو يسمعوه .. وقد طال انتظارهم لهجرته وانضمامه إليهم ، والعيش بين ظهرانيهم .. وها هو أخيرًا قادم إليهم بعد أن أَذِنَ الله له ، وكُلٌّ منهم يحدِّث نَفْسَه ويمنيها بشرف استضافته ، والقيام على خدمته ..

ويدخل رسول الله (ﷺ) على ناقته تُهَادَى [3] به ، وقد ترك زمامها لِتَسير دون توجيه .. وينتهز الناس تلك الفُرْصة ، فيأخذون بخطام الناقة قائلين : هَلُمَّ إِلَى الْعَدَدِ ، والعُدَّةِ ، والْمَنَعَة يَا رَسُولَ الله .. فيقول : خَلُّوا سَبِيلَهَا ، فَإِنَّهَا مَأْمُورَة .. فيسارعون بترك زمامها طائعين ، ويَمُرُّ الرَّكْب المبارك على قبيلة بَنِى

---

[1] قباء : ضاحية من ضواحى المدينة .
[2] القصواء : اسم أطلقه النبى (ﷺ) على ناقته .
[3] تمشى فى تمايل وسكون .

سَالِم بن عَوْف ، ثم بنى بياضة ، ثم بنى سَاعِدَة ، وتتكرر المحاولات .. ثم يمرُّ على بنى عَدِىٍّ بن النَّجَّار الذين يحدوهم الأمل فى ذلك الشرف العظيم ، فهم أخواله وأحقُّ الناس به .. فيقولون : هَلُمَّ إِلَى أَخْوَالِكَ يَا رَسُولَ الله .. فيقول (ﷺ) : خَلُّوا سَبِيلَهَا ، فَإِنَّهَا مَأْمُورَة .. ويصل الرَّكْب إلى ديار بَنِى مَالِكِ بن النَّجَّار حيث تبرك الناقة من تلقاء نَفْسها ، ثم تقوم وتدور دورة ، ثم تعود إلى مكانـــها الأوَّل فتبرك فيه وتستقر .. وهنا يندفع رجل من بين الجموع فيأخذ متاع رسول الله (ﷺ) ، ويحمل الرَّحْل من على الناقة ، ويدخل به بيته [1] .. ذلك الرجل هو : خَالِدُ بْنُ زَيْدِ بْنُ كُلَيْب ، المعروف بأبى أَيُّوب الأَنْصَارِىّ ، الذى كان من حسن طالعه أن تَبْرُك الناقة قريبًا من بيته .. ويحيط أفراد بنى مالك ابن النجار برسول الله (ﷺ) فَرِحين مُسْتبشرين بنـــزوله عليهم ، والكُلُّ يدعوه إلى داره فيقول (ﷺ) : الْمَرْءُ مَعَ رَحْلِه [2] .. وهكذا فاز أبو أيوب الأنصارى باستضافة رسول الله (ﷺ) فى بيته ريثما يُبنى المسجد وحجرات أمهات المؤمنين ..

وكان مَبْرَكُ الناقة فى مرْبَد [3] للتَّمْرِ لسُهَيْلٍ وَسَهْلٍ - غُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي حَجْرِ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ - فَقَالَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) حِينَ بَرَكَتْ بِه رَاحِلَتُهُ : هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ الْمَنْزِلُ ، ثُمَّ دَعَا رَسُولُ اللَّه (ﷺ) الْغُلاَمَيْنِ فَسَاوَمَهُمَا بِالْمِرْبَدِ لِيَتَّخِذَهُ مَسْجِدًا ، فَقَالاَ : لاَ بَلْ نَهَبُهُ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَأَبَى رَسُولُ

---

(1) سيرة ابن هشام .
(2) رحله : متاعه .
(3) المربد : موضع يجمع فيه التمر ليجف .

اللَّه أَنْ يَقْبَلَهُ منْهُمَا هبَةً حَتَّى ابْتَاعَهُ منْهُمَا ، ثُمَّ بَنَاهُ مَسْجدًا .. وَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) يَنْقُلُ مَعَهُمُ اللَّبِنَ فِي بُنْيَانِه وَيَقُولُ وَهُوَ يَنْقُلُ اللَّبِنَ :

هَــذَا الْحِمَــالُ لاَ حِمَــالُ خَيْبَــرْ .. هَــذَا أَبَــرُّ رَبَّنَــا وَأَطْهَــرْ .. وَيَقُولُ :

اللَّهُمَّ إِنَّ الأَجْــرَ أَجْــرُ الآخِــرَة .. فَارْحَمِ الأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَة ..[١]

هذا .. وقد بُنِيَتْ ثلاثُ حجرات لأمهات المؤمنين : السيدة عَائِشَة ، والسيدة سَوْدَة بنت زَمْعَة ، والسيدة أم حَبِيبَة بنت أبى سُفْيَان (رضــى الله عنهن) اللاتى تزوجهن النبى (ﷺ) بعد وفــاة السيدة خديجة (رضــى الله عنها) ، إذ جَاءَتْ خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيمٍ - امْرَأَةُ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُون - قَالَــتْ : يَا رَسُولَ اللَّه ، أَلاَ تَزَوَّجُ ؟!! .. قَالَ : مَنْ ؟ .. قَالَتْ : إِنْ شِئْتَ بِكْــرًا ، وَإِنْ شِئْتَ ثَيِّبًا .. قَالَ : فَمَنِ الْبِكْرُ ؟ .. قَالَت : ابْنَةُ أَحَبِّ خَلْقِ اللَّــه عَــزَّ وَجَلَّ إِلَيْكَ ، عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ .. قَالَ : وَمَنِ الثَّيِّبُ ؟ .. قَالَتْ : سَــوْدَةُ ابْنَةُ زَمْعَةَ ، قَدْ آمَنَتْ بِكَ ، وَاتَّبَعَتْكَ عَلَى مَــا تَقُــولُ .. قَــالَ : فَــاذْهَبِي فَاذْكُرِيهِمَا عَلَيَّ .. [٢]

فأما السيدة عائشة (رضى الله عنها) فقد عَرَض سَيِّدُنا جِبْرِيلُ على النبى (ﷺ) صورتَها على حَرِيرٍ أَخْضَر ، وأراها له فى منامه ، وقال : يا محمد ، هى

[١] رواه البخارى كتاب المناقب . [٢] رواه أحمد فى باقى مسند الأنصار .

زَوْجَتُكَ فِى الدُّنْيَا والآخِرَة [١] ، فخطبها (ﷺ) من أبيها ..

وأمـــا السيدة سَوْدَة بِنْت زَمْعَة (رضى الله عنها) فقد ذهبت إليها السيدة خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيمٍ وقالت لها : مَاذَا أَدْخَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَـــلَّ عَلَيْك مِـــنَ الْخَيْـــرِ وَالْبَرَكَة ؟!! .. قَالَتْ : مَا ذَاكَ .. قَالَتْ : أَرْسَلَنِي رَسُـــولُ اللَّه (ﷺ) أَخْطُبُـــك عَلَيْه .. قَالَتْ : وَدِدْتُ ، ادْخُلِي إِلَى أَبِي فَاذْكُرِي ذَاكَ لَهُ .. فقَالَ أبوها : كُفْءٌ ، كَرِيمٌ ، مَاذَا تَقُولُ صَاحِبَتُكِ ؟ .. قَالَتْ : تُحِبُّ ذَاكَ .. فَزَوَّجَهَا إِيَّاهُ .. [٢]

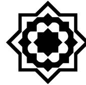
وأما السيدة أم حبيبة بنت أبى سفيان (رضى الله عنها) فقد مات زوجها وهما بالحبشة ، فأرسل الرسول (ﷺ) إلى النجاشى طالبًا منه أن يزوجه إياها .. فدعا النجاشى المهاجرين قائلا لهم : إن رسول الله (ﷺ) كَتَبَ إِلَيَّ أَنْ أُزَوِّجَه أُمَّ حَبِيبَة بنت أبى سُفْيَان ، فَأَجَبْتُ إلى ما دَعَا إليه رَسُولُ الله (ﷺ) ، وقَـــدْ أَصْدَقْتُهَا أَرْبَعمِائَة دِينَار .. [٣]

ولما استقر رسول الله (ﷺ) فى بيت أبى أيوب الأنصارى وسمع به عَبْدُ اللَّه ابْنُ سَلاَمٍ – وكان من أحبار اليهود وعلمائهم – جاءه فقال : إِنِّي سَائِلُكَ عَـــنْ ثَلاَث لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلاَّ نَبِيٌّ .. قَالَ : مَا أَوَّلُ أَشْرَاط السَّاعَة ؟ [٤] وَمَا أَوَّلُ طَعَـــامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ ؟ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ الْوَلَدُ إِلَى أَبِيهِ ، وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ إِلَى

---

[١] رواه مسلم والترمذى بنحوه عن عائشة (رضى الله عنها) .
[٢] رواه أحمد فى باقى مسند الأنصار .
[٣] الاستيعاب لابن عبد البر .
[٤] أشراط الساعة : العلامات والدلائل على قرب يوم القيامة .

أَخْوَاله ؟ .. فَقَالَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) : خَبَّرَنِي بِهِنَّ آنفًا جِبْرِيلُ .. قَالَ عَبْدُ اللَّه : ذَاكَ عَدُوُّ الْيَهُود مِنَ الْمَلاَئكَة .. فَقَالَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) : أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاط السَّاعَة فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِق إِلَى الْمَغْرِب ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّة فَزِيَادَةُ كَبِد حُوت ، وَأَمَّا الشَّبَهُ فِي الْوَلَد : فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَشِيَ الْمَرْأَةَ فَسَبَقَهَا مَاؤُهُ كَانَ الشَّبَهُ لَهُ ، وَإِذَا سَبَقَ مَاؤُهَا كَانَ الشَّبَهُ لَهَا .. قَالَ : أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّه .. ثُمَّ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّه إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهُتٌ إِنْ عَلِمُوا بِإِسْلاَمِي قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ بَهَتُونِي عِنْدَكَ .. فَجَاءَت الْيَهُودُ ، وَدَخَلَ عَبْدُ اللَّه الْبَيْتَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) : أَيُّ رَجُلٍ فِيكُمْ عَبْدُ اللَّه بْنُ سَلاَمٍ ؟ .. قَالُوا : أَعْلَمُنَا وَابْنُ أَعْلَمنَا ، وَأَخْيَرُنَا وَابْنُ أَخْيَرِنَا .. فَقَالَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) : أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللَّه ؟ .. قَالُوا : أَعَاذَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ .. فَخَرَجَ عَبْدُ اللَّه إِلَيْهِمْ ، فَقَالَ : أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ .. فَقَالُوا : شَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا ، وَوَقَعُوا فِيه .. [1]



(1) رواه البخارى كتاب أحاديث الأنبياء .

استقر النبى (ﷺ) بالمدينة بعد أن مكث بمكة ثلاث عشرة سنة بعد البعثة لَقِىَ فيها من العنت والأذى ما لَقِىَ هو ومَنْ معه من المسلمين ، ولم يكن أمامهم إلا الصبر .. وكان بالمدينة يومئذ المسلمون من مهاجرين وأنصار ، والمشركون من سائر الأَوْسِ والْخَزْرَج ، وكان بها اليهود من بنى قَيْنُقَاع فى داخلها ، وبنو قُرَيْظَة فى (فَدَك) ، وبنو النَّضِير على مقربة منها ، بالإضافة إلى يهود خَيْبَر فى شمالها .. فآخَى الرسول (ﷺ) بين المهاجرين والأنصار إخاءً جعل له حكم إخاء الدم والنسب .. وقد أظهر الأنصار من الصدق فى هذه الأخوة والإيثار ما جعلهم يشاطرون المهاجرين أموالهم وديارهم ، أولئك الذين تركوا وراءهم بمكة ما يملكون فيها من مال ومتاع .. وقد عمل بعض مَنْ كانت له دراية بشئون التجارة من المهاجرين فى التجارة ، وشارك آخرون المزارعين من الأنصار فى أراضيهم بالمزارعة ، وكان بعض المهاجرين فى فقر شديد ، فلزموا المسجد ، وخصص لهم النبى (ﷺ) به مكانًا مَسْقُوفًا يبيتون فيه ويأوون إليه ، وهم أهل الصُّفَّة الذين عكفوا على القرآن يحفظونه ويتلونه آناء الليل وأطراف النهار .. وكان لسيرة النبى (ﷺ) ، وعظيم تواضعه ، وجميل عطفه ، وحسن وفائه ، وفيض بِرِّه بالفقير والبائس والمحروم أعظم الأثر فى سلوك المسلمين الذين أحبُّوه واقتدوا به فى سلوكه فَسَادَ بينهم الحب والوئام والإيثار ، مما ساعد فى انتشار الإسلام ..

ولضمان الأمن والسلام فى ربوع المدينة كتب النبى (ﷺ) كتابًا واعد فيه اليهود وعاهدهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، وأن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصح والنصيحة ، والبِرَّ دون الإثم ، وأن من خرج آمِن ، ومن قعد آمِن .. إلى غير ذلك من أمور تَكْفُل حرية العقيدة ، وحرية الرأى ، وحرمة الحياة ، وحرمة المال ، وتحريم الجريمة ..

وبذلك اطمأن كُلُّ مَنْ بالمدينة على نفسِه ، وعِرْضِه ، وحرية اعتقاده ، وأصبح المسلمون يقيمون فرائض دينهم فُرَادَى ومُجتمعين ، لا يخافون أذى ، ولا يَخْشَوْن فتنة ، وكانوا يجتمعون للصلاة فى مواقيتها دون دعوة ، فبدأ التفكير فى كيفية الدعوة إلى الصلاة ، ويروى لنا عبد الله بن زيد فيقول : لَمَّا أَمَرَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) بالنَّاقُوسِ لِيُضْرَبَ به للنَّاسِ فِي الْجَمْعِ لِلصَّلاَةِ [1] طَافَ بِي وَأَنَا نَائِمٌ رَجُلٌ يَحْمِلُ نَاقُوسًا فِي يَدِهِ فَقُلْتُ لَهُ : يَا عَبْدَ اللَّه أَتَبِيعُ النَّاقُوسَ ؟ قـــال : مَاذَا تَصْنَعُ بِهِ ؟ قال : فقلت : نَدْعُو بِهِ إِلَى الصَّلاَةِ .. قال : أَفَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ ؟ قال : فَقُلْتُ لَهُ بَلَى .. قال : تقول : " اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ ، اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ ، أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه ، حَيَّ عَلَى الصَّلاَةِ ، حَيَّ عَلَى الصَّلاَةِ ، حَيَّ عَلَى الْفَلاَحِ ، حَيَّ عَلَى الْفَلاَحِ ، اللَّهُ أَكْبَرُ

[1] وفي رواية : وهو كاره لموافقته للنصارى .

اللَّهُ أَكْبَرُ ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ " .. ثُمَّ اسْتَأْخَرَ غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ قَالَ : تَقُولُ إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلاَةُ : " اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ ، أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، حَيَّ عَلَى الصَّلاَةِ ، حَيَّ عَلَى الْفَلاَحِ ، قَدْ قَامَتِ الصَّلاَةُ ، قَدْ قَامَتِ الصَّلاَةُ ، اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ " .. فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا رَأَيْتُ ، فقال : إِنَّهَا لَرُؤْيَا حَقٍّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، فَقُمْ مَعَ بِلاَلٍ فَأَلْقِ عَلَيْهِ مَا رَأَيْتَ فَلْيُؤَذِّنْ بِهِ فَإِنَّهُ أَنْدَى صَوْتًا مِنْكَ .. قال : فَقُمْتُ مَعَ بِلاَلٍ فَجَعَلْتُ أُلْقِيهِ عَلَيْهِ وَيُؤَذِّنُ بِهِ .. قال : فَسَمِعَ بِذَلِكَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَهُوَ فِي بَيْتِهِ ، فَخَرَجَ يَجُرُّ رِدَاءَهُ يَقُولُ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَقَدْ رَأَيْتُ مِثْلَ الَّذِي أُرِيَ .. قال : فقال النبي (ﷺ) : فَلِلَّهِ الْحَمْدُ .. [1]

وبدأت آيات القرآن تنـــزل على النبى (ﷺ) تبين الحلال والحرام ، وقامت الحدود ، وفُرِض الصيام ، وفُرِضت الزكاة ، وكان ذلك فى السنة الثانية من الهجرة ..

وبدا وكأن الدهر قد صَفَا ، واستقام الحال ، وأمن المسلمون على دينهم ودنياهم ، وها هم يحصدون ثمرة الصبر ، ويستمتعون بحرية العقيدة ، وبأن العبودية لله وحده ، وأن الناس جميعا سواسية ، لا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى .. وها هم يرون نبى الله (ﷺ) يأبى أن يظهر فى

---

[1] رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن خزيمة والترمذي .

أىٍّ من مظاهر الْمُلك أو السُّلطان ، بل ينهَى أصحابه عن القيام له كما تقوم الأعاجم لملوكهم ، ويجلس حيث ينتهى به المجلس بين أصحابه ، ولا يكاد الغريب أن يميزه من بينهم ، ويقول لأصحابه : لاَ تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ ، فَقُولُوا : عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ [1] .. وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ، ويداعب أطفالهم ويحملهم ، ويجيب دعوة الحر والعبد والأَمَة والمسكين ، ويعود المرضى فى أقصى المدينة ، ويبدأ من لَقِيَه بالسلام ، وإذا صافح أحدًا لم يَنْزِع يده حتى يَنْزِع الآخر يده .. وكذلك كان فى مهْنَة أهله ، يرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويعلف فرسه ، ويحلب شاته ، ويخدم نفسه .. وبلغ من وفائه أنه ما ذُكِرَت السيدة خديجة (رضى الله عنها) إلا أثْنَى عليها بأجمل وأطيب الثناء ، وكان يكرم صُوَيْحِبَاتِها ويقول : إن حسن العهد من الإيمان ، ومن علامات رقة قلبه أنه كان يسمح لأحفاده أن يداعبوه وهو فى صلاته ، بل قد صلى بالمسلمين يومًا وهو يحمل ابنة ابنته زينب على عاتقه ، فإذا سجد وضعها ، وإذا قام حملها ، ولم تقتصر رقة قلبه وبِرُّهُ ورحمته على الإنسان بل تعدت إلى الحيوان ، فكان يأمر الذابح أن يُحِدَّ شَفْرته ويُرِيح ذبيحته ، وينهى عن تحميل البهائم فوق طاقتها .. وكان إذا سُئِلَ شيئًا أعطاه حتى قيل عنه : إنه يعطى عطاء مَنْ لا يخشى الفقر .. وكانت حياته زهدًا وتقشفًا ، فلم يشبع من خبز الشعير يومين متتاليين ، وكان فِرَاشه من أدَمٍ [2] حَشْوُه لِيف ، ولقد عانى الجوع مرارًا حتى إنه كان يربط على

---

[1] رواه البخارى ، كتاب أحاديث الأنبياء .. والإطراء : مجاوزة الحد فى المدح . [2] الأدم : الجلد .

بطنه حجرًا من شدة الجوع ، و لم يمنعه زهده فى متاع الدنيا من أن ينال فى بعض الأحايين من طيب الطعام كاللحم والعسل .. وكان زهده فى اللباس كزهده فى الطعام ، فقد أهدته امرأة ثوبًا حسنًا فلبسه فرآه أحد أصحابه فأعجبه ، فدخل حجرته فخلعه ثم أعطاه إياه .. بكل ذلك ضرب (ﷺ) المثل الأعلى لأصحابه وللمؤمنين به بأن لا يكون لشىء مما فى الحياة سلطان على المؤمن ، بل يكون السلطان للمؤمن على كل شىء ، فلا يَسْتَعْبِده سلطانٌ ، أو جَاهٌ ، أو مالٌ ، أو أىُّ شىء يجعل لغير الله عليه تَسَلُّطًا أو سيادة ..

كان لكل هذه الأمور أَثَرٌ كَبيرٌ فى انتشار الإسلام ، مما أغاظ اليهود فبدأوا يفكرون كيف يكيدون للإسلام وللمسلمين ، فحاولوا الوقيعة بين الأوس والخزرج الذين أَلَّفَ الإسلام بين قلوبهم بعد عداوة شديدة وحروب ، فسلطوا أحدَهم أن ينتهز فرصة اجتماعهم فيَذْكُر يوم (بُعَاث) [1]، فما كان من الأوس والخزرج إلا أن تذكروا تلك الواقعة فتفاخروا ، واختصموا ، وتصايحوا ، وكادوا يقتتلون لولا أن خرج إليهم رسول الله (ﷺ) فذَكَّرَهم بالله ، وكيف أَلَّفَ بين قلوبهم ، وظل يُحَدِّثهم حتى بَكَوْا ، وعانق بعضهم بعضا ، واستغفروا الله .. وتم القضاء على الفتنة فى مهدها ، ولكن اليهود لم يستسلموا ..

---

[1] يوم بعاث : هو ذلك اليوم الذى اقتتل فيه الأوس والخزرج قتالاً شديدًا انتصر فيه الأوس ، مما دعا الخزرج لإرسال وفد إلى مكة لمحالفة قريش ، فلقيهم النبى (ﷺ) وهداهم إلى الإسلام .

لم يطق اليهود صبرًا على ازدياد شوكة المسلمين بالمدينة فتحالفوا مع المشركين من الأوس والخزرج .. واتفقوا على : أن يظهر بعضهم الإسلام ويختلطوا بالمسلمين ليسمعوا أحاديثهم ، ويعلن آخرون إسلامهم أول النهار ويكفروا آخره ليلبسوا على المسلمين دينهم .. فاجتمع يومًا فى المسجد منهم أُناسٌ يتحدثون خافضين أصواتهم ، قد لصق بعضهم ببعض ، فأخرجهم النبى (ﷺ) إخراجًا عنيفًا .. وكان أحبار اليهود يسألون رسول الله (ﷺ) ، ويتعنتون فى أسئلتهم ، ويأتون باللبس ليلبسوا الحق بالباطل ، فكان القرآن ينزل فيما يسألون عنه ويفضح سرائرهم .. وهم الذين أوعزوا إلى المشركين بمكة من قبل أن يسألوا النبى (ﷺ) عن ثلاثة أشياء فإن أجابهم فيها فهو نبىٌّ مُرْسَل ، وإن لم يفعل فالرجل مُتَقَوِّل ، فقالوا : سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم ؟ فإنه قد كان لهم حديث عجب .. وسلوه عن رجل طَوَّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، ما كان نَبَؤُه ؟ .. وسلوه عن الروح ما هى ؟ .. فلما سأله مشركو مكة نزل القرآن يحكى قصة أهل الكهف ، وقصة ذى القرنين ، وأن الروح من أمر الله .. ومع ذلك لم يؤمن مشركو مكة ، ولا آمن يهود المدينة الذين واصلوا استفزازَهم وتَعَنُّتَهم فى أسئلتهم للنبى (ﷺ) بعد أن أصبح بين ظهرانيهم ، وظهر أمره عليهم .. وكان من ضمن أسئلتهم أن سألوه عما حرَّم

إسرائيلُ على نفسه ؟ وكيف يَزْعُم أن سُلَيْمـان كان نبيًّا وهو لم يكن إلا ساحرًا ؟ وقالوا : إن جبريل الذى يزعم أنه ينـزل عليه بالوحى عدو لهم يأتى بالشدة وسفك الدماء ، ولولا ذلك لاتَّبَعوه .. إلى غير ذلك من الإسفاف والجدل العقيم ، ومع ذلك كانت الآيات تنـزل مجيبة عن أسئلتهم فاضحة لأمرهم .. ولما كان الرسول (ﷺ) يدعوهم إلى الإسلام كانوا يقولون : نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، فهم كانوا أعلم ، وخيرًا منَّا .. وحين جاء وفد نصارى نَجْرَان إلى النبى (ﷺ) دعاهم إلى الإسلام ونـهاهم عن قولهم : إن المسيح ابن مريم ابن الله ، وأخبرهم أنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم ورُوحٌ منه ، فأصروا على ما هم عليه ، فنـزل قول الله تعالى : (فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ) [1] ، فدعاهم النبى (ﷺ) إلى الْمُبَاهَلَة [2] فأَبَوْا وقال بعضهم لبعض : والله إنكم لتعلمون أنه رسول الله حقًّا ، ولو باهلتموه ما بقى أحد منكم على وجه الأرض ..

هذا .. وحين علم اليهود باجتماع وفد نصارى نَجْرَان برسول الله (ﷺ) جاءوا وتنازعوا معهم وقالوا : ليست النصارى على شىء ، وقالت النصارى :

---

[1] سورة آل عمران آية ٦١ .

[2] المباهلة : الملاعنة والدعاء على الظالم .

ليست اليهود على شئ .. وكُلٌّ منهم يَنْسِبُ سيدنا إبراهيم إلى دينه ، فتقول النصارى : إنه كان نصرانيًّا ، وتقول اليهود : إنه كان يهوديًّا ، وتنــزل الآيات بالقول الفصل فى هذه الأمور ، وما يزيدهم نزول الآيات بالحق إلا نُفُورًا ، فنــزلت آيات تنهى المسلمين عن مباطنة اليهود وتحذرهم منهم .. بل حذَّرت الرسول (ﷺ) أيضا من محاولتهم أن يفتنوه عن بعض ما أنزل الله إليه ، إذ جاءوه ووعدوه إن هو حكم لهم على خصومهم أن يؤمنوا به ويتّبعوه ..

ووصل بـــهم الأمر إلى إنكار نبوة سيدنا عيسى ابن مريم (عليه السلام) وادعاء أن عزيرًا هو ابن الله .. وازداد تطاولهم إلى أن وصل إلى التهجم على ذات الله العَلِيَّة ، فقالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء لأنه يسألنا أموالنا !! .. وقالوا : كيف ينهانا عن الرِّبَا ، وهو يفعله ، إذ يعدكم أن الحسنة بعشر أمثالها !! وقالوا : هذا الله خلق الخلق ، فمَنْ خلق الله ؟!! ..

هذا .. وقد جاء اليهود إلى النبى (ﷺ) يومًا فقالوا له : إن جميع الرسل كانوا يذهبون إلى بيت المقدس ويقيمون به ، فإن كنت رسولاً حقًّا فعليك أن تذهب إلى هناك ليكون مقامك به .. يريدون بذلك أن يخرجوه من المدينة كما أخرجته قريش من مكة .. وفى هذه الأثناء كان النبى (ﷺ) يتمنى أن تكون قبلته فى الصلاة هى قبلة آبائه إبراهيم وإسماعيل ، فنــزل القرآن بالأمر بتحويل القبلة إلى الكعبة ، وكان ذلك على رأس سبعة عشر شهرًا من الهجرة .. وانتهز اليهود ذلك لتكون فرصة لهم للطعن عليه فى تحويل قبلته ، وأوحى الله إليه بما سيقوله

السفهاء منهم من قبل أن يقولوه ، ومع ذلك قالوه دون تدبر فى أن إخبار الله لرسوله (ﷺ) بقولهم يُعْتبر معجزة فى حد ذاته .. ولقد تكرر ذلك الأمر مرارًا دون أن يُقِرُّوا بنبوة ذلك الذى يخبرهم دومًا بما سيقولونه !! ..

وهكذا اليهود .. كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ .. وقد نَزَلَ الكثيرُ من القرآن يُخْبِرُ عن تَعَنُّتِهم مع أنبيائهم ورسلهم ، وكثرة جَدَلهم واخْتلافهم عليهم .. وذُكِرَ طرفٌ من ذلك فى نحو مائة آية من سورة البقرة ، وكذلك ما نزَلَ من سورة النساء فى شأنـــهم .. ولا تكاد تخلو سورة من سور القرآن من ذِكْرِ مَسَاوِئِهم ، ويكفى أن نذكر قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ : (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾)[1] ..

(1) سورة البقرة الآيات من ٨٧ إلى ٨٩ .

المسلمون وأهل مكة

لم ينقطع المهاجرون عن التفكير فى مكة – هذا البلد الحبيب – موطنهم ، ومرتع صباهم ، فهناك ديارهم وأموالهم التى أرغموا على تركها ، وكذلك مازال هناك أهل لهم وقرابة تَهوى إليهم أفئدتُهم ، وتشفق عليهم نفوسهم من بقائهم على الشرك .. كل ذلك بالإضافة إلى ما أسبغه الإسلام على مكة من شرف ، وعلى البيت العتيق من جلال ، خاصة وقد أصبح قبلتهم فى الصلاة .. ولكن كيف السبيل إلى العودة ومكة فى قبضة المشركين وهم لم يؤمروا بقتال ؟!! أيقفون موقف الاستسلام أو الاستخذاء وقد صبروا على الأذى فيها ثلاثة عشر عاما ؟ كيف والإسلام لا يُقِرُّ الاستكانة ، ولا اليأس ، ولا الضعف ؟ وإذا كان ينهى عن الظلم والعدوان فإنه يفرض الدفاع عن النفس ، والعِرْض ، والمال ، والعقيدة ، والكرامة .. لذلك كان التفكير فى الترصد لقوافل قريش واعتراضها والاستيلاء عليها لتعويضهم عما فقدوه من ضِيَاع [1] ودور وأموال .. فخرج حمزة ابن عبد المطلب فى ثلاثين راكبًا من المهاجرين إلى ساحل البحر حيث لَقِىَ أبا جهل فى ثلاثمائة راكب من أهل مكة ، ولكن لم يحدث قتال ، وخرج عبيدة بن الحارث فى ستين راكبًا من المهاجرين فساروا إلى ماء بوادى رَابِغ وهناك التقوا بأبى سفيان فى مائتين من أهل مكة ، فانسحبوا دون قتال إلا ما رُوِىَ من أن سعد بن

---

(1) الضياع : جمع ضيعة ، وهى العقار كالأرض والدار .

أبى وقاص رمَى يومئذ بسهم ، فكان أول سهم رُمِىَ به فى الإسلام ..

هذا .. وقد خرج النبى (ﷺ) بنفسه مرة إلى (الأَبْوَاء) ، ومرة إلى (بُواط) ، ومرة إلى (العُشَيْرَة) ، ومرة إلى (سَفْوان) من ناحية بدر [1] ، وكسب النبى (ﷺ) من هذه الرحلات أن وادع وحالف القبائل التى لقيها فى تلك الأماكن كبنى ضُمْرَة ، وبنى مُدْلَج .. وقد أطلق كُتَّاب السيرة على هذه الرحلات اسم سرايا أو غزوات ..

وفى شهر رجب من السنة الثانية من الهجـــرة بعث النبى (ﷺ) عبد الله بن جحش ومعه جماعة من المهاجرين وأمره أن يتجه فى الطريق إلى (نَخْلَة) [2] ، وأعطاه كتابًا ، وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد يومين من مسيره فيمضى لما أمره ولا يَسْتَكْرِه أحدًا من أصحابه ، ولما فتح عبد الله بن جحش الكتاب إذا فيه : (إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنـــزل نخلة فَتَرَصَّد بـــها قريشًا ، وتَعَلَّم لنا من أخبارهم) .. فأَعْلَمَ مَنْ معه بالأمر ، وبأنه لا يَسْتَكْرِهُ أحدًا ، فمضوا معه جميعًا إلا سعد بن أبى وقاص ، وعتبة بن غزوان اللذين ذهبا يطلبان بعيرًا لهما ضَلَّ فأسرتـــهما قريش ، وكان ذلك آخر شهر رجب وهو شهر حرام .. ومرت بـــهم قافلة لقريش فتذكروا ما فعلت بـــهم قريش ، وهاجموا القافلة بعد تردد غير يسير ، فقتلوا رجلاً وأسروا رجلين ، واستولوا على العير [3] ، وقَدِمُوا المدينة ، فلما رآهم النبى (ﷺ) قال : ما أمرتكم بقتال ،

---

(1) وهذه التى يطلق عليها غزوة بدر الصغرى . (2) موضع بين مكة والطائف .
(3) العير : الجمال المحملة .

وعاتبهم المسلمون ، وعَنَّفُوهم على فعلهم .. وانتهزت قريش الفرصة وأشاعت أن محمدًا وأصحابه استحلُّوا الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا الأموال ، وأسَرُوا الرجال .. وأجاب المسلمون بأن ذلك إنما كان فى شهر شعبان ، فقد انتهى رجب قبل أن يفعلوا ما فعلوه .. فنـــزل قول الله تعالى : (يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ) [1] ليبين أن القتال فى الشهر الحرام وإن كان من الكبائر ، فإن هناك ما هو أكبر ، فالصَدُّ عن سبيل الله والكفر به ، والصَدُّ عن المسجد الحرام وإخراج أهله منه ، وفتنة الرجل عن دينه أكبر عند الله من القتال فى الشهر الحرام .. فَسُرِّىَ عن المسلمين بنـــزول القرآن ، وأرسلت قريش تفتدى الأسيرين ، فشرط النبى (ﷺ) أن يُطْلقوا سراح سعد بن أبى وقـــاص ، وعتبة بن غزوان مقابل إطلاق سراح أسيرى قريش .. وقد ترك ذلك أثرًا لدى قريش بأن المسلمين أصبحوا قوة لا يُستَهان بـــها ، وأنـــهم أصبحوا يُشَكِّلون خطرًا يُهَدِّد طريق قوافلهم ..

[1] سورة البقرة آية ٢١٧ .

غزوة بدر الكبرى

لم يكن المهاجرون ليرضوا أن يعيشوا حياتـــهم عَالةً على إخوانـــهم من الأنصار ، وإن كان الأنصار قد أشركوهم فى ديارهم ، وأموالهم ، بل وآثروهم على أنفسهم ، وكانوا سعداء بذلك .. فكان لابد من إيجاد وسيلة يستردون بـــها أموالهم وثرواتـــهم التى أرغموا على تركها بمكة ، ولم يكن هناك إلا طريق واحد ، ألا وهو الاستيلاء على قوافل تجارة قريش التى تَمُرُّ قريبًا من المدينة فى طريقها إلى الشام ومنها .. كما أن قتال الذين يفتنون الناس عن دينهم ويصدون عن سبيل الله قد شُرِع ، إثر سرية عبد الله بن جحش التى استولى المسلمون فيها على عير قريش ، مما كان له أثر كبير فى اتخاذ قرار اعتراض قافلة أبى سفيان أثناء عودتـــها من الشام .. تلك القافلة التى فاتت المسلمين فى غزوة بدر الصغرى أثناء ذهابـــها إلى الشام .. لذلك حين اقترب موعد عودة القافلة أرسل النبى (ﷺ) طَلْحَة بن عُبَيْد الله ، وسعيد بن زَيْد يتحسسون أخبارها ، فسارا حتى نزلا (الحـــوراء) ، ومرت بـــهما عير قريش ، فأسرعا بالعودة إلى المدينة لإخبار النبى (ﷺ) ، إلا أنه (ﷺ) لم ينتظر عودتـــهما ، فقد ترامت إليه أخبار القافلة ، وأنـــها عظيمة قد اشترك فيها جميع أشراف مكة بأموال كثيرة ، وقد خشى أن تفوته كما فاتته فى ذهابـــها إلى الشام ، فندب الناس للخروج إليها ، فاستجاب البعض ، وتخلف البعض ..

وأما أبو سفيان فقد نَمَى إليه خروج النبى (ﷺ) لاعتراضه فغَيَّر طريقه ، واتجه إلى ساحل البحر ، وأسرع فى سيره مبتعدًا عن الطريق المعتاد ، وأرسل رجلاً يستنفر رجال قريش لإنقاذ أموالهم ، فوصل إليها ، وقد شق قميصه ، وأخذ يصرخ فى الناس قائلاً : اللَّطِيمَة .. اللَّطِيمَة .. أموالكم مع أبى سفيان قد عَرَضَ لها محمد فى أصحابه .. الغَوْث .. الغَوْث .. فأسرع أبو جهل يستنفر قريشًا ، التى لم تكن فى حاجة إلى استنفار ، إذ لم يبق منهم أحَدٌ إلا وله مال فى تلك القافلة ، فتَجَهَّزُوا للخروج بأسلحتهم وعَتَادهم ، فلم يبق بمكة مُتَخَلِّف قادر على القتال ، إلا أبا لهب الذى أرسل رجلاً مكانه .. وكان عدد المشركين الذين خرجوا بين التسعمائة والألف .. أما مَنْ خرج مع النبى (ﷺ) فقد كانوا خمسة وثلاثمائة رجل ، منهم ثلاثة وثمانون من المهاجرين ، وواحد وستون من الأوس ، والباقون من الخزرج ، وكان معهم سبعون بعيرًا فقط يَتَعاقَبُون عليها [1] ، وكان ذلك لثمانٍ خَلَوْنَ من شهر رمضان فى السنة الثانية من الهجرة ..

ولَمَّا عَلِم النبى (ﷺ) بخروج قريش استشار الناس ، فتكلم أبو بكر ، وتكلم عمر ، ثم قام المِقْدَاد بن عمرو فقال : يا رسول الله .. امْضِ لِمَا أراك الله فنحن معك ، والله لاَ نَقُولُ لكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى : اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ

---

(1) يتعاقبون عليها : يتناوبون ركوبها .

فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ، وَلَكِنِ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ [١] .. وسكت الناس ، فقال رسول الله (ﷺ) : أَشِيرُوا عَلَيَّ أيها الناس – يريد الأنصار – فقال سعد بن معاذ : لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : أجل ، قال سعد : لقد آمنا بك وصدَّقْناك ، وشهدنا أن ما جِئْتَ به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامْضِ لِمَا أردتَ فنحن معك ، فوالذى بعثك لو استعرضت بنا هذا البحر فَخُضْتَه لَخُضْنَاه معك ، ما تخلَّف مِنَّا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا ، إنَّا لَصُبُرٌ فى الحرب صُدُقٌ فى اللقاء ، لعل الله يريك منَّا ما تَقَرُّ به عَيْنُك ، فَسِرْ بنا على بركة الله .. فأشرق وجه النبى (ﷺ) وقال : سيروا وأبشروا ، فإن الله وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم [٢] .. وساروا جميعًا حتى وصلوا قريبًا من ماء بدر ، فأرسل النبى (ﷺ) عليَّ بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص فى نَفَرٍ من أصحابه إلى ماء بدر يتلمسون له الخبر ، فعَلِمُوا أن قريشًا وراء الْكَثِيب [٣] بالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى ، وأنـــهم يَنْحَرُون من الجِمَال يومًا تسعةً ويومًا عشرةً ، فاستنبط النبى (ﷺ) من ذلك أنـــهم بين تسعمائة وألف ، فقال لأصحابه : هذه مكة قد أَلْقَتْ إليكم أَفْلاَذَ أَكْبَادِها ..

---

[١] رواه أحمد ، مسند الكوفيين .

[٢] سيرة ابن هشام .

[٣] الكثيب : التل من الرمل .

وأصبح الغد ، والمسلمون فى انتظار مرور قافلة أبى سفيان بـــهم ، وإذا بالأخبار تَصِلُهُم بأن أبا سفيان عَدَلَ بِهَا وفاتَتْهم ، وأن جيش قريش هو الموجود بالمنطقة .. ولما نجا أبو سفيان بقافلته وعلم بخروج قريش أرسل إليهم يدعوهم للعودة إلى مكة مادامت القافلة قد نجت ، ولكن أبا جهل ثار حين سمع ذلك ، وصاح قائلا : والله لا نرجع حتى نَرِدَ بَدْرًا فنقيم عليه ثلاثًا نَنْحَرُ الْجُزُر [١] ، ونُطْعِم الطعام ، ونَسْقِى الخمر ، وتَعْزِف علينا الْقِيَان [٢] ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يرهبوننا أبدًا بعدها .. وأطاعت قريش أبا جهل ، وساروا ليختاروا منـــزلاً يتهيئون فيه للحرب ، إذ إن بدرًا كانت من مواسم العرب ، ولو عادوا إلى مكة لظن الناس أنـــهم خافوا لقاء النبى (ﷺ) ومَنْ معه ، فتزيد شوكته وتزيد دعوته قوة وانتشارًا .. ولكن بنى زهرة أطاعوا الأَخْنَس بن شَرِيق – وكان مطاعًا فيهم – فعادوا إلى مكة .. أما النبى (ﷺ) ومَنْ معه فساروا حتى نزلوا أدنى ماء بدر ، وقد أمطرت السماء فيَسَّر ذلك مَسيرَهم ، فقال الْحُبَاب بن الْمُنْذر : يا رسول الله .. أرأيتَ هذا المنـــزل ، أمنـــزلاً أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ فقال النبى (ﷺ) : بل هو الرأى والحرب والمكيدة ، فقال الْحُبَاب : يا رسول الله .. فإن هذا ليس بمنـــزل ، فانْهَضْ بالنـــاس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننـــزل ، ثم

---

[١] الْجُزُر : جمع جَزُور ، وهى ما يُنحر من الإبل .
[٢] القيان : جمع قَيْنَة ، وهى المغنية .

نبنى عليه حوضنا فنملؤه ماءً ، ثم نُغَوِّر ما وراءه من القُلُب [1] ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربوا .. فأخذ النبى (ﷺ) بمشورة الْحُبَاب ، ونزل حيث أشار عليه ، وتم بناء الحوض ، وبُنِىَ عريشٌ للنبى (ﷺ) ليستريح فيه ..

هذا .. وقال النبى (ﷺ) لأصحابه : مَنْ لَقِىَ منكم العَبَّاس فلا يقتله فإنه خرج مُسْتَكْرَهًا .. ومَنْ لَقِىَ أَحَدًا من بنى هَاشِم أو بنى الْمُطَّلِب فلا يتعرض له .. يريد النبى (ﷺ) بذلك أن يَرُدَّ لهم المعروف حيث نَصَرُوه ، ومَنَعُوه من قريش ، واحتملوا معه الحصار ثلاث سنين فى شِعْبِ أبِى طالب ..

ولما رأت قريش ما فعله النبى (ﷺ) ورأت أن مَنْ معه لا يزيدون على الثلاثمائة ، طمعت فى استئصال شَأْفَتِهم .. واندفع الأسود بن عبد الأسد المخزومى من صفوف قريش يريد أن يهدم الحوض الذى بناه المسلمون ، فعاجله حمزة بن عبد المطلب بضربة أطاحت بساقه فسقط ، ثم أَتْبَعها بضربة أخرى قضت عليه .. وما إن سقط الأسود حتى خرج عُتْبة بن رَبِيعَة بين أخيه شَيْبَة وابنه الوَلِيد ابن عُتْبة ، ودعا إلى المبارزة ، فخرج له فتية من الأنصار ، فقال لهم : ما لنا بكم حاجة ، إنما نريد قومنا .. ونادَوْا : يا محمد ، أخرج إلينا أَكْفَاءَنا من قومنا ، فخرج إليهم حمزة بن عبد المطلب ، وعلى بن أبى طالب ، وعبيدة بن الحارث ابن عبد المطلب ، والتقى الخَصْمان فقتل حمزةُ شيبةَ ، وقتل علىٌّ الوليدَ ، ثم أعانا

---

[1] القُلُب : جمع قَلِيب ، وهو البئر .. وتَغْوِيرَها : كبسها بالتراب حتى ينضب ماؤها .

عُبَيْدة على قتل عُتْبَة .. فلما رأت قريش ذلك زحفوا على المسلمين والتقى الجمعان صبيحة يوم الجمعة لسبع عشرة ليلة خَلَت من شهر رمضان ..

وأخذ النبى (ﷺ) يُعَدِّلُ صفوف المسلمين فى مواجهة جيش قريش ، فلما رأى كثرة رجال قريش ، وقلة عدد رجاله ، وضعف عُدَّتــهم إلى جانب عُدَّة قريش عاد إلى العريش ومعه أبو بكر ، واسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ يدعو : اللَّهُمَّ هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تُكَذِّبَ رسولك ، اللَّهُمَّ فنصرك الذى وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ إنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الإِسْلاَمِ لاَ تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ .. ومَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ وَقَالَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ [١] .. وقد خَفَقَ [٢] رسول الله (ﷺ) خفقة وهو فى العريش ثم انتبه فقال : أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله .. وخرج إلى الناس يُحَرِّضُهم ويقول لهم : والذى نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رَجُلٌ فَيُقْتَل صَابِرًا مُحْتَسِبًا مُقْبِلاً غَيْرَ مُدْبِرٍ إلا أدخله الله الجنة .. [٣]

هذا .. وقد وجَّه المسلمون أكبر هَمِّهم إلى سادات قريش وزعمائها ، يريدون استئصالهم جَزَاءً وِفاقًا لما فعلوه بــهم فى مكة من تعذيب وتنكيل ،

[١] رواه أحمد فى مسند العشرة .. ومسلم فى كتاب الجهاد والسِيَر .
[٢] خفق : أخذته سِنَةٌ خفيفة من النوم .
[٣] سيرة ابن هشام .

ولصدهم إياهم عن المسجد الحرام ، ومحاولة فتنتهم عن دينهم .. وقد رأى بِلالٌ أُمَيَّةَ بن خَلَف – وكان هو الذى أذاقه ألوان العذاب بمكة – فصاح به : أمية ابن خلف ، لا نجوتُ إن نجا ، ومازال به حتى قتله .. وقتل مُعَاذ بن عمرو بن الجموح أبا جهل .. وحَمِيَ وطيس المعركة ، والمسلمون يصيحون مهللين : أَحَدٌ .. أَحَدٌ .. تلك الكلمة الخالدة التى كان يهتف بـــها بلال أثناء تعذيبه ..

وأخذ النبى (ﷺ) حَفْنَةً من الحَصْبَاء [1] فاستقبل بـــها قريشًا وقال : شَاهَتِ الوجوه [2] ، ثم قذفهم بـــها ، وأمر أصحابه قائلاً : شُدُّوا .. فكان النصر للمسلمين ، وقُتِلَ من قُتِل من صناديد [3] قريش ، وأُسِرَ من أُسِر ، وَوَلَّى رجال قريش الأدْبَار مهزومين مدْحُورين .. أما المسلمون فأقاموا ببدر إلى آخر النهار فرحين بنصر الله ، ثم جمعوا الذين قُتلوا من قريش فحفروا لهم قَليبًا فدفنوهم فيه ، ووقف رسول الله (ﷺ) عليهم وقال : يَا أَهْلَ الْقَلِيبِ .. هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا ، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ :يَا رَسُـــولَ اللَّهِ ، أَوَ تُنَادِي قَوْمًا قَدْ جَيَّفُوا ؟! [4] فَقَالَ : مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجِيبُوا [5] ..

---

(1) الحصباء : الحصى .　　(2) شاهت : قبحت .

(3) الصناديد : الأشراف والسادة والعظماء .　　(4) جَيَّفُوا : أنْتَنُوا .

(5) رواه أحمد فى باقى مسند الأنصار .. والنسائى فى كتاب الجنائز ..

ولما أصبح الصباح أمر رسول الله (ﷺ) الناس أن يردُّوا كلَّ ما فى أيديهم من الغنائم ، وأمر بـــها أن تحمل حتى يرى فيها رأيه ، أو يقضى الله فيها بقضائه ..

وبعث رسول الله (ﷺ) عبد الله بن رواحة ، وزيد بن حارثة بشيرين بالنصر إلى أهل المدينة ، فدخلها عبد الله من أعلاها ، ودخلها زيد من أسفلها يبشران الناس بما فتح الله على المسلمين من نصر .. وكانت الفرحة غامرة لولا أن شابـــها شىء من الحزن ، فقد اتفق أن كان المسلمون عائدين من دفن السيدة رُقَيَّة بنت رسول الله (ﷺ) التى كانت مريضة ، وتخلف زوجها عثمان بن عفان عن غزوة بدر بأمر رسول الله (ﷺ) ليرعاها رضى الله عنها ..

وعاد رسول الله (ﷺ) إلى المدينة ، وفى الطريق توقف وقَسَمَ الغنائم بالسَّوِيَّة على مَنْ شَهِدَ بدرًا ، وجعل سهمًا لكل من طلحة بن عُبَيْد الله ، وسعيد ابن زيد اللذين أرسلهما ليتحسسا أخبار قافلة أبى سفيان ، وانطلق هو إلى بدر ولم ينتظرهما ، وكذلك جعل سهمًا لعثمان بن عفان الذى تَخَلَّف لِيُمَرِّض امرأته رُقَيَّة ، وحكم رسول الله (ﷺ) للثلاثة حكم مَنْ شَهِدَ بدرًا ، لهم مثل الذى لهم من الأجر عند الله ، وكذلك جعل لورثة من استشهد ببدر حصته ..

وفرَّق رسول الله (ﷺ) الأسرى على أصحابه ، وقال لهم : استوصوا بالأُسَارَى خيرًا .. وبينما المسلمون فى طريقهم إلى المدينة قُتل من الأسرى رجلان ، أحدهما : النَّضْر بن الحَارِث ، والآخر : عُقْبَة بن أبى مُعَيْط ، وكان

الاثنان من أَغْلَظ وأَقْسى الذين عذَّبوا المسلمين بمكة ..

ودخل النبى (ﷺ) المدينة هو والمسلمون قبل الأسرى بيوم ، ثم جىء بالأسرى ، وأوصى النبى (ﷺ) أصحابه – الذين يحرسونـــهم – بـــهم خيرًا وأن يعامل كل رجل أسيره برحمة .. ثم بدأ يفكر فيما يصنع بـــهم ، أيقتلهم ، أم يأخذ منهم الفداء ؟ إنـــهم أقوياء أشداء وقد امتلأت نفوسهم بالحقد ، والغل ، والبغضاء للمسلمين خاصة بعد أسرهم وقتل زعمائهم ، فإن أطلق سراحهم بفداء كانوا على المسلمين حربًا بعد ذلك ، وإن هو أمر بقتلهم أثار فى نفوس أهليهم من الضغينة والعداوة ما قد يَصْعُب إزالة آثاره ، فقرر أن يستشير أصحابه .. فبدأ بأبى بكر الذى قال : يا رسول الله .. بأبى أنت وأمى ، قَوْمُك فيهم الآباء ، والأبناء ، والعمومة ، وبنو العم ، والإخوان ، وأَبْعَدُهُم منك قريب ، فامْنُن عليهم مَنَّ الله عليك ، أو فَادِهْم يَسْتَنْقِذْهم الله بك من النار ، فتأخذ منهم ما أَخَذْتَ قوة للمسلمين ، فلعل الله أن يُقْبِلَ بِقُلُوبِهم .. فسكت النبى (ﷺ) ولم يُجِبْهُ بشىء .. فَتَنَحَّى أبو بكر ، وجاء عمر ، واستشاره النبى (ﷺ) فقال : يا رسول الله .. هم أعداء الله ، كَذَّبُوك ، وقاتلوك ، وأخرجوك ، اضرب رِقَابَهم ، هم رؤوس الكفر ، وأئمة الضلالة ، يُوَطِّئُ الله بـــهم الإسلام ، ويُذِلُّ بـــهم أهل الشرك .. فسكت النبى (ﷺ) ولم يُجِبْ .. فعاد أبو بكر وجعل يتلطف ويستعطف النبى (ﷺ) ، ويذكر القرابة والرحم ، ويرجو لهؤلاء الأسرى الهدى إن هو أَبْقَى على حياتـــهم .. ثم عاد عمر لمثل ما كان يقول .. فقام رسول الله

(ﷺ) ودخل حجرته فمكث فيها ساعة ، ثم خرج ، والناس يخوضون فى شأن الأسرى ، بعضهم يؤيد رأى أبى بكر ، وبعضهم يؤيد رأى عمر .. وظل المسلمون فى تشاورهم مدة انتهوا بعدها إلى قبول الفِدَاء ، وفى هذا القبول نزل قول الله عز وجل : (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[1] ..

وبينما المسلمون فى تشاورهم فى شأن الأسرى ، وصل أحد الذين نجوا من القتل والأسر إلى مكة يخبر أهلها بما حَلَّ بسادتـــهم وكبرائهم وأشرافهم من قتل ، وأسر ، وخِزْىٍ ، وهزيمة ، فلم يصدقوا الخبر ، ولما اسْتَوْثَقُوا من الأمر خَرُّوا صَعِقِين ، وحُمَّ[2] أبو لهب ، ومات بعد سبعة أيام ..

هذا .. وقررت قريش بعد طول تشاور واختلاف أن تفتدى أسراها الذين كان من بينهم أبو العاص بن الربيع زوج السيدة زَيْنَب بنت رسول الله (ﷺ) .. فأرسل أهل مكة بالأموال لِفِدَائهم ، وأرسلت الزوجة المسلمة الوَفِيَّة ما قدرت عليه لفداء زوجها الْمُشْرِك ، وكان من بين ما أرسلته قِلادَة[3] كانت أمها السيدة خديجة (رضى الله عنها) قد أهدتـــها لها بمناسبة زواجها ، وحين وُضِعَت تلك الأموال أمام النبى (ﷺ) رأى تلك القلادة فحرَّكت أشجانه[4] وهَيَّجَتْ ذكراه ،

---

(1) سورة الأنفال آية ٦٧ .

(2) أى أصابته الحمَّى .

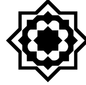
(3) القلادة : ما يُجعل فى العنق من حُلى ونحوه .

(4) أشجانه : أحزانه .

ورقَّ لها رِقَّةً شديدة ، فهى قلادة السيدة خديجة (رضى الله عنها) ، ورأى الأصحاب ذلك فى وجهه (ﷺ) فقرَّروا إطلاق الأسير بغير فِدَاء .. وأعادوا إليه الأموال التى أرسلتها زوجته ومن بينها تلك القلادة .. وانطلق الزوج الْمُشْرك عائدًا إلى مكة بعد أن وعد بالسماح لزوجته المسلمة بالهجرة إلى المدينة فور وصوله إلى مكة ، ونفَّذ الزوج وعده ، وخرجت الزوجة المسلمة مهاجرة إلى المدينة وكانت حاملاً ، فَرَوَّعَهَا أحد المشركين من أهل مكة بِرُمْحِه فأسقطت جنينها ، ثم واصلت سيرها إلى المدينة ، ولحقت برسول الله (ﷺ) ..

ومضت الأيام وخرج الزوج إلى الشام فى تجارة لقُرَيش ، ووقعت القافلة فى أيدى المسلمين ، وفَرَّ الزوج هاربًا .. وحين أرخى الليل سُدُوله تسلَّل إلى المدينة ، ولجأ إلى بيت امرأته مستجيرًا بـــها ، فآوته حتى أصبح الصباح ، وخرج المسلمون لصلاة الفجر بالمسجد ، وتَقَدَّم النبى (ﷺ) إلى المحراب وكَبَّر للصلاة ، فصرخت السيدة زينب (رضى الله عنها) من صفوف النساء قائلة : أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّى قَدْ أَجَرْتُ أبا العَاصِ بن الرَّبيع .. وبعد أن انتهى النبى (ﷺ) من صلاته التفت إلى الناس قائلاً : أَيُّهَا النَّاسُ ، هَلْ سَمِعْتُم مَا سَمِعْتُ ؟! فَوَالَّذى نَفْسِى بِيَدِهِ مَا عَلِمْتُ بِهَذَا الأَمْرِ إِلاَّ بَعْدَ ما سَمِعْتُ كَما سَمِعْتُم .. إِنَّهُ يُجيرُ عَلَى الْمُسْلمينَ أَدْنَاهُمْ .. وذهب إلى ابنته زينب وقال لها : يَا بُنَيَّتى ، أَكْرِمِى مَثْوَاهُ ، ولاَ يَقْرَبَنَّكِ ، فَإِنَّكِ لاَ تَحِلِّينَ لَهُ .. فقالت : إِنَّمَا جَاءَ يَطْلُبُ مَالَهُ .. وعرض النبى (ﷺ) الأمر على أفراد السرية التى استولت على القافلة

فقرَّرُوا رد الأموال إليه .. وعاد الزوج بأموال قريش إلى مكة ، وردَّها إلى أصحابـــها ثم نادى فيهم : هل بَقِىَ لأَحَدٍ منْكُمْ شَىءٌ ؟ .. قالوا : لا ، جزَاك الله خيرًا .. فقال : والله لولا أن تظُنُّوا بِىَ الخيانة لَمَكَثْتُ بالمدينة وأَسْلَمْتُ مع رسول الله (ﷺ) .. ثم انطلق مسرعًا إلى المدينة ، ودخل على رسول الله (ﷺ) جاهرًا بالشهادتين معلنًا إسلامه ، وبيعته ، وانضم إلى امرأته الوفية الصابرة ، والتأم شَمْلُ الأسرة من جديد فى ظل سماحة الإسلام ..[1]



[1] أُسْد الغابة لابن الأثير .

معاقبة كعب بن الأشرف وبنى قَيْنُقاع

تركت غزوة بدر فى نفوس أهل مكة أثرًا عميقًا ، وإن اختلفت ردود أفعالهم ، فأبو سفيان نَذَرَ ألا يمسَّ رأسَه ماءٌ من جنابة [1] حتى يغزو محمدًا .. وأما هند بنت عُتْبة فامتنعت عن البكاء على أبيها وعمها وأخيها حتى لا يشمت بــها المسلمون ، وحتى تثأر من محمد وأصحابه ، واعتزلت فراش أبى سفيان ، وحَرَّمت على نفسها التطيب أو التزين حتى يتم غزو محمد والثأر ممن قتلوا الأحبة .. وأما نساء قريش فجَزَزْنَ [2] شعور رؤوسهن ، وكُنَّ يأتين بفرس مَنْ قُتِل لهنَّ ببدر أو بعيره ، ويَنُحْن ويَبْكِين حوله ، واستمر حالهن على ذلك شهرًا ، والكل ينتظر الفرصة للثأر ..

أما اليهود والمشركون بالمدينة فقد رأوا سلطان النبى (ﷺ) الذى جاءهم منذ أقل من عامين فارًّا مُهَاجرًا من مكة يزداد ، ويكاد يكون هو صاحب الكلمة فى أهل المدينة ، علاوة على أن ما حدث ببدر زاد المسلمين قوة .. فأخذوا يتآمرون على النبى (ﷺ) وعلى المسلمين ، ويرسلون إلى مكة من يُحَرِّض أهلها على الثأر ، وينشدون شِعْرًا يبكون به قتلى قريش ، وكان على رأس المحرضين كعب بن الأشرف اليهودى ، فقد قال عندما عَلِمَ بمقتل زعماء قريش ببدر : هؤلاء أشراف العرب ، وملوك الناس ، والله لئن كان محمد

---

[1] كناية عن عدم الجماع .

[2] قَصَصْنَ .

أصاب هؤلاء القوم لَبَطْنُ الأَرْضِ خَيْرٌ مِنْ ظَهرها .. وذهب إلى مكة يُحَرِّض أهلها على النبى (ﷺ) ، ويُنْشِد الأشعار ، ويَبْكِى أصحابَ القَلِيب [1] ، وبعدما رجع إلى المدينة أخذ يُشَبِّبُ [2] بنساء المسلمين ، فاغتاظ المسلمون غيظًا شديدًا ، وأجمع بعضهم على قتله ، وذهب إليه أبو نائلة يستدرجه بالطعن على النبى (ﷺ) وعلى المسلمين ، ولما أَنِسَ إليه كعب بن الأشرف طلب منه قرضًا له ولبعض أصحابه ، فوافق كعب على أن يَرْهَنُوه نساءهم ، فقال أبو نائلة : أَنُرْهِنُك نساءنا وأنت أجمل الناس ، وتُعَيِّرُنا العرب بذلك ؟! لا ، ولكنَّا نرهنك دروعنا وأسيافنا ، فوافق كعب على ذلك على أن يجيئوه لاحقًا .. وبعد فترة جاءه أبو نائلة ليلاً يناديه من خارج حصنه ، فنـــزل إليه كعب ، وسار الرجلان حتى التقيا بأصحاب أبى نائلة ، وذهب الجميع يتماشوْن ساعة حتى ابتعدوا عن حصن كعب بن الأشرف ثم ضربوه بسيوفهم فقتلوه ..

وقد زاد هذا الحادث من مخاوف اليهود ، وزاد أيضا من مؤامراتـــهم وتحرشهم بالمسلمين ، فقد انتهزوا فرصة وجود امرأة من المسلمات جالسة عند صائغ من بنى قَيْنُقَاع تبيعه حلية ذهبية ، فأخذوا يتحرشون بـــها ، وجاء أحدهم من خلفها فى غفلة منها فشَبَك ذَيْل ثوبـــها بظهرها ، فلما قامت انكشفت سوأتـــها ، وأخذوا يتضاحكون ، فصاحت تستغيث ، فوثب رجل

---

[1] الحفرة التى دفن بـــها قتلى بدر .

[2] التشبيب : الغزل الفاضح والْمُسىء .

من المسلمين على اليهودى فقتله ، فاجتمع اليهود عليه فقتلوه .. وشَكَّلت هذه الحادثة مُنْعَطَفًا خطيرًا ، فالأمر يتعلق بالشرف ، والعِرْض ، والكرامة ، وتلك أمور أهم من الحياة عند العرب منذ الجاهلية ، فكيف تكون بعد أن أعَزَّهم الله بالإسلام ، لذلك ثار المسلمون ثورة عارمة ، وأرسل النبى (ﷺ) إلى يهود بنى قَيْنُقَاع يطلب منهم أن يحفظوا عهد الموادعة الذى تم معهم عند مجيئه (ﷺ) إلى المدينة - وخاصة أنهم كانوا يقيمون بالمدينة وليس خارجها ، ويختلطون بالمسلمين ويتعاملون معهم - أو أن يُنْزِل بهم ما نزل بقريش فى بدر ، فاسْتَخَفُّوا بتحذيره وأرسلوا يقولون : يَا مُحَمَّدُ لاَ يَغُرَّنَّكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنَّكَ قَتَلْتَ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ كَانُوا أَغْمَارًا لاَ يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ ، إِنَّكَ لَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ أَنَّا نَحْنُ النَّاسُ ، وَأَنَّكَ لَمْ تَلْقَ مِثْلَنَا (1) .. فلم يبق بعد هذا الكلام إلا السكوت فتَنْهار هَيْبَة المسلمين وتَضْعُف شوكتهم ، أو القتال .. فقام المسلمون بمحاصرة بنى قَيْنُقَاع فى دُورِهم خمسة عشر يومًا متتالية ، لا يدخل إليهم أحدٌ بطعام ، ولا يخرج منهم أحد ، فلم يبق أمامهم إلا النزول على حكم رسول الله (ﷺ) والتسليم لقضائه فيهم .. واستشار النبى (ﷺ) أصحابه فى شأنهم ، فأجمعوا الرأى على قتلهم جميعًا .. فأسرع عبد الله بن أُبَىٍّ ابن سَلُول - وكان حليفًا لليهود وذا سلطان فى المشركين من الأوس والخزرج - إلى رسول الله (ﷺ)

(1) رواه أبو داود ، كتاب الخراج والإمارة والفيء .

وقال : أَحْسِنْ فى مَوَالِيَّ ، وأخذ يكرر ويُلِحُّ فى طلبه ، ويقول : إنى والله امرؤ أخشى الدَّوَائر .. ثم جاء عُبَادة بن الصَّامِت – وهو من كبار مسلمى الأنصار – يقول بهذا القول نفسه .. وعند ذلك قَبِلَ النبى (ﷺ) شفاعة ابن سلول وعبادة على أن يَجْلُوَ بنو قَيْنُقَاع عن المدينة جزاءً لهم على صنيعهم ، فسار بهم عُبَادة بن الصَّامِت حتى بلغوا وادى القُرَى حيث أقاموا زمنًا ، ثم ارتحلوا إلى حدود الشام حيث أقاموا بمنطقة أَذْرِعَات .. وضَعُفَت شَوْكة اليهود بعد جلاء بنى قَيْنُقَاع عن المدينة ..

هذا .. وقد استقرت الأمور بالمدينة بعض الشىء بعد إجلاء بنى قَيْنُقَاع ، واستدعى النبى (ﷺ) ذات يوم عليَّ بن أبى طالب (رضي الله عنه) فقال له : يا عَلِيُّ ، إِنَّ الله تَبَارَكَ وتَعَالَى أَمَرَنِى أَنْ أُزَوِّجَكَ بِفَاطِمَة .. فَزَوَّجه إِيَّاهَا ، ثم قال : يَا عَلِيُّ ، لا تُحْدِثْ أَمْرًا حَتَّى آذَنَ لَكَ [١] .. وبعد فترة استدعاه النبى (ﷺ) وتَوَضَّأ فى إناء ، ثم أخذ من وَضُوئِه [٢] ورَشَّهُ عليه قائلا : اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَيْهِمَا ، وبَارِكْ فِيهِمَا ، وبَارِكْ لَهُمَا فى نَسْلِهِمَا .. ثُمَّ أَمَرَهُ بالدُّخُولِ بعد ذلك ..

وحِينَ تَأَيَّمَتْ [٣] حَفْصَةُ بِنْتُ عُمَرَ مِنْ خُنَيْسِ بْنِ حُذَافَةَ السَّهْمِيِّ – وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّه (ﷺ) مِمَّن شَهِدَ بَدْرًا ، وتُوُفِّيَ بالْمَدِينَة – قَالَ عُمَرُ : فَلَقِيتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَفْصَةَ ، فَقُلْتُ : إِنْ شِئْتَ

---

[١] أى أمَرَهُ بالامتناع عن الدخول عليها .

[٢] الوَضُوء : ماء الوُضُوء .

[٣] تأيمت : مات عنها زوجها .

أَنْكَحْتُكَ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ ، قَالَ : سَأَنْظُرُ فِي أَمْرِي .. فَلَبِثْتُ لَيَالِيَ ، فَقَالَ : قَدْ بَدَا لِي أَلاَّ أَتَزَوَّجَ يَوْمِي هَذَا .. قَالَ عُمَرُ : فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ : إِنْ شِئْتَ أَنْكَحْتُكَ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ ، فَصَمَتَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا .. فَكُنْتُ عَلَيْهِ أَوْجَدَ مِنِّي عَلَى عُثْمَانَ .. فَلَبِثْتُ لَيَالِيَ ثُمَّ خَطَبَهَا رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) فَأَنْكَحْتُهَا إِيَّاهُ .. فَلَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ : لَعَلَّكَ وَجَدْتَ عَلَيَّ حِينَ عَرَضْتَ عَلَيَّ حَفْصَةَ فَلَمْ أَرْجِعْ إِلَيْكَ ؟ ، قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : فَإِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أَرْجِعَ إِلَيْكَ فِيمَا عَرَضْتَ إِلاَّ أَنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) قَدْ ذَكَرَهَا ، فَلَمْ أَكُنْ لأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) ، وَلَوْ تَرَكَهَا لَقَبِلْتُهَا .. [1]

ودخل النبى (ﷺ) يومًا على عثمان بن عفان (رضي الله عنه) فوجده مُنْهارًا من البكاء حزنًا على زوجه رقية التى ماتت عند دخول البشير بالنصر فى غزوة بدر فقال له : ما لك يا عثمان ؟ قال : يا رسول الله .. وهل دخل عَلَى أحد ما دخل عَلَيَّ ؟ ابنتك يا رسول الله كانت تحتى .. ماتت ، وانقطع النَّسَب بينى وبينك .. وما إن أتم عثمان كلمته حتى نزل جبريل إلى النبى (ﷺ) ، فالتفت (ﷺ) إلى عثمان وقال له : يا عثمان .. هذا جبريل جاء بأمر من الله أن أُزَوِّجَك بأختها أم كلثوم على مِثْلِ صَدَاقِها وعِشْرَتِها .. [2]

---

[1] رواه البخارى ، كتاب المغازى .

[2] عن أبى هريرة (رضي الله عنه) بنحوه .. الإصابة : ١٢٢٢٢ (٨ / ٢٩٠) ..

مناوشات قريش والقبائل

لم يطق أبو سفيان الصبر على الهزيمة التى لحقت بقريش فى غزوة بدر ، وأراد أن يعيد إلى أذهان العرب قوة قريش ، ومقدرتـــها على القتال ، فجمع رجالاً أشداء من أهل مكة بعد شهر من بدر وخرج فيهم مستخفين حتى إذا كانوا على مقربة من المدينة انتظروا حتى مضى جزء من الليل فَأَتَوْا ناحية يقال لها (العُرَيْض) فوجدوا رجلين فى حرث لهما فقتلوهما ، وأحرقوا بيتين ونخيلاً ، واعتبر أبو سفيان أن يمينه بغزو محمد قد بَرَّت ، فانصرف هاربًا قبل أن يلحقه أحد من المدينة ، وقد علم النبى (ﷺ) بما حدث فخرج مع بعض أصحابه فى أثر أبى سفيان الذى كان يسرع ومَنْ معه فى الفرار حتى إنـــهم كانوا يُلْقون ما يحملونه من الزاد ومِنَ السَّوِيق [1] ليتخففوا ، وكان المسلمون إذا مَرُّوا به أخـــذوه – لذلك سُمِّيت هذه المطاردة بغزوة السَّوِيق – وعاد النبى (ﷺ) إلى المدينة بعد أن فَرَّ أبو سفيان ومَنْ معه ..

وبلغت أنباء محاولة أبى سفيان الفاشلة أسماع العرب فزادت أبا سفيان خِزْيًا ، وزادت من هَيْبة النبى (ﷺ) فى نفوس الجميع ، فأما القبائل البعيدة فظلت فى مَأْمَن لا يعنيها ما يدور بين المسلمين وبين قريش ، وأما القبائل القريبة فكانت تَتَوَجَّس شرًّا من زيادة قوة المسلمين وتَهديدهم لقريش ، إذ إن هذه

---

[1] السَّوِيق : طعام يُتخذ من مدقوق الحنطة والشعير .

القبائل تستفيد من مرور قوافل قريش بـــها فى طريقها إلى الشام ومنها ، واعتراض طريق هذه القوافل قد يضطر قريشًا إلى تغيير طريق قوافلها ، مما يضر بمصالح هذه القبائل ضررًا بليغًا ..

وبلغ النبى (ﷺ) أن غَطَفان ، وسُلَيْم اعتزموا الاعتداء على المسلمين ، فخرج إلى (قَرْقَرَة الكُدْر) ليأخذ عليهم الطريق ، فلما وصل إلى ذلك المكان وجد آثار النَّعَم و لم يجد أحدًا ، وعلم أن القوم انتقلوا إلى مكان الماء ، فجمع أصحابه ما وجدوا من نَعَمٍ وعادوا إلى المدينة بغنيمتهم ..

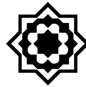
وبلغ النبى (ﷺ) أن جمعًا من ثَعْلَبة ومُحَارِب قد تجمعوا يريدون أن يصيبوا من أطراف المدينة ، فخرج (ﷺ) فى أربعمائة وخمسين من المسلمين فَلَقِىَ رجلاً من ثعلبة فسأله عن القوم فقال : إنـــهم لما سمعوا بمسيرك لجأوا إلى رؤوس الجبال هاربين .. وبلغ النبى (ﷺ) أن جمعًا كبيرًا من بنى سليم بِبَحْرَان تَهيئوا لقتاله ، فخرج فى ثلاثمائة رجل ، فلما بلغوا قريبًا من بَحْران علموا أن الجمع تفرقوا وعادوا أدراجهم خوفًا وفزعًا .. وهكذا .. كلما فكرت القبائل فى محـــاولة الإغارة على أطراف المدينة وسمعوا بخروج النبى (ﷺ) لهم انْخَلَعَت قُلُوبُهم ، وولوا الأدبار ..

ولما بلغ قريشًا ما حدث من أمر هذه القبائل علمت أن طريق تجارتـــها إلى الشام أصبح غير آمن مطلقًا ، ففكرت فى طريق آخر لا يصل إليه النبى

(ﷺ) وأصحابه ، فقرَّرُوا أن يسلكوا طريق العراق ، وهو غير ممهد ، وتم تجهيز قافلة عظيمة تعوض ما فات يقودها صَفْوَان بن أُمَيَّة ، وعلم النبى (ﷺ) بذلك فأرسل زَيْد بن حَارِثَة فى مائة راكب ، فاعترضوا القافلة عند القَرْدة [1] ، ففر الرجال وتركوا العير المحملة بالتجارة فأخذها المسلمون ، فكانت أول غَنِيمَة ذات قيمة غَنِمَها المسلمون ..

واشتعل الغضب فى نفوس قريش حين علموا بما أصاب قافلة صفوان بن أمية ، خاصة وأنــها كانت تحمل من أموالهم الكثير ، وقد اشترك فيها أكثر أهل مكة .. واتضح لهم أن قوافلهم أصبحت غير آمنة ، سواء اتّخذت الطريق المعتاد أم اتَّخَذت طريق العراق ، كما أن النبى (ﷺ) قد وادع القبائل التى تمر عليها القوافل مما جعلهم يمتنعون عن التدخل بين النبى (ﷺ) وبين قريش ..

ولَمَّا كانت حياة قريش تعتمد على التجارة فى رحلة الشتاء إلى الحبشة ، ورحلة الصيف إلى الشام ، لم يبق أمامهم إلاَّ الحرب أو الموت جوعًا ، فصَمَّموا على القتال والأخذ بالثأر ..



---

[1] القَرْدة : ماء من مياه نَجْد .

غزوة أُحُد

اتفقت قريش عندما نجت قافلة أبي سفيان في غزوة بدر أن توقف العير ولا تتصرف فيها ، وتبرع بـــها أصحابـــها لتُبَاع ويتم تجهيز جيش الثأر بأثمانـــها .. وقد آن الأوان بعد أن مَرَّ عام على غزوة بدر ، وبعد ما حدث لقافلة صَفْوَان بن أُمَيَّة أن تأخذ قريش بثأر سادتـــها وزعمائها الذين قتلوا في بدر ، فقامت بتجهيز جيش كبير في عَدَده وعُدَّته ، واستنفرت القبائل التي حولها ليشاركوها في أخذها بالثأر من المسلمين ، كما استنفرت مَنِ اتَّبَعها من الأحَابِيش [1] ..

وقد أصرت نساء قريش على أن يخرجن مع الجيش لتشجيع الرجال وتذكيرهم بقتلاهم في بدر ، ولكي يحرص الرجال على عدم الفرار مهما حَمِيَ وَطِيس المعركة [2] حتى لا يتركوا نساءهم يقعن في الأسر .. وخرجت قريش تقصد المدينة في ثلاثة آلاف رجل - منهم سبعمائة دارع [3] - وفي ثلاثة آلاف بعير ، ومائتي فرس ..

هذا .. وقد كان العباس بن عبد المطلب حاضرًا لهذا التجهيز مُطَّلِعًا على التفاصيل ، ذاكرًا لحسن معاملة ابن أخيه (ﷺ) له عندما وقع في الأسر يوم بدر ، فكتب كتابًا ذكر فيه أمر قريش ، وما جمعت من عَدَدٍ وسِلاح وعُدَّة ، ودفع به

---

(1) الأحابيش : قوم من العرب رُمَاة ، سُمُّوا بذلك نسبة إلى حُبْشِي (جبل بأسفل مكة) ، أو لسمرة ألوانهم .

(2) حمى وطيس المعركة : اشتد القتال . (3) دارع : لابس الدروع .

إلى رجل من قبيلة غِفَار لتسليمه إلى النبى (ﷺ) بالمدينة قبل وصول جيش قريش ، ووصل الرجل وسلَّم الكتاب إلى النبى (ﷺ) الذى دفعه إلى أُبَىّ بن كَعْب فقرأه عليه ، فاسْتَكْتَمه النبى (ﷺ) ما فى الكتاب ، وذهب إلى سَعْد بن الرَّبِيع فأخبره بما جاء فى كتاب العباس ، واسْتَكْتَمه ما فيه أيضا .. وبعث النبى (ﷺ) مَنْ يتحسس أخبار قريش ، وجاء الخبر بأن قريشًا نزلت عند بعض السفوح من جبل أُحُد ، وأرسلت إبلها وخيلها ترعى زروع المدينة المحيطة بـــها .. وخشى أهل المدينة عاقبة هذه الغزوة التى أعَدَّت لها قريش أشَدَّ ما أعَدَّت فى تاريخها ..

وبات أهل المدينة تحت السلاح يحرسونـــها ، وتجمع أصحاب النبى (ﷺ) بالمسجد وعليهم السلاح خوفًا عليه .. ولما أصبحوا جمع النبى (ﷺ) أهل الرأى من المسلمين ليتشاور معهم ، وحضر المنافقون الذين تظاهروا بالإسلام هذا الاجتماع .. وتكلم عبد الله بن أُبَىٍّ ابن سَلُول فقال : لقد كنا يا رسول الله نقاتل فيها - يقصد المدينة - ونجعل النساء والأطفال فى هذه الصَّيَاصِى[1]، ونجعل معهم الحجارة ، ونَشْبِك المدينة بالبنيان ، فتكون كالحصن من كل ناحية ، فإذا أقبل العدو رَمَتْه النسوة والأطفال بالحجارة ، وقاتلناه بأسيافنا فى السكك ، إن مدينتنا يا رسول الله عَذْرَاء ما فُضَّتْ علينا قَطُّ ، وما دخل علينا عدو فيها إلا أصبناه ، وما خرجنا إلى عدو قَطُّ منها إلا أصاب منا ، فَدَعْهُم يا رسول الله

(1) الصياصى : الحصون .

وأطعنى فى هذا الأمر ، فإنى ورثت هذا الرأى من أكَابِر قومى وأهل الرأى منهم .. وكان هذا هو رأى رسول الله (ﷺ) كما كان رأى أكابر الصحابة من المهاجرين والأنصار .. لكن رجالاً مِمَنْ شَهِدُوا بدرًا وذاقوا حلاوة النصر ، ورأوا أن العبرة ليست بالعَدَد أو العُدَد ، وإنما العبرة بالإيمان ، وأن النصر من عند الله ، وكذلك فتيانًا ذوى حَمِيَّة وشجاعة لم يشهدوا بدرًا وندموا على ذلك أحبُّوا الخروج إلى العدو وملاقاته حيث نزل ، لكى لا يُتَّهَمُوا بالْجُبْن والخَوْف إن هم تَحَصَّنوا بالمدينة و لم يخرجوا .. وتكلم آخرون وقالوا : إنَّا لا نحب أن ترجع قريش وتقول للعرب حَصَرْنَا محمدًا وأصحابه فى صَيَاصِى يَثْرِب وآطَامِها [1] فتجترئ علينا القبائل ويشنُّون الغارات ويقطعون الطريق علينا ، وإن خرجنا وقاتلناهم فإما النصر ، وإما الشهادة ، وحَرَّك هذا الكلام مشاعر النَّخْوَة والشجاعة والإيمان فى القلوب ، وأصبح الاتجاه السائد – خصوصًا لدى الشباب – هو الخروج لملاقاة العدو .. فقال النبى (ﷺ) : إنى أخاف عليكم الهزيمة ، فأصروا على الخروج .. فلما رأى ذلك لم يكن أمامه إلا أن ينـــزل على رأيهم طالما كانت الشُّورَى أساسًا لنظام الدولة فى الإسلام ..

كان اليوم يوم جُمُعَة ، فصلى النبى (ﷺ) بالناس ، وأخبرهم أن النصر مع الصبر ، وأمرهم بالتَّجَهُّز لملاقاة العدو .. ودخل بيته بعد صلاة العصر ، ودخل

---

(1) الأطم : البناء المرتفع كالحصن .

معه أبو بكر وعمر فَعَمَّماه ، وألبساه درعه ، وقلداه سيفه .. والناس أثناء ذلك يتجادلون بالمسجد ، ويقول كل من أُسَيْد بن حُضَيْر ، وسَعْد بن مُعَاذ – وهما من كبار الأنصار وأَجِلَّة الصحابة ، وكانا ممن أشار بالتَّحَصُّن بالمدينة – للذين أشاروا بالخروج : لقد رأيتم رسول الله (ﷺ) يرى التحصن بالمدينة فَقُلْتُم ما قلتم ، واستكرهتموه على الخروج وهو كاره له ، فَرُدُّوا الأَمْرَ إليه ، فما أَمَرَكُم فافعلوه ، وما رأيتم له فيه هَوى أو رأيًا فأطيعوه .. ولما سَمِع الدَّاعون إلى الخروج هذا الكلام خافوا أن يكونوا قد خالفوا رسول الله (ﷺ) فى أمر هو أعلم بعواقبه ، فلما خرج عليهم لابِسًا دِرْعَه مُتَقَلِّدًا سيفه قالوا : ما كان لنا يا رسول الله أن نخالفك ، فاصنع ما بَدا لك ، وما كان لنا أن نَسْتَكْرِهَك ، والأمر إلى الله ثم إليك .. فقال النبى (ﷺ) : لقد دعوتكم إلى هذا الحديث فأَبَيْتُم ، وما ينبغى لنبى إذا لبس لأْمَتَه [1] أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ، انظروا ما آمركم به فاتبعوه ، والنصر لكم ما صبرتم ..

وتقدم النبى (ﷺ) بالمسلمين مُتَّجِهًا إلى أُحُد حتى نزل (الشَّيْخَيْن) [2] فرأى كتيبة لا يُعْرَف أهْلُهَا ، فسأل عنها ، فقيل : هؤلاء حُلَفَاء ابن أُبَيٍّ ابن سَلُول من اليهود ، فقال (ﷺ) لا يُسْتَنْصَر بأهل الشِّرْك على أهل الشِّرْك ما لم يُسْلموا ، فانصرف اليهود عائدين إلى المدينة ..

---

[1] اللأمة : لباس الحرب .

[2] موضع بين المدينة وأحُد .

وانتهز عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سَلُول الفرصة فانخذل ورجع إلى المدينة مع مَنْ معه ، وكانـــوا ثلاثمائة رجل ، وبقى النبى (ﷺ) ومَنْ معه من المؤمنين حقًّا - وعِدَّتُهم سبعمائة رجل - ليقاتلوا ثلاثة آلاف رجل من أهل مكة ، كلهم مَوْتُورٌ مُطَالِبٌ بالثأر ..

وسار النبى (ﷺ) بالمسلمين حتى بَلَغُوا أُحُدًا وجعلوه إلى ظهورهم ، وصَفَّ النبى (ﷺ) أصحابه ، ووضع منهم خمسين رجلاً من الرُّمَاة على شِعْبٍ فى الجبل ، وقال لهم : احْمُوا لنا ظهورنا ، فإنَّا نخاف أن يَجِيئُونا من ورائنا ، والْزَمُوا مكانكم لا تبرحوا منه ، وإن رأَيْتُمُونا نَهْزِمُهم حتى ندخل عَسْكَرَهم فلا تُفَارِقوا مكانكم ، وإن رأَيْتُمُونا نُقْتَل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا ، وإنَّما عليكم أن تَرْشُقُوا خَيْلَهُم بالنَّبْل ، فإن الخيل لا تُقْدم على النَّبْل .. ثم نـــهى بقية الرجال عن أن يقاتل أَحَدٌ منهم حتى يأمر هو بالقتال ..

وأما قريش فصَفَّت صُفُوفَها ، وجعلت على الْمَيْمَنة خَالد بن الوَلِيد ، وعلى الْمَيْسَرة عِكْرِمَة بن أبِى جَهْل ، ودفعت اللواء إلى طلحة بن أبى طلحة ، وجعلت نساء قريش يمشين خلال الصفوف يضربن بالدُّفُوف والطُّبُول ، ويُغَنِّين بكلام يشجع الرجال على القتال وعدم الفرار ، فكن يقلن :

ويهًا بنى عبد الدار ويهًا حُمَاةَ الأدْبار ضَرَبًا بِكُلِّ بَتَّار

ويقلن :

إنْ تُقْبِلُـــوا نُعَـــانِـــق   ونَفْـــرِشِ النَّمَـــارِق
أَوْ تُدْبِـــرُوا نُفَـــارِق   فِـــرَاقَ غَيْرِ وَامِـــق

واستعد الفريقان للقتال ، وكان مع قريش رجل من أهل المدينة يُدعى أبا عامر عبد عمرو بن صيفىّ الأَوْسِىّ – كان قد انتقل إلى مكة بعـــد انتشـــار الإسلام بالمدينة ، ولم يكن شهد بدرًا – يُحَرِّض قُريشًا على قتال النبى (ﷺ) ، وكان يزعم لهم أنه إذا نادى على أهله من الأوس الذين يقاتلون فى صـــفوف المسلمين فسوف ينحازون إليه ويقاتلون مع قريش .. فلما خرج إلى أُحُد ومعه خمسة عشر رجلاً من الأوس الذين لم يكونوا أسلموا وبعض عبيد أهل مكـــة نادى : يا معشر الأوس ، أنا أبو عامر ، فأجابه المسلمون من الأوس : لا أنْعَمَ الله بِكَ عَيْنًا يا فاسق ، فحاول هو وعِكْرِمَة بن أبى جهل – الذى كان علـــى ميسرة جيش قريش – أن يأخذوا المسلمين من جناحهم الأيمـــن فـــرَدُّوهم خَاسِئين ، وولَّى أبو عامر ومَنْ مَعَه مُدْبرين ..

ومدَّ النبى (ﷺ) يَدَهُ بسيف وقال : مَنْ يَأْخُذ هذا السيف بِحَقِّه ؟ ، فقام إليه رجال فأمْسَكَه عنهم ، حتى قام أبو دُجَانَة سِمَاكُ بن خَرَشَة فقال : وما حقه يا رسول الله ؟ ، فقال : أن تضرب به فى العدو حتى يَنْحَنِى ، فأخذ أبو دُجَانَة السيف وأخرج عِصَابَة حَمْرَاء – يُسَمِّيها عِصَابَة الموت ، ويعرفه الناس بـــها – فعَصَبَ بـــها رأْسَه ، وأخذ يختال بين الصَّفَّيْن ويتبختر ، فلما رآه

النبى (ﷺ) قال : إنـــها لَمِشْيَةٌ يُبْغِضُها الله إلا فى مثل هذا المَوْطِن ، واندفع أبو دُجَانَة وفى يده سيف النبى (ﷺ) فجعل لا يَلْقَى أحَدًا إلا قتله حتى شَقَّ صُفُوف المشركين .. وصاح حمزة بن عبد المطلب : أَمِتْ .. أَمِتْ ، فكانت صيحة القتال يوم أُحُد ، واندفع إلى قلب جيش قريش لا يَلْقَى أَحَدًا إلا قتله ، فكان بطلاً كما كان فى بدر .. وصاح طلحة بن أبى طلحة حامل لواء أهل مكة : هل من مبارز ؟ فخرج له علىٌّ بن أبى طالب فبارزه وقتله ، وكَبَّر المسلمون وشَدُّوا على المشركين .. وأخذ لواء أهل مكة رجل آخر من أبناء أبى طلحة فقتله حمزة ، وتعاقب حملة اللواء من بنى عبد الدَّار حتى قُتِلَ منهم تسعة ، كان آخرهم صُؤَاب الحبشى غلام بنى عبد الدار .. فلما قتل حملة اللواء انكشف المشركون وولَّوْا مدبرين حتى أُحِيط بنسائهم ، ووقع الصَّنَم الذى احتملوه لِيَتَيَامَنُوا به من فوق الجمل الذى كان يحمله ومن خلال الْهَوْدَج الذى كان يحتويه .. وتَمَزَّق جيش قريش الْمُكَوَّن من ثلاثة آلاف مقاتل بشجاعةِ وإيمانِ سبعمائة مقاتل مسلم يطلبون النصر أو الشهادة ، وأوشكت نساء قريش أن يَقَعْنَ فى الأَسْر ، وأخذ المسلمون يطاردون عَدُوَّهم ، ويضعون فيه السلاح كيف شاءوا .. ثم أغرت الغنائم التى تركها الفَارُّون من قريش بعضَ الرجال ، فتركوا مطاردة المشركين وأخذوا ينتهبون الغنيمة التى فاقت كَثْرَتُـــها توقعاتــــهم ، وشغلهم ذلك عن المعركة .. ولَمَّا رأى الرماة الذين أمرهم النبى (ﷺ) ألاَّ يَبْرَحُوا مكانـــهم انـــهزام المشركين وفرارهم ، وانشغال إخوانـــهم

بجمع الغنائم سال لُعَابُهُم ، وقرر بعضهم النــزول لأخذ نصيبهم من الغنيمة ، فقال لهم أميرهم عبد الله بن جُبَيْر مُحَذِّرًا إياهم من مخالفة الأمر : ألم يقل لنا رسول الله (ﷺ) : لا تَبْرَحُوا مكانكم ، وإن رأيتمونا نُقْتَل فلا تَنْصُرونا ؟!! .. قالوا : لم يرد رسول الله (ﷺ) أن نبقى بعد أن أذلَّ الله المشركين .. وتركوه ونزلوا يشاركون فى جمع الغنائم ، ولم يبق معه إلا نَفَرٌ دون العشرة .. وعند ذلك اغتنم خالد بن الوليد الفرصة – وكان قائدًا لفُرْسَان مكة – فهجم بفرسانه على من تَبَقَّى من الرماة .. ولم ينتبه المسلمون الذين شُغِلُوا بجمع الغنائم ، فَحَوَّطَهم من خلفهم ، وصاح فى قريش صيحة جمعت شَمْلَهم ورَدَّتْهم على المسلمين الذين أصبحوا محصورين بينهم وبين فُرْسَان خالد بن الوليد .. وانتبه المسلمون ، وألقوا ما بأيديهم من الغنائم ، والتقطوا سيوفهم ، ولكن بعد فوات الأوان ، فقد تَمَزَّقت الصفوف ، وأصبح كل فرد مشغولاً بمحاولة النجاة بنفسه ، وانْفَرَط الْعِقْد ، وأذهلت المفاجأة هؤلاء الذين كانوا منذ لحظات يقاتلون صفًّا واحدًا كالبُنْيَان الْمَرْصُوص يُشَجِّعُهم ما يَرَوْن من بطولات فَذَّة لرجال أمثال : عَلِىّ بن أبى طالب ، وأبى دُجَانَة ، وسَعْد بن أبى وَقَّاص ، وحَمْزَة ، وغيرهم .. ودارت الدائرة على المسلمين ، وأعملت قريش سيوفها ورماحها فيهم ، وتَهَيَّأت الفرصة لاختيار الضحايا والأخذ بالثأر ، خاصة لوَحْشِىّ الْحَبَشِىّ الذى وعده مولاه جُبَيْر بن مُطْعِم أن يعتقه إن هو قتل حمزة عم النبى ثأرًا لقتل عمِّه طُعَيْمَة ابن عَدِىّ الذى قُتِل ببدر ، كما وعدته هند بنت عُتْبَة بالمال الوَفِير كذلك للغرض

نفسه ، وهو قتل حمزة الذى قتل أباها وأخاها ببـــدر ، فتربص به وَحْشِىٌّ وانتهز فرصة انشغاله بقتال أحد المشركين فقذفه بِحَرْبَته التى كان لا يُخْطِئ الهدف أبدًا إذا رَمَى بـــها فوقعت فى بطن حمزة وخرجت من بين رجليه .. وكذلك قُتِل حَنْظَلَة بن أبى عامر فقال رسول الله (ﷺ) : إن صاحبكم لَتُغَسِّلُه الملائكة ، فَاسْأَلُوا أهْلَه ما شأنه !! فَسُئِلَت زوجته فقالت : خرج وهو جُنُب عندما سمع الْهَاتِفَة [1] .. لذلك لُقِّبَ بحَنْظَلَة الغَسيل [2] .. وقُتِل أيضًا مُصْعَب ابن عُمَيْر .. وكذلك عَمْرُو بن الْجَمُوح ، وقد كان كبير السِنِّ شديد العَرَج ، وقال له النبى (ﷺ) : أمَّا أنت فقد عَذَرَك الله فلا جهاد عليك ، ومع ذلك أصَرَّ على الخروج .. وكذلك خرج حُسَيْلُ بن جابر - أبو حُذَيْفَة بن الْيَمَان ، وكان شيخًا كبيرًا — على رغم أن النبى (ﷺ) خَلَّفَه مع النساء والصبيان بالمدينة ، وقد قتله المسلمون بأسيافهم دون أن يعرفوه ، فقد اختلط الحَابِلُ بالنَّابِلِ ، وكان أكْبَر هَمِّ كُلِّ مسلم أن يَنْجُو بنفسه ، فلم يكن عجبًا أن ترى مسلمًا يضرب مسلمًا بسيفه ولا يكاد يعرفه .. وصاح صائحٌ بالناس : إن محمدًا قد قُتِل ، فازدادت الفوضى ، وعَمَّت البَلِيَّة ، وانكشف المسلمون ، ورَمَى أَحَدُ المشركين رسولَ الله (ﷺ) فَكُسِرَت رَبَاعِيَّته [3] اليُمْنى السُّفْلى ، وجُرِحَت شَفَتُه السُّفلى ،

---

[1] الهاتفة : الدعوة للخروج للحرب .

[2] سيرة ابن هشام .

[3] الرباعية : السِّنّ بين الثنيّة والناب .

ودخلت حلقتان من حلق الْمِغْفَر [1] فى وَجْنَته فجعل الدم يسيل على وجهه فيمسحه (ﷺ) ويقول : كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ خَضَّبُوا [2] وَجْهَ نَبِيِّهِمْ بِالدَّمِ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ .. [3]

ولما سمعت قريش بمقتل النبى (ﷺ) تدافع رجالها إلى الناحية التى كان فيها ، وكُلٌّ يريد أن يكون له نصيب فى قتله أو التمثيل به ، وعندئذ أحاط المسلمون القريبون من رسول الله (ﷺ) به إحاطة السِّوار بالمِعْصَم ، وتمالك (ﷺ) نفسه ، وسار وأصحابه من حوله ، فإذا به يقع فى حفرة ، هنالك أسرع إليه علىّ بن أبى طالب فأخذ بيده ، ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى ، وسار مع المحيطين به يتسلقون جبل أُحُد ناجين من اتِّبَاع العدو لهم .. وكانت أم عِمَارة (نَسِيبَة بنت كَعْب الأنْصَارِيَّة) تتولى سِقَايَة المسلمين المجاهدين ، فلما انــهزموا أَلْقَت سِقَاءَها واسْتَلَّت سَيْفَها وقامت تقاتل به عن رسول الله (ﷺ) حتى أصابــها ابن قمئة المشرك بضربة على عاتقها .. وتَتَرَّسَ أبو دُجَانَة بنفسه دون رسول الله (ﷺ) ، فحَنَى ظهره عليه والنَّبْل يقع فى ظهره ، ولا يتحرك .. ووقف سعد بن أبى وقَّاص إلى جانب النبى (ﷺ) يرمى بالنَّبْل دونه ، وهو يناوله السهام ويقول له : ارْمِ سَعْدُ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي .. وملأ علىّ بن أبى طالب درعه

[1] الْمِغْفَر : الخوذة التى توضع على الرأس لحمايته . [2] خضبوا : صبغوا .
[3] رواه أحمد ، باقى مسند المكثرين .

بالماء فغسل النبى (ﷺ) به الدم عن وجهه ، وصَبَّ منه على رأسه .. وجاء أبو عُبَيْدة بن الْجَرَّاح يكاد يطير إلى النبى (ﷺ) فنـــزع حَلْقَتَى الْمِغْفَر من وجهه بأسنانه فسقطت ثَنِيَّتَاهُ [1] .. وانتهز خالد بن الوليد الفرصة وعلا الجبل على رأس فُرْسَان قريش ليصل إلى النبى (ﷺ) ، فتصدى لهم عُمَر بن الخطاب وجماعة من الأصحاب فَرَدُّوهم على أعقابـــهم ..

وأما الذين اعتقدوا أن النبى (ﷺ) قد مات فقد اتخذوا لأنفسهم مكانًا فى الجبل يحتمون به ، وتوقفوا عن القتال ، فرآهم أَنَسُ بن النَّضْر فقال : ما يُجْلِسُكم ؟! قالوا : قُتِلَ رسول الله (ﷺ) ! فقال : فما تَصْنَعُون بالحياة بعده ؟! قوموا فموتوا على ما مات عليه ! ثم استقبل المشركين فقاتل قتالاً شديدًا ، حتى إنه لم يُقْتَل إلا بعد أن ضُرِبَ سَبْعِين ضربة ، ولم يعرفه إلا أخته ، عَرَفَتْه من بَنَانه [2] ..

هذا .. وقد أمر النبى (ﷺ) أصحابه المحيطين به ألا يُكَذِّبُوا خَبَر مَوْته ، وراح أبو سفيان يتفقد القتلى من المسلمين باحثًا عن النبى (ﷺ) بينهم ، وهو غير مصدق أنه قُتِل .. على أن كَعْب بن مَالِك حين رأى أبا دُجَانَة حانِيًا ظهره يتلقى النَّبْل فيه ، ورأى مَنْ معه كطلحة ، وعلى ، وسعد أقبل إليهم فعرف النبى (ﷺ) حين رأى عينيه تَزْهَرَان [3] من تحت حلقات الْمِغْفَر فنادى بأعلى صوته :

---

[1] ثنيتاه : السِّنَّان الأماميتان .

[2] بنانه : أطراف أصابعه .

[3] تتلألآن وتُشْرِقان .

يا معشر المسلمين أبشروا !! هذا رسول الله ، فأشار النبى (ﷺ) إليه ليسكت ، لكن المسلمين قد سمعوا ففرحوا ، وسمعت قريش كذلك ، وإن كان أكثرهم لم يصدق بسبب زعم ابن قمئة لهم أنه قتل رسول الله بنفسه ، فقد اعتقد حين قَتَلَ مُصْعَبَ بن عُمَيْر أنه قد قَتَلَ النبى (ﷺ) ..

ولَمَّا سَمِعَ أُبَىّ بن خَلَف صيحة كَعْب بن مَالِك بأن رسول الله (ﷺ) حَىٌّ اندفع نحو الصحابة المحيطين به وهو يقول : أين محمد ؟ لا نجوتُ إن نجا – وكان أُبَىّ بن خَلَف يلقَى رسولَ الله (ﷺ) بمكة فيقول : يا محمد ، إن عندى العَوْذ فَرَسًا أَعْلفُه كل يوم فَرَقًا [1] من ذُرَة ، أَقْتُلُكَ عليه ، فيقول رسول الله (ﷺ) : بل أنا أَقْتُلُك عليه إن شاء الله – فقال بعض الأصحاب : يا رسول الله أيلقاه رجل منَّا ؟ فقال : دَعُوه .. فلما دَنَا تناول النبى (ﷺ) الْحَرْبَة من الحارث بن الصَّمَّة واستقبله بـــها فطعنه فى عُنُقه طعنة خَدَشَتْه خدشًا غير كبير ، فرجع إلى قريش وهو يقول : قتلنى والله محمد !! قالوا : ذَهَب والله فُؤَادُك ، والله إنْ بِكَ مِنْ بَأْس .. قال : إنه قد كان قال لى بمكة : أنا أقتلك ، فوالله لو بصق علىَّ لقتلنى .. ثم مات فى طريق عودته إلى مكة ..

هذا .. وقد طارت قريش فرحًا بنصرها ، وانتقامها لقتلاها ببدر .. وانطلقت هند بنت عُتْبَة هى والنسوة اللاتى معها يُمَثِّلْنَ بالقتلى من المسلمين ، يُقَطِّعْنَ أُنُوفهم ، وآذانـــهم ، وبَقَرَت [2] هند بَطْنَ حَمْزَة ، وأخرجت كَبِدَه ،

---

[1] الفرق : مكيال يسع اثنى عشر رطلاً .
[2] بقرت : شقت .

وجعلت تَلُوكُها بأسنانـــها فلم تَسْتَسِغْها .. وصاح أبو سفيان : يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْر ، والموعد العام القادم ، إنه قد كان فى قتلاكم مَثْلٌ [1] ، والله ما رَضِيتُ وما سَخِطْتُ ، وما نَهَيْتُ ومَا أَمَرْت ..

وانصرفت قريش بعد أن دفنت قتلاها ، وعاد المسلمون إلى ساحة المعركة لدفن قتلاهم ، فلما رأى النبى (ﷺ) حَمْزَة وما فُعِلَ به حَزِنَ أشد الحزن وقال : لولا أن تحزن صفية (أخت حمزة) ويكون سُنَّة من بعدى لتركته حتى يكون فى بُطُون السِّبَاع وحَوَاصِلِ الطير .. وقال : لن أصاب بمثلك أبدًا ، ما وقَفْتُ مَوْقفًا قَطُّ أغْيَظَ إِلَيَّ من هذا .. ثم قال : والله لئن أظْهَرَنا الله عليهم يومًا من الدهر لأُمَثِّلَنَّ بـــهم مُثْلَة لم يُمَثِّلها أَحَدٌ من العـــرب .. فنـــزل قول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [2] .. فعفا رسول الله (ﷺ) وصبر ونَهَى عن الْمُثْلَة .. وكان (ﷺ) يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِنْ قَتْلَى أُحُدٍ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ ثُمَّ يَقُولُ : أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ ؟ فَإِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَى أَحَدِهِمَا قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ وَقَالَ : أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. وَأَمَرَ بِدَفْنِهِمْ فِي دِمَائِهِمْ ، وَلَمْ يُغَسَّلُوا ، وَلَمْ يُصَلَّ عَلَيْهِمْ [3] ..

---

[1] مَثْلٌ : تمثيل بالجثث وتشويه .
[2] سورة النحل الآيات ١٢٦ ، ١٢٧ .
[3] رواه البخارى ، كتاب الجنائز .

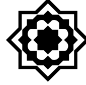
وانصرف المسلمون عائدين إلى المدينة وقد امتلأت نفوسهم بالأسى والأسف لِمَا أصابـــهم من هزيمة بعد نصر ، وأحاط بـــهم الغَمُّ والْهَمُّ ، بعد أن تركوا خلفهم سبعين شهيدًا من خِيرَة الرجال .. كل ذلك بسبب عصيان الرُّماة أَمْرَ النبى (ﷺ) ، واهتمام المسلمين بالغنيمة وانشغالهم بـــها عن العدو .. ومما زاد فى إحساسهم بالهوان ما ظهر على اليهود والمنافقين من أهل المدينة من شماتة وفرح وسرور عندما رأوا عودتـــهم مهزومين تُثْخِنهم جِرَاحُهُم ..

ولما كان الغَدُ من يوم أُحُد – وكان لست عشرة ليلة مضت من شوال – أَذَّن مُؤَذِّن النبى (ﷺ) فى المسلمين للخروج لملاحقة جيش المشركين على ألاَّ يخرج إلاَّ من حضر القتال فى أُحُد ، وخرج المسلمون على ما كان بـــهم من جراح وإصابات .. فلما سمع أبو سفيان بخروجهم وقع فى روعه أنـــهم جاءوا بمدد من المدينة ، وخاف من لقائهم ، فلجأ إلى الحيلة ، وأرسل من يُخبِر النبى (ﷺ) بأن أهل مكـــة قد أجمعوا على الذهاب إلى المدينة ليستأصلوا بقية المسلمين ، فلما بلغ الخبر النبى (ﷺ) لم يهتز ولم يَضْعُف عَزْمُه ، وظلَّ فى مكانه فى (حمراءِ الأسد) [1] ثلاثة أيام يوقد النار طيلة الليل ليؤكد لقريش أنه على عزمه فى انتظارهم ، مما دفع أبا سفيان ومَنْ معه أن يعودوا إلى مكة مُكْتَفِين بما حققوه من نصر ..

---

[1] موضع على بعد ثمانية أميال من المدينة .

وعاد النبى (ﷺ) ومَنْ معه إلى المدينة وقد استرد المسلمون كثيرًا من مكانتهم وهيبتهم التى تزعزت على إثر ما حدث بأُحُد .. وفى خروج النبى (ﷺ) هذا ومَنْ معه من المسلمين على رغم ما أصابهم من جراح نزل قول الله عز وجل : (ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾) (1) ..



(1) سورة آل عمران الآيات من ١٧٣ إلى ١٧٥ .

ما بعد أُحُد

حَرِص النبى (ﷺ) على أن يقف على أخبار أهل المدينة من مشركى الأوس والخزرج ، وأخبار يهود خيبر وبنى قريظة وبنى النضير ، كذلك على أخبار العرب جميعًا حتى يستعيد للمسلمين مكانتهم ، وهيبتهم فى النفوس ، فقد شعر بدقة الموقف ، وحرج المركز لا فى المدينة وحدها ، بل كذلك عند سائر قبائل العرب بعدما انتشرت أخبار هزيمة المسلمين فى أُحُد ..

وكان أول ما بَلَغَهُ بعد شهرين من أُحُد أن طُلَيْحَة وسَلَمَة ابنى خُوَيْلِد - وكانا على رأس بنى أسد - يُحَرِّضَان قومهما ، ومَنْ أطاعهما على السَّير إلى المدينة لمهاجمة المسلمين فى عُقْرِ دارهم ، والاستيلاء على النَّعَم التى تَرْعَى الزروع المحيطة بالمدينة — وقد شجعهم على ذلك اعتقادهم أن المسلمين تَضَعْضَعُوا وضَعُفُوا بعد ما أصابهم بأُحُد - فاستدعى النبى (ﷺ) أبا سَلَمَة بن عبد الأسد وعقد له لواء سَرِيَّة من مائة وخمسين رجلاً فيهم أبو عُبَيْدَة بن الجراح ، وسعد بن أبى وَقَّاص ، وأُسَيْد بن حُضَيْر ، وأمرهم بالسير ليلاً ، والاستخفاء نهارًا ، وسلوك طريق غير مطروق حتى لا يَطَّلِع على خبرهم أَحَدٌ فيأخذوا العدو على غِرَّة .. ونَفَّذ أبو سلمة الأمر ، وفاجأ العدو - الذى لم يستعد لقتال - فى عَمَايَة الصبح ، وشَرَّدَهم ، واستولى على الغنائم ، وعاد بها إلى المدينة ظافرًا ، وقد أعاد إلى النفوس شيئًا من هيبة المسلمين ، إلا أنه (رضي الله عنه) لم يَعِشْ طويلاً بعد

عودته بسبب جُرْحٍ كان قد أصابه يوم أُحُد ، فمات بالمدينة ..

هذا .. وكان خالد بن سفيان الْهُذَلِىّ - من بنى لِحْيَان من هُذَيْل - يجمع الناس ليغزو بهم المدينة ، فلما علم النبى (ﷺ) بذلك دعا إليه عبد الله ابن أُنَيْس ، وبعثه يتَحسَّس الأخبار حتى يقف على جَلِيَّة الأمر ، فسار عبد الله ابن أُنَيْس واستطاع أن يستدرج خالد بن سفيان ويقتله ، وعاد إلى النبى (ﷺ) وأخبره الخبر ..

وفكرت هُذَيْل فى الثأر لمقتل زعيمها ، فأرسلوا وفدًا من قبيلة تجاورهم إلى النبى (ﷺ) يزعمون أنهم يريدون الإسلام ، ويريدون مَنْ يُفَقِّههم فى الدين ويُقْرِئهم القرآن ، واستجاب النبى (ﷺ) كعادته لنشر دعوة الحق فأرسل معهم ستة من كبار أصحابه ليؤدُّوا هذه المهمة الدينية السامية ، فساروا معهم حتى إذا بلغوا مكانًا يقال له (الرَّجِيع) غَدَروا بهم ، واستصرخوا عليهم هُذَيْلاً ، وفوجئ الرجال الستة بمحاصرة رجال هذيل لهم وهم فى رِحَالِهم فَهَبُّوا للقتال ، فأقسم لهم رجال هذيل أنهم لا يريدون قتلهم وإنما يريدون تسليمهم إلى أهل مكة مقابل مال يحصلون عليه .. ونظر الرجال الستة بعضهم إلى بعض ، وقد أدركوا أن ذهابهم إلى مكة بهذا الأسلوب فيه من المذَلَّة والْهَوَان ما لا يرضاه لهم دينهم وأن القتل أهون عليهم من ذلك ، وعلى رغم قلة عددهم أخذوا سيوفهم وقاتلوا ، فَقُتِل منهم ثلاثة ، وهم : مرْثَد بن أبى مرْثَد الغَنَوِى ،

وخالد بن البكير الليثى ، وعاصم بن ثابت الذى كان قد أقسم ألاَّ يَمَسّ مشركًا ، ولا يَمَسَّه مشرك .. وأرادت هذيل أن تأخذ رأس عاصم لامرأة من مكة نذرت لئن قَدَرت على عاصم لتشربن فى رأسه الخمر انتقامًا لمقتل ولديها فى غزوة بدر ، فمنعه الدَّبْر [1] ، فقالوا : دعوه يُمْسِى فتذهب عنه الدَّبْر ونأخذه فى الصباح ، فأرسل الله سيلاً فى الوادى احتمل عاصمًا وذهب به ، فمنعه الله منهم فلم يَمَسَّه مشرك بعد وفاته كما لم يَمَسّ هو مشركًا فى حياته ..

هذا .. وقد أُسِرَ الثلاثة الآخرون ، وأخذتهم هُذَيْل وسارت بهم لتبيعهم بمكة ، وفى بعض الطريق استطاع أحد الثلاثة وهو عبد الله بن طارق أن يفك يده من الغُلّ ، وأخذ سيفه فقاتل به فقتلوه ، ثم ساروا بالأسيرْين الآخرْين ووصلوا إلى مكة ، فاشترى صَفْوَان بن أُمَيَّة زيدَ بن الدَّثِنَة ليقتله بأبيه أُمَيَّة بن خَلَف ، ودفعه إلى عَبْدٍ له ليقتله ، فلما جُهِّزَ للقتل قال له أبو سفيان : أَنْشُدُك الله يا زيد ، أَتُحِبّ أن محمدًا الآن عندنا فى مكانك تُضْرَب عُنُقُه وأنت فى أهلك ؟ فقال زيد : والله ما أُحِب أن محمدًا الآن فى مكانه الذى هو فيه تُصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس فى أهلى ، فعجب أبو سفيان وقال : ما رأيت من الناس أحدًا يحبه أصحابه ما يحب أصحابُ محمدٍ محمدًا .. وقُتِل زَيْد .. وذهب شهيدَ أَمَانَتِه لدينه ، وحُبِّه لرسول الله (ﷺ) .. وأما خُبَيْب بن عَدِىّ

---

[1] الدَّبْر : ذكور النحل .

فأخذه بنو الحارث وأوثقوه وسجنوه ، وساموه سوء العذاب محاولين أن يردوه عن دينه فلم يُفْلِحوا ، فأخبروه بمقتل زميله زيد بن الدثنة فلم يزده ذلك إلا إصرارًا على التمسك بدينه فقرروا قتله .. واستعار خبيب موسى من بعض بنات الحارث بن عامر الذى هو محبوس فى بيته ليزيل شعر عَانَتِه وإِبْطَيْه استعدادًا للقتل ، فدخل عليه صبى صغير فطار عقل أمه وأسرعت فوجدت خبيبًا قد أجلسه فى حَجْره والموسى فى يده فَفَزِعت فزعًا شديدًا ، فقال خبيب : أتحسبين أنى أقتله ؟! ما كنت لأفعل ذلك !! .. وتقول أم الصبى - بعد أن أسلمت - : وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ أَسِيرًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ خُبَيْبٍ ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَجَدْتُهُ يَوْمًا يَأْكُلُ قِطْفًا مِنْ عِنَبٍ فِي يَدِهِ ، وَإِنَّهُ لَمُوثَقٌ بِالْحَدِيدِ ، وَمَا بِمَكَّةَ مِنْ ثَمَرَةٍ ، إِنَّهُ لَرِزْقٌ رَزَقَهُ اللَّهُ خُبَيْبًا .. (١)

ولما أجمعوا على قتل خُبَيْب خرجوا به من الْحَرَم إلى التَّنْعيم ليقتلوه فى الحِلِّ ولا يقتلوه فى الْحَرَم ، فاستأذن أن يتركوه يصلى ركعتين فأذنوا له فَصَلَّى ثم قال : وَاللَّهِ لَوْلاَ أَنْ تَحْسَبُوا أَنَّ مَا بِي جَزَعٌ من الموتِ لَزِدْتُ .. فكان (رضي الله عنه) أول من سَنَّ صلاة ركعتين لِمَنْ يُقْتَل صبرًا (٢) .. ويقوم بنو الحارث بإعداد صليب من جذوع النخل ليصلبوا عليه خُبَيْبًا ، فينظر إليهم ويقول : اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا ، وَاقْتُلْهُمْ بَدَدًا ، وَلاَ تُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا ..

---

(١) رواه البخارى ، كتاب المغازى .

(٢) الذى ينتظر القتل كالمحكوم عليه بالإعدام ، وما إلى ذلك .

هذا .. وقد كان عاصم بن ثابت حين رأى غَدْرَ القوم بــهم قد اتَّجَه إلى الله قائلاً : اللهم إنَّا قد بَلَّغْنا رسالة رسولك فَبَلِّغْه الغَداة ما يُصْنَع بنا .. فنــزل جبريل فأخبر النبى (ﷺ) ، فأرسل الزبير بن العوام ، والمقداد بن عمرو بفرسَيْهما إلى حيث قُتِل عاصم بن ثابت ليدفنوه فلم يجدوه ، فقد حمله السيل بعيدًا ، و لم يُعْثَر لجثته على أثر .. وأرسل عَمْرو بن أُمَيَّةَ الضَّمْرِيِّ حيث صُلِبَ خبيب بن عدى لِدَفْنه حتى لا يَظَل مُعَلَّقًا على الصليب ، ويحكى عمرو فيقول : جِئْتُ إِلَى خَشَبَة خُبَيْبٍ وَأَنَا أَتَخَوَّفُ الْعُيُونَ ، فَرَقيتُ فيهَا فَحَلَلْتُ خُبَيْبًا ، فَوَقَعَ إِلَى الأَرْضِ ، فَانْتَبَذْتُ غَيْرَ بَعِيد ، ثُمَّ الْتَفَتُّ فَلَمْ أَرَ خُبَيْبًا ، وَلَكَأَنَّمَا ابْتَلَعَتْهُ الأَرْضُ ، فَلَمْ يُرَ لِخُبَيْبٍ أَثَرٌ حَتَّى السَّاعَةِ .. [1]

وقد حزن النبى (ﷺ) وأصحابه حزنًا شديدًا على هؤلاء الشهداء الستة الذين قُتِلوا غدرًا ، وهم ذاهبون لتعليم الناس دينهم وإنقاذهم من الضلال ، وقَنَت (ﷺ) شهرًا يَدْعُو على هؤلاء الذين قتلوا أصحابه : عاصم بن ثابت الأنصارى ، ذلك الفتى الشجاع كريم الأصل من شباب الأوس الذى حرص على تَلَقِّى القرآن من مُصْعَب بن عُمَير ، الذى أرسله النبى (ﷺ) إلى المدينة بعد بيعة العقبة الأولى لِيُفَقِّه أهلها .. وخبيب بن عدى زينة شباب الأوس ومن السابقين فى الإسلام ومن أشجع الأنصار وأشدهم تصلبًا فى الحق ، وكان ممن شهد بدرًا وأبلى فيها بلاء حسنًا ، والأربعة الآخرين (رضى الله عنهم أجمعين) ..

---

[1] رواه أحمد فى مسند الشاميين .

هذا .. وفى غمرة الحزن الذى أصاب النبى (ﷺ) والمسلمين لمقتل أولئك النفر من أصحابه ، جاء أبو براء عامر بن مالك – وكان رجلاً مسموع الكلمة فى قومه لا يخاف مَنْ أَجَارَهُ عَادية أحد عليه – فقال : يا محمد ، لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نَجْد فَدَعَوْهم إلى أمرك رَجَوْتُ أن يستجيبوا لك ، ولا تخشَ عليهم فأنا جَارٌ لهم [1] .. فبعث النبى (ﷺ) الْمُنْذِر بن عمرو فى أربعين رجلاً من خيار الصحابة ، فساروا حتى نزلوا بِئْرَ مَعُونَة ، ومن هناك بعثوا حرام بن مِلْحان إلى عامر بن الطُّفَيْل بكتاب النبى (ﷺ) الذى يدعوه فيه إلى الإسلام ، فلم ينظر فى الكتاب وقتل حَامِلَه ، وأرسل إلى بنى عامر يُحَرِّضهم على قتل المسلمين ، فلم يستجيبوا له كَىْ لا يُخْفِروا ذِمَّة أبى براء وجِوَاره ، فاستصرخ قبائل أخرى من عُصَيَّة ، ورِعْل ، وذَكْوَان فاستجابوا له وخرجوا معه حتى أحاطوا بأصحاب النبى (ﷺ) وهم فى رحالهم ، فأخذ الأصحاب سيوفهم وقاتلوا حتى قُتِلوا جميعًا ، ولم يَنْج منهم إلا عمرو بن أُمَيَّة الذى تركه عامر بن الطفيل عن رَقَبَةٍ زَعَم أنـــها كانت نَذْرًا على أُمِّه ، وكذلك كعب بن زيد الذى تركه المعتدون وبه رمق ، وعاد كل منهما إلى المدينة ، وفى الطريق لَقِىَ عمرو بن أمية رجلين من بنى عامر من قوم أبى براء فقتلهما انتقامًا لمقتل أصحابه – ولم يعلم أن معهما عقد جوار من النبى (ﷺ) – وحين وصل إلى المدينة وأخبر النبى (ﷺ) بما صنع قـــال : لقد قتلت قتيلين لأَدِيَنَّهما [2] .. وحين علم أبو براء أن عامر بن الطفيل قد أَخْفَر ذِمَّته ، ولم

(1) جار لهم : مسئول عن سلامتهم .

(2) لأَدِيَنَّهما : لأدفَعنَّ دِيَةَ القتل الخطأ لأهلهما .

يَرْع جِوَاره أرسل ابنه ربيعة فقتله انتقامًا منه .. وحزن النبى (ﷺ) على أصحابه حزنًا شديدًا ، وظل يَقْنُت فى صلاة الفجر شهرًا يدعو على قبائل عُصَيَّة ، ورِعْل ، وذَكْوَان ..

هذا .. وعلى رغم الأحداث الجسام التى كانت تقع فى تلك الفترة فإن الحياة الاجتماعية للنبى (ﷺ) ورعايته لأصحابه وأُسَرِ من استشهد منهم لم تتوقف ، فبعدما قُتِلَ عبد الله بن جحش فى غزوة أُحُد وتَأَيَّمت امرأته السيدة زَيْنَب بنت خُزَيْمَة الهلالية (رضى الله عنها) - وكانت تلقب بأم المساكين - تزوَّجها النبى (ﷺ) وعاشت معه فترة لم تتجاوز الأشهر الثلاثة ، ثم تُوفِّيَت (رضى الله عنها) .. وكذلك تزوج النبى (ﷺ) من السيدة أم سَلَمَة بنت أبى أُمَيَّة بن الْمُغِيرة (رضى الله عنها) ليرعى صغارها بعدما مات زوجها أبو سَلَمَة بن عبد الأسد بالمدينة بعد عودته من غزوة بنى أسد بسبب جُرْح كان قد أُصِيب به فى غزوة أُحُد والتأم ظاهريًّا وتحرك عليه نتيجة ما بذل من جهد فى غزوة بنى أسد ..

وتمضى الأيام وينـــزل الأمر الإلهى [1] إلى النبى (ﷺ) أن يتزوج بالسيدة زينب بنت جحش (رضى الله عنها) بعد أن طلقها زيد بن حارثة - الذى تبناه النبى (ﷺ) قبل البعثة وقبل تحريم التبنى - لإبطال عُرْف العرب فى الجاهلية بتحريم الزواج بزوجات الأبناء بالتَّبَنِّى .. وبزواجه (ﷺ) بـــها فُرِض الحجاب على أمهات المؤمنين [2] ، وكان ذلك بعد غزوة الأحزاب ..

(1) سورة الأحزاب آية ٣٧ .

(2) سورة الأحزاب الآية ٥٣ .

إجلاء بنى النَّضير

كان يهود بنى النضير حلفاء لبنى عامر الذين قُتِلَ منهم الرجلان اللذان قَتَلَهما عمرو بن أمية خطأً ، فذهب النبى (ﷺ) فى عشرة من أصحابه بينهم أبو بكر ، وعمر ، وعلىّ إلى حصون بنى النضير - حيث يقيمون قريبًا من قُباء - يطلب معاونتهم فى دِيَة القتيلين ، فأظهروا موافقتهم على ذلك وتباسطوا معه فى الكلام ، وكانوا فى الوقت نفسه يتآمرون لقتله ، فدخل أحدهم البيت الذى كان النبى (ﷺ) مستندًا إلى جداره ، وصعد إلى سطحه ليرمى عليه بحجر كبير ، فقام النبى (ﷺ) من مكانه تاركًا أصحابه وراءه يظنون أنه قام لبعض شأنه ، فلما تأخر عليهم قاموا فى طلبه ، فلقيهم رجل مقبل من المدينة فأخبرهم أن رسول الله (ﷺ) عاد إلى المدينة ، فذهبوا إليه فى المسجد فأخبرهم بما أُوحِىَ إليه من أمر تدبير اليهود وتآمرهم عليه ، ثم دعا محمد بن مَسْلَمَة وقال له : اذهب إلى يهود بنى النضير وقل لهم : إن رسول الله (ﷺ) أرسلنى إليكم أن اخرجوا من بلادى ، لقد نَقَضْتُم العهد الذى جعلتُ لكم بما هممتم به من الغَدْرِ بى ، لقد أجَّلْتُكم عشرًا ، فمَنْ رُئِىَ بعد ذلك ضُرِبَت عُنُقُه .. ولم يجد اليهود جوابًا إلا أن قالوا : يا محمد ، ما كنا نرى أن يأتى بهذا رجل من الأوس !! - إشارة إلى تحالفهم وإياهم من قبل فى حربهم مع الخزرج - فلم يزد محمد بن مسلمة إلا أن قال : لقد تغيرت القلوب ..

وأخذ بنو النضير يتجهزون للجلاء ، ويحزمون أمتعتهم ، وإذا برسولين من قِبَلِ عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سَلُول يأتيان فيقولان لهم : لا تخرجوا من دياركم وأموالكم ، وأقيموا فى حصونكم ، فإن معى ألفين من قومى وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصونكم ، ويموتون عن آخرهم قبل أن يُوصَلَ إليكم .. وتشاور بنو النضير فى مقالة ابن سلول فرأى بعضهم أن ابن سلول غير موثوق به ، وأنهم إن خرجوا إلى مكان قريب طاعة للنبى (ﷺ) استطاعوا أن يعودوا حين يُثْمِر نخيلُهم ، فيجنوا ثماره ، ويعودوا أدراجهم ، فلا يكونوا قد خسروا كثيرًا ، لكن زعيمهم حُيَىَّ بن أخطب قال : كلا ، بل أنا مُرْسِلٌ إلى محمد أنَّا لا نخرج من ديارنا وأموالنا فليصنع ما بدا له ، وما علينا إلا أن نُرَمِّم حصوننا ونُدْخِل إليها ما شئنا ، وعندنا من الطعام ما يكفينا سنة ، وماؤنا لا ينقطع ، ولن يَحْصُرَنا محمد سنة كاملة ، فنزل اليهود على رأى زعيمهم ، وانقضت الأيام العشرة ، ولم يخرجوا من ديارهم .. فأمر النبى (ﷺ) بالتَّهَيؤ لحربهم ، والسير إليهم فحاصرهم ست ليال ، فتحصنوا فى الحصون فقاتلهم المسلمون عشرين ليلة من دار إلى دار ، ومن حصن إلى حصن ، وكان اليهود كلما انهزموا فى دار أو حصن خَرَّبوه ، وانتقلوا إلى غيره .. فأمر النبى (ﷺ) أصحابه أن يقطعوا نخل اليهود حتى لا يتحمسوا للقتال ، وجَزِع اليهود ونادوا : يا محمد ، قد كنت تنهى عن الفساد ، وتَعِيبه على مَنْ صَنَعه ، فما بال قطع النخل وتحريقها ؟! فنزل قول الله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ

ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝) [1] .. وانتظر اليهود ما وعدهم به عبد الله بن أُبيٍّ ابن سلول من القتال معهم دون جدوى ، وتَيَقَّنُوا من سوء مصيرهم إن هم استمروا فى القتال ، فأرسلوا إلى النبى (ﷺ) يطلبون منه الأمان على دمائـــهم ، وأموالهم ، وذراريهم حتى يخرجوا من المدينة ، فصالحهم النبى (ﷺ) على أن يخرجوا منها ، ولكل ثلاثة منهم بعير يحملون عليه ما شاءوا من مال وطعام وشراب ، فخرجوا ونـــزل بعضهم خَيْبَر ، وسار الآخرون إلى أَذْرِعات بالشام .. وغنم المسلمون ما تركه اليهود وراءهم من سلاح ، وطعام ، أما الأرض التى كانوا يملكونـــها فقد أمر الله تعالى أن تكون لرسوله (ﷺ) يَضَعُها حيث شاء ، فقسمها (ﷺ) على المهاجرين الأوَّلين خاصة ، فاسْتَغْنوا بـــها عن مشاركة الأنصار فى أرضهم التى عادت إلى الأنصار ، واستبقى رسول الله (ﷺ) قِسْما من الأرض خُصِّصت غَلَّتُه للفقراء واليتامى والمساكين ، وأصبح الجميع فى استغناء بفضل الله تعالى .. وفى قصة بنى النضير وجلائـــهم نزلت سورة الحشر ..

وبعد جلاء بنى النضير اطمأن المسلمون بالمدينة ، واغْتَبَط المهاجرون بما أصابوا من أرض اليهود ، واغْتَبَط الأنصار باستغناء المهاجرين عن معونتهم ، واستراح الجميع حتى إذا استدار العام منذ غزوة أُحُد تذكَّر المسلمون قول أبى سفيان : يومٌ بيوم بَدْر ، والموعد العام المقبل .. فتجهز المسلمون للقتال ، وخرجوا إلى بَدْر ينتظرون قريشًا ، وخرجت قريش مع أبى سفيان الذى بدا له

---

[1] سورة الحشر آية ٥ .

أن يرجع بعد مسيرة يومين ، فنادى : يا معشر قريش ، إنه لا يُصْلِحكم إلا عام خصيب ، وإن عامكم هذا جَدْب ، وإنى راجع فارجعوا .. فَرَجَع الجميع .. لكن النبى (ﷺ) أقام حيث نزل ببدر ثمانية أيام متوالية يتاجر المسلمون خلالها ، فقد كانت بدر موسمًا للعرب ، ثم عاد المسلمون إلى المدينة فرحين مستبشرين وقد ربحت تجارتــهم بفضل الله .. وإنــهم لكذلك إذ عَلِمُوا أن جماعة من غَطَفان بنَجْد يجمعون الجموع لمهاجمة المدينة ، فخرج النبى (ﷺ) فى أربعمائة من أصحابه وسار حتى نزل ذات الرِّقَاع حيث اجتمع بنو مُحَارب وبنو ثَعْلَبة من غَطَفان ، فلما رأوه ورجاله فرُّوا تاركين وراءهم نساءهم ومتاعهم فَغَنِمها المسلمون واحتملوها معهم إلى المدينة ، وقد صَلُّوا وهم بالطريق صلاة الخوف ، وتناوبوا الحراسة خشية رَجْعَةِ العدو عليهم ..

هذا .. وقد خرج النبى (ﷺ) بعد فترة وجيزة إلى غزوة أخرى هى غزوة دُوْمَة الْجَنْدَل – وهو مكان يقع على الحدود بين الحجاز والشام – لقتال القبائل التى كانت تُغِير على القوافل ، فلم يقابل منهم أحدًا لأنــهم ما لبثوا حين سمعوا بقدومه أن أخذهم الرعب والفزع فَوَلَّوْا مدبرين ، وتركوا وراءهم ما غَنِمَه المسلمون ..

وعاد المسلمون إلى المدينة وقد اطمأنوا بعد جلاء بنى النَّضير عنها ، وبعد بَدْر الآخرة ، وبعد غزوتى غَطَفان ودُوْمَة الْجَنْدَل ، وبدأوا يُنَظِّمون أمورهم ومعيشتهم ، ولكنهم كانوا على حذر من غدر عدوهم الذى كان متوقعًا فى كل لحظة ..

غزوة الخندق

لم يهدأ بنو النضير بعد جلائهم عن المدينة ، بل سَعَوْا للأخذ بالثأر من النبى (ﷺ) ، وكانت وسيلتهم لذلك هى تأليب العرب على المسلمين ، وتجميعهم لمحاربتهم والقضاء عليهم ، وبدأوا بأَلَدِّ الأعداء ، فذهب زعماؤهم حُيَىّ بن أخطب ، وسلام بن أبى الحقيق ، وكِنانة بن أبى الحقيق إلى قريش بمكة وزعموا لهم أنهم يستعدون لقتال المسلمين ، وأنهم ينتظرون أن يشاركوهم الأخذ بالثأر ، فترددت قريش لعدم ثقتهم باليهود ، وقالوا لهم : يا معشر يهود ، إنكم أهل الكتاب الأول ، وأهل العلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ فقالت اليهود : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه !! فارتاحت قريش لذلك .. وفى موقف اليهود هذا وتفضيلهم للوثنية وعبادة الأصنام على التوحيد الذى يدعو إليه النبى (ﷺ) نزلت آيات من سورة النساء [1] تفضحهم إلى أن تقوم الساعة ..

هذا .. ولم يكتف اليهود بالاتفاق مع قريش بل خرجوا إلى قبائل غَطَفان ، وبنى مُرَّة ، وبنى فَزَارة ، وأَشْجَع ، وسُلَيْم ، وبنى سَعْد ، وبنى أَسَد ، وكل مَنْ لهم عند المسلمين ثأر يحرضونهم على الأخذ بثأرهم ، ويخبرونهم بأن قريشًا معهم .. وهكذا تجمعت الأحزاب فى عشرة آلاف مقاتل تحت قيادة

[1] الآيتان ٥١ ، ٥٢ .

أبى سفيان ، وساروا جميعًا إلى المدينة المنورة ، ووصل خبر هذا الحشد إلى المسلمين ففزعوا فزعًا شديدًا ، فكيف لهم أن يواجهوا هذه الألوف المؤلفة من رجال ، وخيل ، وإبل ، وأسلحة لم يشهد لها العرب من قبل مثيلاً .. وقد كانت لهم تجربة من قبل حين خرجوا لمواجهة قريش وحدها فى غزوة أُحُد فكان من أمرهم ما كان ، فكيف لو خرجوا لهؤلاء ؟! وهل لو تحصنوا بالمدينة سينفعهم ذلك أو يجدى ؟ ..

وعندئذ أشار سَلْمَان الفارسى – الذى كان يعرف من أساليب الحرب ما لم يعرفه العرب – بحفر خندق حول المدينة ، وتحصينها من الداخل .. وأخذ النبى (ﷺ) بمشورة سَلْمان ، وأخذ يحفر بنفسه مع أصحابه فى جهد متواصل لمدة ستة أيام .. يقول جابر بن عبد الله : إِنَّا يَوْمَ الْخَنْدَقِ نَحْفِرُ ، فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ [١] شَدِيدَةٌ ، فَجَاءُوا النَّبِيَّ (ﷺ) فَقَالُوا : هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الْخَنْدَقِ ، فَقَالَ : أَنَا نَازِلٌ ، ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ .. وَلَبِثْنَا ثَلاثَةَ أَيَّامٍ لاَ نَذُوقُ ذَوَاقًا ، فَأَخَذَ النَّبِيُّ (ﷺ) الْمِعْوَلَ فَضَرَبَ فَعَادَ كَثِيبًا أَهْيَلَ – أَوْ أَهْيَمَ – فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، ائْذَنْ لِي إِلَى الْبَيْتِ ، فَقُلْتُ لامْرَأَتِي : رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ (ﷺ) شَيْئًا مَا كَانَ فِي ذَلِكَ صَبْرٌ ، فَعِنْدَكِ شَيْءٌ ؟ قَالَتْ : عِنْدِي شَعِيرٌ ، وَعَنَاقٌ [٢] .. فَذَبَحْتُ الْعَنَاقَ ، وَطَحَنَتِ الشَّعِيرَ ، حَتَّى جَعَلْنَا اللَّحْمَ فِي الْبُرْمَةِ .. ثُمَّ جِئْتُ النَّبِيَّ (ﷺ)

---

[١] الكدية : القطعة الصلبة من الأرض .

[٢] العناق : الأنثى من المعز إذا قويت ما لم تستكمل سنة .

وَالْعَجِينُ قَد انْكَسَرَ ، وَالْبُرْمَةُ بَيْنَ الأَثَافِيِّ [1] قَدْ كَادَتْ أَنْ تَنْضَجَ ، فَقُلْتُ : طُعَيِّمٌ لِي ، فَقُمْ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّه ، وَرَجُلٌ ، أَوْ رَجُلاَن .. قَالَ : كَمْ هُوَ ؟ فَذَكَرْتُ لَهُ .. قَالَ : كَثِيرٌ طَيِّبٌ .. قَالَ : قُلْ لَهَا لاَ تَنْزِعِ الْبُرْمَةَ وَلاَ الْخُبْزَ مِنَ التَّنُّورِ [2] حَتَّى آتِيَ .. فَقَالَ : قُومُوا .. فَقَامَ الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ .. فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى امْرَأَته قَالَ : وَيْحَكِ جَاءَ النَّبِيُّ (ﷺ) بِالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَمَنْ مَعَهُمْ ! قَالَتْ : هَلْ سَأَلَكَ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ .. فَقَالَ : ادْخُلُوا ، وَلاَ تَضَاغَطُوا [3] .. فَجَعَلَ يَكْسِرُ الْخُبْزَ ، وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ ، وَيُخَمِّرُ [4] الْبُرْمَةَ وَالتَّنُّورَ إِذَا أَخَذَ مِنْهُ ، وَيُقَرِّبُ إِلَى أَصْحَابِهِ ، ثُمَّ يَنْزِعُ ، فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ الْخُبْزَ وَيَغْرِفُ حَتَّى شَبِعُوا وَبَقِيَ بَقِيَّةٌ .. قَالَ : كُلِي هَذَا ، وَأَهْدِي ، فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ .. [5]

وعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ : أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّه (ﷺ) بِحَفْرِ الْخَنْدَق .. قَالَ : وَعَرَضَ لَنَا صَخْرَةٌ فِي مَكَانٍ مِنَ الخَنْدَق لاَ تَأْخُذُ فِيهَا الْمَعَاوِلُ .. قَالَ : فَشَكَوْهَا إِلَى رَسُولِ اللَّه (ﷺ) ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) فوَضَعَ ثَوْبَهُ ثُمَّ هَبَطَ إِلَى الصَّخْرَةِ ، فَأَخَذَ الْمِعْوَلَ فَقَالَ : بِسْمِ اللَّه .. فَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ .. وَقَالَ : اللَّهُ أَكْبَرُ ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ ! .. وَاللَّه إِنِّي لأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا .. ثُمَّ قَالَ : بِسْمِ اللَّهِ .. وَضَرَبَ أُخْرَى ، فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ ،

---

[1] الحجارة التى تنصب وتوضع عليها القدر .

[2] التنور : الفرن .

[3] تضاغطوا : تزاحموا .

[4] يخمر : يغطى .

[5] رواه البخارى ، كتاب المغازى .

فَقَالَ : اللَّهُ أَكْبَرُ ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ ! .. وَاللَّه إِنِّي لأُبْصِرُ الْمَدَائِنَ ، وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا .. ثُمَّ قَالَ : بِسْمِ اللَّهِ .. وَضَرَبَ ضَرْبَةً أُخْرَى ، فَقَلَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ ، فَقَالَ : اللَّهُ أَكْبَرُ ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ ! .. وَاللَّهِ إِنِّي لأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا .. [1]

هذا .. وقد تم تحصين منازل المدينة التى بالداخل ، وجُمِع فيها النساء والأطفال ، وأخليت المنازل التى من وراء الخندق ، وتم جمع أحجار كثيرة وُضِعت إلى جانب الخندق من ناحية المدينة لتكون سلاحًا يُرْمَى به عند الحاجة .. وأقبلت الأحزاب وهى تتوقع أن تلقى المسلمين بأُحُد فلم تجد عنده أَحَدًا ، فسارت إلى المدينة ، وإذا بالخندق يفاجئها فأسقط فى يدها !! و لم تجد أمامها إلا أن تعسكر وراءه ، وأما المسلمون الذين لم يتجاوز عددهم الآلاف الثلاثة فقد جعلوا ظهورهم إلى جبل سَلْع بالمدينة ، والخندق بينهم وبين الأحزاب .. ورأت قريش ومَنْ معها من العرب ألا سبيل إلى اجتياز الخندق فاكتفت بتبادل الرَّمى بالنَّبْل عدة أيام متتالية .. وبدأ اليأس يَتَطَرَّق إلى نفوس هؤلاء الذين توقعوا نصرًا سريعًا ميسورًا لا يكلفهم إلا يومًا واحدًا كيوم أُحُد ، وها هم أولاء فى هذا البرد القارس أيامًا لا يعلمون كم تستمر ، وخيامهم لا تحميهم ، وها هم المسلمون متحصنون فى مدينتهم وعندهم ثمارهم التى تمدهم

---

[1] رواه أحمد فى مسند الكوفيين .

بـــها يهود بنى قريظة الذين عاهدهم النبى (ﷺ) ، وذلك يطيل أمد مقاومتهم للحصار أيامًا وشهورًا ، وأخذوا يفكرون فى أن يعودوا أدراجهم .. فلما رأى حُيَىّ بن أَخْطَب زعيم يهود بنى النضير ذلك زعم للأحزاب أنه قادر على إقناع بنى قريظة بنقض العهد مع النبى (ﷺ) ، والانضمام إليهم ، ومنع التموين عن المسلمين ، وفَتْح الطريق للأحزاب لدخول المدينة دون أن يشعر المسلمون .. واطمأنت قريش ومَنْ معها لرأى حُيَىّ بن أخطب وانتظروا ما هو فاعل .. وذهب هو إلى حصن بنى قريظة ونادى على رئيسهم كعب بن أسد الذى أغلق دونه بابه ، فجعل حُيَىّ يكلمه ويحاول معه حتى فتح له باب الحصن فدخل وأخذ يحكى له عن تجمع الأحزاب وقوتـــهم ، وأن هذه هى الفرصة الأخيرة للقضاء على المسلمين ، واستئصالهم حتى تخلو المدينة لهم .. فذكر له كعب وفاءِ محمد لهم وصدقه فى عهده معهم ، وأن الأحزاب لو رجعت ولم تنتصر على المسلمين كان ذلك قضاء على بنى قريظة ومحوها من الوجود .. فقال حُيَىّ : ويحك يا كعب ، جئتك بِعِزِّ الدهر ، جئتك بقريش ، وبغَطَفان مع قادتـــها وسادتـــها ، وقد عاهدونى وعاقدونى على ألاَّ يبرحوا حتى نستأصل محمدًا ومَنْ معه ، وأخذ يكلمه حتى لان كعب وسأله : وماذا يكون إذا ارتدت الأحزاب ؟ فأعطاه حُيَىّ عهدًا إن رجعت الأحزاب أن يدخل معه فى حصنه ويشركه فى مصيره .. فتحركت نفس كعب الخبيثة ، واستراح لكلام حُيَىّ ، ونقض عهده مع رسول الله (ﷺ) ..

وحين علم النبى (ﷺ) بذلك أرسل سعد بن مُعَاذ سيد الأوس ، وسعد ابن عُبَادة سيد الخزرج مع بعض الصحابة إلى بنى قريظة ليقفوا على جلية الأمر ، على أن يُعَرِّضوا بالكلام عند عودتـــهم حتى لا يهتز المسلمون إن كان الخبر صحيحًا .. وذهب الرسل إلى بنى قريظة فاستقبلوهم أسوأ استقبال .. وحين حذَّروهم من عواقب نقضهم للعهد مع رسول الله (ﷺ) وقعوا فيه وقال كعب : مَنْ رسول الله ؟؟ لا عهد بيننا وبين محمد ، ولا عقد ..

ورجع الرُّسُل إلى النبى (ﷺ) وأخبروه بما قاله كعب بن أسد ، فعَظُم البلاء ، واشتد الخوف ، إذ لو فتحت قريظة الطريق للأحزاب لدخلوا المدينة واستأصلوا المسلمين عن آخرهم ..

هذا .. وقد انتشر خبر تحالف بنى قريظة مع الأحزاب ونقضهم لعهدهم مع النبى (ﷺ) بين المسلمين ، فَزُلْزِلُوا زلزالاً شديدًا ، وزاغت أبصارهم ، وبلغت قلوبـــهم الحناجر ، وأخذ المنافقون يستأذنون رسول الله (ﷺ) ليعودوا من الخندق إلى بيوتـــهم زاعمين أنـــها مكشوفة ، وهم يَتَخَوَّفُون على نسائهم وأطفالهم .. ونزلت الآيات [1] من سورة الأحزاب تصف موقف المنافقين ، وموقف المؤمنين الصادقين .. وأما على الجانب الآخر فقد اطمأن الأحزاب إلى وقوف بنى قريظة معهم ، واستعدادهم لفتح الطريق إلى المدينة لهم ، وإن كانوا

---

[1] الآيات من ١٠ إلى ٢٤ ..

قد أمهلوهم عشرة أيام يستعدون فيها للقتال .. وبدأ الغرور يدخل فى نفوسهم ، وانفتحت شهيتهم للقتال ، واقتحم عمرو بن وُدّ أحد فرسان قريش الخندق من مكان ضيق فيه ، ونادى فى المسلمين : هَلْ مِنْ مُبَارِزٍ ؟ فَقَامَ عَلِيٌّ (رضي الله عنه) وَهُوَ مُقَنَّعٌ بِالْحَدِيدِ فقَالَ : أَنَا لَهُ يَا نَبِيَّ اللهِ ! .. فَقَالَ : إِنَّهُ عَمْرٌو اجْلِسْ .. وَنَادَى عَمْرٌو : أَلاَ رَجُلٌ يُنَبِّئُهُمْ وَيَقُولُ أَيْنَ جَنَّتُكُمُ التي تَزْعُمُونَ أَنَّهُ مَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ دَخَلَهَا ؟! .. أَفَلاَ تُبْرِزُونَ لِي رَجُلاً ؟! .. فَقَامَ عَلِيٌّ فَقَالَ : أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ ! .. فَقَالَ : اجْلِسْ إِنَّهُ عَمْرٌو .. ثُمَّ نَادَى الثَّالِثَةَ ، فَقَامَ عَلِيٌّ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ أَنَا لَهُ ! .. فَقَالَ : إِنَّهُ عَمْرٌو ! .. فَقَالَ : وَإِنْ كَانَ عَمْرًا ! فَأَذِنَ لَهُ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) ، فَمَشَى إِلَيْهِ عَلِيٌّ حَتَّى أَتَاهُ ، فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : أَنَا عَلِيّ ! قَالَ : ابْنُ عَبْدِ مَنَافٍ ؟ قَالَ : أَنَا ابْنُ أَبِي طَالِبٍ .. ثم استطرد قائلا : يَا عَمْرُو ، إِنَّك قَدْ كُنْت عَاهَدْت اللهَ أَلاَّ يَدْعُوك رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى إِحْدَى خُلَّتَيْنِ إِلاَّ أَخَذْتَهَا مِنْهُ .. قَالَ لَهُ : أَجَلْ .. قَالَ لَهُ عَلِيّ : فَإِنِّي أَدْعُوك إِلَى اللهِ ، وَإِلَى رَسُولِهِ ، وَإِلَى الإِسْلاَمِ .. قَالَ : لاَ حَاجَةَ لِي بِذَلِكَ .. قَالَ : فَإِنِّي أَدْعُوك إِلَى النِّزَالِ .. فَقَالَ : غَيْرَك يَا ابْنَ أَخِي مِنْ أَعْمَامِك مَنْ هُوَ أَسَنّ مِنْك ، فَوَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَك .. قَالَ لَهُ عَلِيّ : لَكِنِّي وَاللهِ أُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَك .. فَحَمِيَ عَمْرٌو عِنْدَ ذَلِكَ فَاقْتَحَمَ عَنْ فَرَسِهِ فَعَقَرَهُ ، وَضَرَبَ وَجْهَهُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى عَلِيّ فَتَنَازَلاَ وَتَجَاوَلاَ ، فَقَتَلَهُ عَلِيٌّ (رضي الله عنه) ..

وأقبل نَوْفَل بن عبد الله بن الْمُغِيرة محاولاً اقتحام الخندق بعد غروب الشمس ، فسقط فيه فصُرِع هو وفَرَسُه .. وعرض أبو سفيان مائة من

الإبـــل – قيمة دية القتيل – للحصول على جثته ، فَأَبى النبى (ﷺ) أن يقبل من المشركين شيئًا ، وقال : ادْفَعُوا إِلَيْهِمْ جِيفَتَهُمْ [1] ، فَإِنَّهُ خَبِيثُ الْجِيفَةِ ، خَبِيثُ الدِّيَةِ .. [2]

وأخذت قريش ومَنْ معها يوقدون النيران طوال الليل لتخويف المسلمين ، وتشجع بعض يهود بنى قريظة فنـــزلوا من حصونـــهم وأخذوا يتجوَّلون حول بيوت المسلمين القريبة منهم لإرهاب مَنْ فيها من النساء والأطفال ، فرأت السيدة صَفِيَّة بِنْت عَبْدِ الْمُطَّلب عمَّة النبى (ﷺ) أحد اليهود يُطِيفُ بِالْحِصْنِ الذى هى فيه ، فقالت لحَسَّان بْن ثَابت – وكان فى الحصن مَعَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَان – : يَا حَسَّانُ ، إنَّ هَذَا الْيَهُودِيّ كَمَا تَرَى يُطِيفُ بِالْحِصْنِ ، وَإِنِّي وَاللهِ مَا آمَنُهُ أَنْ يَدُلَّ عَلَى عَوْرَتِنَا مَنْ وَرَاءَنَا مِنْ يَهُودَ ، وَقَدْ شُغِلَ عَنَّا رَسُولُ اللهِ (ﷺ) وَأَصْحَابُهُ ، فَانْزِلْ إِلَيْهِ فَاقْتُلْهُ ، فقَالَ حَسَّان : يَغْفِرُ اللهُ لَكِ يَا ابْنَةَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَاللهِ لَقَدْ عَرَفْتِ مَا أَنَا بِصَاحِبِ هَذَا ! [3] .. فأخذت السيدة صفية عمودًا ونزلت من الحصن وضربت به اليهودى فقتلته .. ثم رجعت فقالت : يَا حَسَّانُ انْزِلْ إِلَيْهِ فخذ سَلَبَه [4] ، فَإِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي مِنْ سَلَبِهِ إلاَّ أَنَّهُ رَجُلٌ ، قَالَ : مَا لِي بِسَلَبِهِ مِنْ حَاجَةٍ .. [5]

---

[1] الجيفة : جثة الميت إذا أنتنت .

[2] رواه أحمد فى مسند بنى هاشم .

[3] قيل : إنه كان مريضًا .

[4] سلبه : يقصد به سلاحه ومتاعه .

[5] سيرة ابن هشام .

هذا .. وقد عرض النبى (ﷺ) على زعماء غَطَفان ثلث ثمار المدينة على أن يرجعوا بِمَنْ معهم عن المدينة ، واستدعى سَعْد بن مُعَاذ ، وسَعْد بن عُبَادة سيدى الأوس والخزرج ، وعرض عليهما ذلك الرأى فقالا له : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَمْرًا تُحِبُّهُ فَنَصْنَعُهُ ، أَمْ شَيْئًا أَمَرَكَ اللهُ بِهِ لاَبُدَّ لَنَا مِنْ الْعَمَلِ بِهِ ، أَمْ شَيْئًا تَصْنَعُهُ لَنَا ؟ .. قَالَ : بَلْ شَيْءٌ أَصْنَعُهُ لَكُمْ .. وَاللهِ مَا أَصْنَعُ ذَلِكَ إِلاَّ لأَنَّنِي رَأَيْتُ الْعَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَكَالَبُوكُمْ [1] مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَكْسرَ عَنْكُمْ مِنْ شَوْكَتِهِمْ إِلَى أَمْرٍ مَا .. فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذ : يَا رَسُولَ اللهِ ، قَدْ كُنَّا نَحْنُ وَهَؤُلاَءِ الْقَوْمُ عَلَى الشِّرْكِ بِاللهِ وَعِبَادَةِ الأَوْثَانِ ، لاَ نَعْبُدُ اللهَ وَلاَ نَعْرِفُهُ ، وَهُمْ لاَ يَطْمَعُونَ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْهَا تَمْرَةً إِلاَّ قِرًى [2] أَوْ بَيْعًا .. أَفَحِينَ أَكْرَمَنَا اللهُ بِالإِسْلاَمِ وَهَدَانَا لَهُ ، وَأَعَزَّنَا بِكَ وَبِهِ ، نُعْطِيهِمْ أَمْوَالَنَا ؟! وَاللهِ ، مَا لَنَا بِهَذَا مِنْ حَاجَةٍ ، وَاللهِ لاَ نُعْطِيهِمْ إِلاَّ السَّيْفَ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ .. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) : فَأَنْتَ وَذَاكَ .. واستمر التراشق بالسهام بين المسلمين وبين الأحزاب ..

وتحكى السيدة عائشة (رضى الله عنها) فتقول : كُنْتُ فِى حِصْنِ بَنِى حَارِثَةَ مَعَ أُمِّ سَعْدِ بنِ مُعَاذ ، ولم يَكُنِ الْحِجَابُ قَدْ فُرِضَ بَعْد .. فَمَرَّ سعدُ بن مُعَاذ عليه دِرْعٌ له مُقَلَّصَة [3] قَدْ خَرَجَ منها ذراعه ، وفى يده حربة ، وهو يقول :

---

[1] كالبوكم : غالبوكم واجتمعوا عليكم . [2] القرى : ما يقدم للضيف . [3] صغيرة منضمّة .

لَبِّثْ قَليلاً يَلْحَق الْهَيْجَا حَمَل   لاَ بَأْسَ بالْمَوْتِ إذَا حَانَ الأَجَل

فقالت أم سعد : الْحَقْ يَا بُنَيَّ ، قَدْ واللهِ أَخَّرت .. فقالت عائشة : يا أُمَّ سَعْد ، لَوَدِدْتُ أنَّ دِرْعَ سَعْدٍ أسْبَغُ مِمَّا هى .. فأصيب سعد بن معاذ حيث خافت عليه السيدة عائشة بسهم فى الأَكْحَل (١) رماه به رجل من قريش ، فنــزف دمه ، فقال رسول الله (ﷺ) : اجْعَلُوهُ فِي خَيْمَة رُفَيْدَةَ (٢) حَتَّى أَعُودَهُ مِنْ قَرِيبٍ .. وقد توجه سعد إلى الله قائلاً : اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ أَبْقَيْتَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْئًا فَأَبْقِنِي لَهَا ، فَإِنَّهُ لاَ قَومَ أَحَبّ إِلَيَّ أَنْ أُجَاهِدَ مِنْ قَوْمٍ آذَوا رَسُولَكَ ، وكَذَّبُوهُ ، وَأَخْرَجُوه .. وَإِنْ كُنْتَ وَضَعْتَ الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَاجْعَلْهُ لِى شَهَادَة ، ولا تُمِتْنِى حَتَّى تُقِرَّ عَيْنِى مِنْ بَنِى قُرَيْظَة .. (٣)

هذا .. وفى خِضَم تلك الأحداث وقد غلب اليأس على نفوس المسلمين وعمهم الحزن جاء نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُود – وهو رجل من قبيلة غَطَفان – إلى رسول الله (ﷺ) فقال له : يَا رَسُولَ الله ، إِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ ، وَإِنَّ قَوْمِي لَمْ يَعْلَمُوا بِإِسْلاَمِي ، فَمُرْنِي بِمَا شِئْت .. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) : إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ ، فَخَذِّلْ عَنَّا (٤) إن اسْتَطَعْت ، فَإِنَّ الْحَرْبَ خَدْعَةٌ .. فَخَرَجَ نُعَيْمٌ حَتَّى أَتَى بَنِي قُرَيْظَةَ – وكان لهم صديقًا فى الجاهلية – فَقَالَ : يَا بَنِي قُرَيْظَة

(١) الأكحل : عرق فى وسط الذراع .
(٢) رفيدة هى امرأة من أَسْلَم كانت تداوى الجرحى فى خيمة لها بالمسجد .
(٣) رواه الترمذى ، كتاب السير .
(٤) خذل عنا : كسِّل وثبِّط عنا .

قَدْ عَرَفْتُمْ وُدِّي إِيَّاكُمْ ، وَخَاصَّةَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، قَالُوا : صَدَقْت ، لَسْت عِنْدَنَا بِمُتَّهَمٍ .. فَقَالَ لَهُمْ : إِنَّ قُرَيْشًا وَغَطَفَانَ لَيْسُوا كَأَنْتُمْ ، الْبَلَدُ بَلَدُكُمْ ، فِيهِ أَمْوَالُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَنِسَاؤُكُمْ ، لاَ تَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ تَتَحَوَّلُوا مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ ، وَإِنَّ قُرَيْشًا وَغَطَفَانَ قَدْ جَاءُوا لِحَرْبِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ وَقَدْ ظَاهَرْتُمُوهُمْ عَلَيْهِ ، وَبَلَدُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ بِغَيْرِهِ ، فَلَيْسُوا كَأَنْتُمْ ، فَإِنْ رَأَوْا نُهْزَةً [1] أَصَابُوهَا ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ لَحِقُوا بِبِلاَدِهِمْ وَخَلَّوْا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الرَّجُلِ بِبَلَدِكُمْ ، وَلاَ طَاقَةَ لَكُمْ بِهِ إِنْ خَلاَ بِكُمْ ، فَلاَ تُقَاتِلُوا مَعَ الْقَوْمِ حَتَّى تَأْخُذُوا مِنْهُمْ رُهُنًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ ، يَكُونُونَ بِأَيْدِيكُمْ ثِقَةً لَكُمْ عَلَى أَنْ تُقَاتِلُوا مَعَهُمْ مُحَمَّدًا حَتَّى تُنَاجِزُوهُ ، فَقَالُوا لَهُ : لَقَدْ أَشَرْت بِالرَّأْيِ .. ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى أَتَى قُرَيْشًا ، فَقَالَ لأَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ رِجَالِ قُرَيْشٍ : قَدْ عَرَفْتُمْ وُدِّي لَكُمْ وَفِرَاقِي مُحَمَّدًا ، وَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَمْرٌ قَدْ رَأَيْت عَلَيَّ حَقًّا أَنْ أُبَلِّغَكُمُوهُ نُصْحًا لَكُمْ فَاكْتُمُوا عَنِّي .. فَقَالُوا : نَفْعَلُ .. قَالَ : تَعَلَّمُوا أَنَّ مَعْشَرَ يَهُودَ قَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا صَنَعُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ ، وَقَدْ أَرْسَلُوا إِلَيْهِ أَنْ قَدْ نَدِمْنَا عَلَى مَا فَعَلْنَا ، فَهَلْ يُرْضِيك أَنْ نَأْخُذَ لَك مِنَ الْقَبِيلَتَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ رِجَالاً مِنْ أَشْرَافِهِمْ فَنُعْطِيَكَهُمْ ، فَتَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ ، ثُمَّ نَكُونَ مَعَك عَلَى مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُمْ ؟ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَنْ نَعَمْ .. فَإِنْ بَعَثَتْ إِلَيْكُمْ يَهُودُ يَلْتَمِسُونَ مِنْكُمْ رُهُنًا مِنْ رِجَالِكُمْ فَلاَ تَدْفَعُوا إِلَيْهِمْ مِنْكُمْ رَجُلاً وَاحِدًا .. ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى

---

[1] النُّهْزَة : الفرصة .

أَتَى غَطَفَانَ ، فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ غَطَفَانَ ، إِنَّكُمْ أَصْلِي وَعَشِيرَتِي ، وَأَحَبّ النَّاسِ إِلَيَّ ، وَلاَ أَرَاكُمْ تَتَّهِمُونِنِي .. قَالُوا : صَدَقْت ، مَا أَنْتَ عِنْدَنَا بِمُتَّهَمٍ .. قَالَ : فَاكْتُمُوا عَنِّي .. قَالُوا : نَفْعَلُ .. فَمَا أَمْرُك ؟ ثُمَّ قَالَ لَهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ لِقُرَيْش وَحَذَّرَهُمْ مثل مَا حَذَّرَهُمْ ..

وأراد أبو سفيان أن يستوثق من كلام نعيم بن مسعود فأرسل إلى كعب بن أسد سيد بنى قريظة يقول : قد طالت إقامتنا وحصارنا هذا الرجل ، وقد رأيتُ أن تَعْمِدوا إليه فى الغداة ونحن من ورائكم .. فأرسل كعب إلى أبى سفيان يقول : إن غدًا السبت ، وإنَّا لا نستطيع القتال والعمل يوم السبت .. فغضب أبو سفيان ، وأرسل إلى كعب : اجعلوا سبتًا مكان هذا السبت ، فإنه لابد من قتال محمد غدًا .. ولئن خرجنا لقتاله ولستم معنا لَنَبْرأن من حلفكم ، ولنبدأن بكم قبل محمد ! .. فأرسل كعب إلى أبى سفيان يقول : إنَّا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رُهُنًا مِنْ رِجَالِكُمْ .. فلما سمع أبو سفيان ذلك ، لم يبق لديه شك فى صدق نعيم بن مسعود ، وتكلم مع زعماء غَطَفان فإذا هم يترددون فى الإقدام على قتال النبى (ﷺ) طامعين فيما عرضه عليهم من ثمار المدينة ، و لم يعلموا برفض سادة الأوس والخزرج لهذا العرض ..

ولَمَّا انْتَهَى إِلَى رَسُولِ اللّهِ (ﷺ) مَا اخْتَلَفَ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَا فَرَّقَ اللّهُ مِنْ جَمَاعَتِهِمْ دَعَا حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ ، فَبَعَثَهُ إِلَيْهِمْ لِيَنْظُرَ مَا فَعَلَ الْقَوْمُ لَيْلاً .. وعن هذه المهمة الشاقة التى لا يقوم بـها إلا مؤمن بالله ورسوله يروى لنا الإمام أحمد

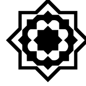
فيقول : قَالَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَة لحُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ : يَا أَبَا عَبْد اللهِ أَرَأَيْتُمْ رَسُولَ اللهِ (ﷺ) وَصَحِبْتُمُوهُ ؟! قَالَ : نَعَمْ يَا ابْنَ أَخِي .. قَالَ : فَكَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ ؟! قَالَ : وَاللهِ لَقَدْ كُنَّا نَجْهَدُ .. قَالَ الرجل : وَاللهِ لَوْ أَدْرَكْنَاهُ مَا تَرَكْنَاهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ ، وَلَحَمَلْنَاهُ عَلَى أَعْنَاقِنَا .. فَقَالَ حُذَيْفَةُ : يَا ابْنَ أَخِي ، وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ (ﷺ) بِالْخَنْدَق وَصَلَّى رَسُولُ اللهِ (ﷺ) هُوِيًّا [1] مِنَ اللَّيْلِ ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا فَقَالَ : مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ثُمَّ يَرْجِعُ – يَشْرِطُ لَهُ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) الرَّجْعَةَ – أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّة ؟ .. فَمَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ شِدَّة الْخَوْف ، وَشِدَّة الْجُوع ، وَشِدَّة الْبَرْد .. فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ أَحَدٌ دَعَانِي رَسُولُ اللهِ (ﷺ) ، فَلَمْ يَكُنْ لِي بُدٌّ مِنَ الْقِيَامِ حِينَ دَعَانِي ، فَقَالَ : يَا حُذَيْفَةُ اذْهَبْ فَادْخُلْ فِي الْقَوْمِ ، فَانْظُرْ مَاذَا يَصْنَعُونَ وَلاَ تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنَا .. قَالَ : فَذَهَبْت ، فَدَخَلْتُ فِي الْقَوْمِ ، وَالرِّيحُ وَجُنُودُ اللهِ تَفْعَلُ بِهِمْ مَا تَفْعَلُ ، لاَ تُقِرّ لَهُمْ قِدْرًا ، وَلاَ نَارًا وَلاَ بِنَاءً .. فَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، لِيَنْظُرِ امْرُؤ مَنْ جَلِيسُهُ .. قَالَ حُذَيْفَةُ : فَأَخَذْت بِيَدِ الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ إِلَى جَنْبِي ، فَقُلْت : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : فُلاَنُ بْنُ فُلاَنٍ ..

فلما جاء الليل جاء نصر الله ، فهبَّت ريـــح عاصفة شديدة فكفأت قدور القوم ، وأطفأت نيرانـــهم ، وهدمت خيامهم ، وقذفت الرُّعب فى

---

[1] هُوِيًّا : زمنًا طويلاً .

نفوسهم ، وخُيِّل إليهم أن المسلمين قد هاجموهم ، وصاح طلحة بن خُوَيْلد : إن محمدًا قد بدأكم بِشَرٍّ ، فالنجاة النجاة .. وصاح أبو سفيان : يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكُرَاع والْخُفّ [1] ، وأَخْلَفَتْنا بنو قريظة ، وبَلَغَنا منهم ما نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، فَارْتَحِلوا إنى مُرْتَحِل .. فحمل القوم ما استطاعوا من متاع وارتحلوا ، ولم يبق منهم أَحَدٌ ، وتبعتهم غطفان ومَنْ معهم .. ولما أصبح الصباح رجع النبى (ﷺ) والمسلمون إلى دورهم ، ووضعوا السلاح ..



---

[1] الكراع : اسم يطلق على الخيل والبغال والحمير .. والخف : كناية عن الْجِمال ..

غزوة بنى قريظة

بعد أن هزم الله الأحزاب فى غزوة الخندق عاد النبى (ﷺ) فى الصباح إلى بيته بعد أيام وليالٍ من التعب والمشقة والسهر ، ووضع السلاح وخلع لباس الحرب واغتسل .. فلما كان الظهر أتاه جبريل عليه السلام فقال : أَوَقَدْ وَضَعْتَ السِّلاَحَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ .. فَقَالَ جِبْرِيلُ : وَاللَّهِ مَا وَضَعْنَاهُ ! اخْرُجْ إِلَيْهِمْ .. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) : فَأَيْنَ ؟ فَأَشَارَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ .. فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) مُؤَذِّنًا ، فَأَذَّنَ فِي النَّاسِ : مَنْ كَانَ سَامِعًا مُطِيعًا ، فَلاَ يُصَلِّيَنَّ الْعَصْرَ إلاَّ بِبَنِي قُرَيْظَةَ .. وقَدَّم رسول الله (ﷺ) علىَّ بن أبى طالب برايته إلى بنى قريظة ، وسارع الناس خلفه ، فسار على بن أبى طالب حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله (ﷺ) فَرَجَعَ حَتَّى لَقِيَ رَسُولَ اللهِ (ﷺ) بالطريق فقال : يَا رَسُولَ اللهِ ، لاَ عَلَيْك أَلاَّ تَدْنُوَ مِنْ هَؤُلاَءِ الأَخَابِث .. قَالَ : لِمَ ؟ أَظُنّك سَمِعْتَ مِنْهُمْ لِي أَذَى ؟ قَالَ : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ .. قَالَ : لَوْ رَأَوْنِي لَمْ يَقُولُوا مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا .. فَلَمَّا دَنَا رَسُولُ اللهِ (ﷺ) مِنْ حُصُونِهِمْ قَالَ : يَا إِخْوَانَ الْقِرَدَةِ ، هَلْ أَخْزَاكُمُ اللهُ ، وَأَنْزَلَ بِكُمْ نِقْمَتَهُ ؟ قَالُوا : يَا أَبَا الْقَاسِمِ مَا كُنْت جَهُولاً ..[1]

هذا .. وقد حاصرهم رسول الله (ﷺ) خمسًا وعشرين ليلة حتى جَهِدَهم الحصار ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، فأرسلوا إلى رسول الله (ﷺ) : أَنِ

---

(1) سيرة ابن هشام .

ابْعَثْ إِلَيْنَا أَبَا لُبَابَةَ بْنَ عَبْد الْمُنْذرِ – وكان أبو لبابة من الأوس حلفائهم – لنَسْتَشيرَهُ في أَمْرِنَا .. فَأَرْسَلَهُ رَسُولُ الله (ﷺ) إليهمْ .. فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا لَهُ : يَا أَبَا لُبَابَةَ ، أَتَرَى أَنْ نَنْزِلَ عَلَى حُكْمِ مُحَمَّدٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَأَشَارَ بِيَده إلَى حَلْقه (أي إِنَّهُ الذَّبْحُ) .. وقد ندم أبو لبابة على إشارته هذه – وسنذكر قصته لاحقًا – فلما انصرف أبو لبابة عنهم ، وأيقنوا أن رسول الله (ﷺ) غير منصرف عنهم حتى يُنَاجزَهُمْ قَالَ كَعْبُ بْنُ أَسَد لَهُمْ : يَا مَعْشَرَ يَهُودَ ، قَدْ نَزَلَ بكُمْ منَ الأَمْرِ مَا تَرَوْنَ ، وَإِنِّي عَارِضٌ عَلَيْكُمْ خلاَلاً ثَلاَثًا ، فَخُذُوا أَيَّهَا شئْتُمْ .. قَالُوا : وَمَا هيَ ؟ قَالَ : نُتَابعُ هَذَا الرَّجُلَ وَنُصَدِّقُهُ ، فَوَالله لَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَنَبيٌّ مُرْسَلٌ ، وَإِنَّهُ لَلَّذي تَجدُونَهُ في كتَابكُمْ ، فَتَأْمَنُونَ عَلَى دمَائكُمْ وَأَمْوَالكُمْ وَأَبْنَائكُمْ وَنسَائكُمْ .. قَالُوا : لاَ نُفَارقُ حُكْمَ التَّوْرَاة أَبَدًا ، وَلاَ نَسْتَبْدلُ به غَيْرَهُ .. قَالَ : فَإذَا أَبَيْتُمْ عَلَيَّ هَذه فَهَلُمَّ فَلْنَقْتُلْ أَبْنَاءَنَا وَنسَاءَنَا ، ثُمَّ نَخْرُجْ إلَى مُحَمَّد وَأَصْحَابِه رجَالاً مُصْلتينَ السُّيُوفَ لَمْ نَتْرُكْ وَرَاءَنَا ثقَلاً [1]، حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ ، فَإِنْ نَهْلكْ نَهْلكْ وَلَمْ نَتْرُكْ وَرَاءَنَا مَا نَخْشَى عَلَيْه ، وَإِنْ نَظْهَرْ تَزَوَّجْنا نسَاء وأَنْجَبْنا أولادًا غيرهم .. قَالُوا : نَقْتُلُ هَؤُلاء الْمَسَاكينَ ؟ فَمَا خَيْرُ الْعَيْشِ بَعْدَهُمْ ؟! .. قَالَ : فَإنْ أَبَيْتُمْ عَلَيَّ هَذه ، فَإِنَّ اللَّيْلَةَ لَيْلَةُ السَّبْت ، وَإِنَّهُ عَسَى أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ قَدْ أَمنُونَا فيهَا ، فَانْزِلُوا لَعَلَّنَا نُصيبُ منْ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابه غرَّةً ، قَالُوا : نُفْسدُ سَبْتَنَا عَلَيْنَا ، وَنُحْدثُ فيه مَا لَمْ يُحْدثْ

[1] ثقلا : المقصود به النساء والذرية .

مَنْ كَانَ قَبْلَنَا ، إلاَّ مَنْ قَدْ عَلمْت ، فَأَصَابَهُ مَا لَمْ يَخْفَ عَلَيْك مِنْ الْمَسْخِ ؟! قَالَ : مَا بَاتَ رَجُلٌ مِنْكُمْ مُنْذُ وَلَدَتْهُ أُمّهُ لَيْلَةً وَاحِدَةً مِنَ الدَّهْرِ حَازِمًا .. [(١)]

وتشاور القوم فيما بينهم ، وقال قائل منهم : إنَّا لن نكون أسوأ من بنى النضير مصيرًا ، وإن حلفاءنا من الأوس سيدفعون عنا الشر ، ولو عرضنا على محمد أن نرتحل إلى أَذْرِعات بالشام كما فعلت بنو النضير فلن يجد بأسًا من قبول هذا العرض .. وبعثت قريظة بـــهذا العرض إلى النبى (ﷺ) فأبى عليها ذلك ، فأرسلت إلى قبيلة الأوس تقول لهم : ألا تأخذون لإخوانكم مثل ما أخذت الخزرج لإخوانـــهم – يشيرون إلى وساطة عبد الله بن أُبَىٍّ ابن سلول ، وسعد بن عُبَادة لبنى قينقاع حتى يعفو عنهم رسول الله (ﷺ) ويوافق على جلائـــهم عن المدينة – فمشى جماعة من الأوس إلى النبى (ﷺ) فقالوا : يا نبى الله ، ألاَ تقبل من حلفائنا مثل الذى قبلت من حُلَفَاء الخزرج ؟ فقال : يَا مَعْشَرَ الأَوْسِ ، أَلاَ تَرْضَوْنَ أَنْ أجعل بينى وبين حُلَفَائكم رجلاً منكم ؟ قَالُوا : بَلَى ، قَالَ : فقولوا لهم فليختاروا مَنْ شاءوا ، فاختار اليهود سعد بن معاذ – وكأنما قد أعْمَاهم القدر عن مصيرهم ، فنسوا مقدم سعد إليهم أول نقضهم لعهدهم ، وتحذيره إياهم ، ووقوعهم فى النبى (ﷺ) أمامه ، وسَبَّهم له وللمسلمين بغير حق – فذهب جماعة من الأوس إلى سعد ابن معاذ حيث كان فى المسجد فى خيمة رُفَيْدَة الأسلمية تُدَاويه من جُرْحه الذى أصيب به فى غزوة الخندق ، فحملوه وجاءوا به إلى النبى (ﷺ) ، وهم يقولون له :

---

(١) سيرة ابن هشام .

يَا أَبَا عَمْرٍو ، أَحْسِنْ فِي مَوَالِيك ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ (ﷺ) إِنَّمَا وَلاَّك ذَلِكَ لِتُحْسِنَ فِيهِمْ ، فقال سعد : عَلَيْكُمْ بِذَلِكَ عَهْدُ اللهِ وَمِيثَاقُهُ أَنَّ الْحُكْمَ فِيهِمْ هو ما حَكَمْتُ به ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، قال : وَعَلَى مَنْ هَاهُنَا ؟ - فِي النَّاحِيَةِ الَّتِي فِيهَا رَسُولُ اللهِ (ﷺ) وَهُوَ مُعْرِضٌ عَنْه إِجْلاَلاً لَهُ - فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) : نَعَمْ ، فقَالَ سَعْدٌ : فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ الرِّجَالُ ، وَتُقْسَمَ الأَمْوَالُ ، وَتُسْبَى الذَّرَارِيّ وَالنِّسَاءُ .. فلما سمع النبى (ﷺ) هذا الحكم قال : لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقِعَةٍ [1] .. ولم يكن بنو قريظة يتوقعون هذا الحكم من سعد بن معاذ حليفهم ، بل كانوا يحسبونه يتوسط لهم كما فعل عبد الله بن أُبَى مع بنى قينقاع ، ولم ينتبهوا للفارق بين الموقفين ، فإن الأحزاب لو انتصرت بخيانة بنى قريظة لتم استئصال المسلمين عن آخرهم ، فكان جزاؤهم بمثل ما عَرَّضوا المسلمين له ، وتم تنفيذ الحكم فَقُتِل الرجال ، وسُبِيَت النساء والذرارى .. وكان حُيَيّ بن أَخْطَب زعيم بنى النضير قد دخل مع بنى قريظة فى حصنهم بعدما انصرفت الأحزاب تنفيذًا لاتفاقه مع كعب بن أسد زعيم بنى قريظة ، فقُتِل مع من قُتِل منهم .. أما أبو لُبَابَة ، فلما ندم على ما فعل انطلق إلى المسجد وربط نفسه إلى عمود من عُمُدِه ، وقال : لا أبرح مكانى هذا حتى يتوب الله علىَّ مما صنعتُ .. ولما علم رسول الله (ﷺ) بذلك قال : أَمَا إِنَّهُ لَوْ جَاءَنِي لاسْتَغْفَرْتُ لَهُ ، فَأَمَّا إِذْ قَدْ فَعَلَ مَا فَعَلَ ، فَمَا أَنَا بِالَّذِي أُطْلِقُهُ مِنْ مَكَانِهِ حَتَّى يَتُوبَ اللهُ عَلَيْهِ .. وأقام أبو لبابة مرتبطًا بالعمود ست

[1] سيرة ابن هشام — أرقعة : سماوات .

ليالٍ ، تَأْتِيه امرأته فِي كل وقت صلاة ، فَتَحُلّهُ لِلصَّلاةِ ، ثم يَعُودُ فيربط نفسه بالعمود .. ونزل على رسول الله (ﷺ) – وهـــو فى بيت أم سلمة (رضى الله عنها) – قول الله عز وجل : (وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) [١] .. وتقول السيدة أم سلمة : سَمِعْت رَسُولَ اللهِ (ﷺ) مِنَ السَّحَرِ وَهُوَ يَضْحَكُ ، فَقُلْتُ : مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ أَضْحَكَ اللهُ سِنَّك ، قَالَ : تِيبَ عَلَى أَبِي لُبَابَةَ ، قَالَتْ : أَفَلاَ أُبَشِّرُهُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : بَلَى ، إنْ شِئْت .. فَقَامَتْ عَلَى بَابِ حُجْرَتِها فَقَالَتْ : يَا أَبَا لُبَابَةَ ، أَبْشِرْ فَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَيْك .. فأراد بعضهم أن يُطْلِقه ، فقال : لا وَاللهِ حَتَّى يَكُونَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) هُوَ الَّذِي يُطْلِقُنِي بِيَدِهِ ، فلما مر عليه رسول الله (ﷺ) خارجًا إلى صلاة الصبح أطلقه .. [٢]

هذا .. وكانت ريحانة إحدى سبايا بنى قريظة قد وقعت فى سهم [٣] النبى (ﷺ) فعرض عليها الإسلام وأن يتزوجها ، فقالت : بل تتركنى فى ملكك ، فهو أخف عليَّ وعَلَيْك ، وأصرت على يهوديتها ، فعزلها رسول الله (ﷺ) ، ووَجَدَ فى نفسه لذلك ، فبينما هو مع أصحابه إذ سَمِعَ وَقْعَ نَعْلَيْنِ خَلْفَهُ فَقَالَ : إنَّ هَذَا لَثَعْلَبَةَ بْنِ سَعْيَةَ يُبَشِّرُنِي بِإِسْلاَمِ رَيْحَانَةَ ، فَجَاءَهُ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، قَدْ أَسْلَمَتْ رَيْحَانَةُ [٤] .. فَسُرَّ النبى (ﷺ) لذلك ، وبقيت ريحانة فى ملك النبى (ﷺ) حتى تُوفِّى عنها ..

---

[١] سورة التوبة آية ١٠٢ . [٢] سيرة ابن هشام . [٣] السهم : النصيب . [٤] سيرة ابن هشام .

ما بعد غزوة بنى قريظة

استتب الأمر للمسلمين بعد غزوة الخندق وبعد القضاء على بنى قريظة استتبابًا جعل العرب تخافهم أشد الخوف ، وجعل الكثيرين من قريش يفكرون ماذا يفعلون ، ومنهم عمرو بن العاص الذى يروى قصة ذهابه إلى الحبشة ليبقى بـــها حتى يتضح الأمر ، فيقول : لَمَّا انْصَرَفْنَا مَعَ الأَحْزَابِ عَنِ الْخَنْدَقِ جَمَعْتُ رِجَالاً مِنْ قُرَيْشٍ ، كَانُوا يَرَوْنَ رَأْيِي ، وَيَسْمَعُونَ مِنِّي ، فَقُلْت لَهُمْ : تَعْلَمُونَ وَاللهِ أَنِّي أَرَى أَمْرَ مُحَمَّدٍ يَعْلُو الأُمُورَ عُلُوًّا مُنْكَرًا ، وَإِنِّي قَدْ رَأَيْت أَمْرًا ، فَمَا تَرَوْنَ فِيهِ ؟ قَالُـــوا : وَمَاذَا رَأَيْت ؟ قَالَ : رَأَيْتُ أَنْ نَلْحَقَ بِالنَّجَاشِيِّ (ملك الحبشة) فَنَكُونَ عِنْدَهُ ، فَإِنْ ظَهَرَ مُحَمَّدٌ عَلَى قَوْمِنَا كُنَّا عِنْدَ النّجَاشِيّ ، فَإِنَّا أَنْ نَكُونَ تَحْتَ يَدَيْهِ أَحَبّ إلَيْنَا مِنْ أَنْ نَكُونَ تَحْتَ يَدَيْ مُحَمَّدٍ ، وَإِنْ ظَهَرَ قَوْمُنَا فَنَحْنُ مَنْ قَدْ عَرَفُوا ، فَلَنْ يَأْتِيَنَا مِنْهُمْ إلاَّ خَيْرٌ ، قَالُوا : إنَّ هَذَا الرَّأْيُ ، قُلْتُ : فَاجْمَعُوا لَنَا مَا نُهْدِيهِ لَهُ ، وَكَانَ أَحَبّ مَا يُهْدَى إلَيْهِ مِنْ أَرْضِنَا الأَدَمُ [1]، فَجَمَعْنَا لَهُ أَدَمًا كَثِيرًا ، ثُمَّ خَرَجْنَا حَتَّى قَدِمْنَا عَلَيْهِ ، فَوَاللهِ إنَّا لَعِنْدَهُ إذْ جَاءَهُ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيّ – وَكَانَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) قَدْ بَعَثَهُ إلَيْهِ فِي شَأْنِ جَعْفَرٍ وَأَصْحَابِهِ – فَدَخَلَ عَلَيْهِ ثُمَّ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ ، فَقُلْت لأَصْحَابِي :

---

[1] الأدم : الجلد .

هَذَا عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيّ ، لَوْ قَدْ دَخَلْتُ عَلَى النَّجَاشِيّ وَسَأَلْته إِيَّاهُ فَأَعْطَانيه فضَرَبْت عُنُقَهُ ، فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلكَ رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي قَدْ أَجْزَأْت عَنْهَا حينَ قَتَلْتُ رَسُولَ مُحَمَّدٍ ، قَالَ : فَدَخَلْتُ عَلَيْه فَسَجَدْتُ لَهُ كَمَا كُنْت أَصْنَعُ ، فَقَالَ : مَرْحَبًا بِصَدِيقِي ، أَهْدَيْتَ إِلَيَّ مِنْ بِلادك شَيْئًا ؟ قَـــالَ : قُلْتُ : نَعَمْ أَيُّهَا الْمَلِكُ ، قَدْ أَهْدَيْتُ إِلَيْك أَدَمًا كَثِيرًا ، قَالَ : ثُمَّ قَرَّبْته إِلَيْه فَأَعْجَبَهُ ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ ، إِنِّي قَدْ رَأَيْت رَجُلاً خَرَجَ مِنْ عِنْدك ، وَهُوَ رَسُولُ رَجُلٍ عَدُوٍّ لَنَا ، فَأَعْطِنِيهِ لأَقْتُلَهُ ، فَإِنَّهُ قَدْ أَصَابَ مِنْ أَشْرَافنَا وَخيَارِنَا ، قَالَ : فَغَضبَ غضبًا شديدًا ، وقال لى : أَتَسْأَلُنِي أَنْ أُعْطِيَكَ رَسُولَ رَجُلٍ يَأْتيه النَّامُوسُ [1] الأَكْبَرُ الَّذي كَانَ يَأْتِي مُوسَى لِتَقْتُلَهُ ؟! قَالَ : قُلْت : أَيُّهَا الْمَلِكُ ، أَكَذَاك هُوَ ؟ قَالَ : وَيْحَك يَا عَمْرُو أَطِعْنِي وَاتَّبِعْهُ ، فَإِنَّهُ وَاللهِ لَعَلَى الْحَقِّ ، وَلَيَظْهَرَنَّ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ ، كَمَا ظَهَرَ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ وَجُنُودِه ، قَالَ : قُلْت :أَفَتُبَايِعُنِي لَهُ عَلَى الإِسْلاَمِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَبَسَطَ يَدَهُ فَبَايَعْته عَلَى الإِسْلاَمِ ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى أَصْحَابِي وَكَتَمْتُ إِسْلاَمِي ، وتَوَجَّهْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ (ﷺ) بالمدينة لأُسْلِم ، فَلَقِيتُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ وَهُوَ مُقْبِلٌ مِنْ مَكَّةَ ، فَقُلْتُ : أَيْنَ يَا أَبَا سُلَيْمَانَ ؟ قَـــالَ : إِنَّ الرَّجُلَ لَنَبِيّ ، وإنِّى ذَاهِب لأُسْلِم ، فَحَتَّى مَتَى يا عمرو ؟! قَـــالَ : قُلْتُ : وَاللهِ مَا جِئْتُ إِلاَّ لأُسْلِمَ .. قَالَ : فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ

[1] صاحب السر ، والمراد جبريل عليه السلام .

عَلَى رَسُولِ اللهِ (ﷺ) فَتَقَدَّمَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فَأَسْلَمَ وَبَايَعَ ، ثُمَّ دَنَوْتُ ، فَقُلْت : يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنِّي أُبَايِعُك عَلَى أَنْ يُغْفَرَ لِي مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) : يَا عَمْرُو ، بَايِعْ ، فَإِنَّ الإِسْلاَمَ يَجُبّ [1] مَا كَانَ قَبْلَهُ ، وَإِنَّ الْهِجْرَةَ تَجُبّ مَا كَانَ قَبْلَهَا ، قَالَ : فَبَايَعْته ، ثُمَّ انْصَرَفْتُ ..

هذا .. وإن كانت قصة سيدنا عمرو بن العاص (رضي الله عنه) التى أوردناها آنفًا قد بدأت بعد غزوة الأحزاب كما ذكرنا ، إلا أن ذهابه إلى الحبشة وعودته منها إلى مكة ثم قراره بالسفر إلى المدينة قد استغرق من الزمن مدة حدثت فيها أحداث كثيرة مثل غزوة بنى لحيان ، وغزوة بنى المصطلق ، وصلح الحديبية – والتى سيأتى ذكرها بعد – وانتهت قبل فتح مكة بمقابلته لسيدنا خالد بن الوليد (رضي الله عنه) وهو فى طريقه إلى المدينة المنورة ، وذهابهما معًا لإعلان إسلامهما ، ومبايعتهما النبى (ﷺ) ..

و لم تمض ستة أشهر بعد غزوة الخندق حتى بلغ النبى (ﷺ) أن هناك تحركًا فى بنى لِحْيَان ، فقرر أن يذهب إليهم ، وينتقم منهم لِمَا فعلوه بِخُبَيْب بن عَدِيّ وأصحابه عند ماء الرَّجِيع منذ سنتين ، لكنه لم يعلن ذلك حتى لا يتخذ العدو الحيطة لنفسه ، فأخذ رجاله واتجه بهم شمالاً كأنه يريد الشام ، ثم قفل راجعًا إلى ناحية بُعْران حيث منازل بنى لِحْيَان ، لكن قومًا رأوه فأخبروا

---

[1] يَجُبّ : يقطع ويمحو .

بنى لحيان ، فاعتصموا بالجبال هم ومتاعهم ، فلم يصبهم النبى (ﷺ) ، فبعث أبا بكر فى مائتى راكب حتى بلغوا عُسْفان على مقربة من مكة ، ثم رجع النبى (ﷺ) إلى المدينة .. ولم يكد يقيم بـــها ليالى حتى أغار عُيَيْنَة بن حصن – من بنى فزارة – على أطراف المدينة ، وكان بـــها إبل ترعى يحرسها رجل وامرأته ، فقَتَل عُيَيْنَة وأصحابه الرجل ، وساقوا الإبل ، واحتملوا المرأة ، وانصرفوا .. واتفق أن كان سَلَمَة بن الأَكْوَع قد خرج بقوسه ونَبْله إلى أطراف المدينة فأبصر بالقوم فأخذ يصيح : وَا صَبَاحَاهْ ، واشتد فى طلب القوم حتى اقترب منهم ، وأخذ يرميهم بالنَّبْل .. وبلغ المسلمين صياحه ، فأمر النبى (ﷺ) بعض الفرسان بالخروج ، فخرجوا وانضموا إلى سلمة بن الأكوع ، وجَهَّز النبى (ﷺ) جيشًا وخرج على رأسه حتى نزل فى ذى قَرَد ، وكان عُيَيْنَة بن حصن قد أسرع فى الهروب هو ومَنْ معه للوصول إلى غَطَفان ، فأدرك الفرسان مؤخرتـــهم ، واستخلصوا شطر الإبل ، ونجت المرأة والناقة التى كانت تحملها – وهى من إبل المسلمين – وأراد الفرسان أن يستمروا فى ملاحقة العدو ، ولكن النبى (ﷺ) منعهم حيث أدرك أن عُيَيْنَة ومَنْ معه قد وصلوا إلى غَطَفان واحتموا بـــهم ، ورجع المسلمون إلى المدينة ، وعادت المرأة المسلمة على الناقة التى أسرعت بـــها ، وكانت قد نذرت إن أنجتها الناقة لتَنْحَرَنَّها تقربًا إلى الله ، فلما أخبرت النبى (ﷺ) بنذرها قال : بئس ما جَزَيْتِها أن حملك الله عليها ، ونجاك بـــها ثم تنحرينها ، إنه لاَ نَذْرَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، ولا فيما لا تملكين ..

غزوة بنى الْمُصْطَلَق

مضى شهران على غزوة ذى قرد ثم بلغ النبى (ﷺ) أن بنى الْمُصْطَلَق – وهم فرع من قبيلة خزاعة – يجمعون الجموع فى حَيِّهم قريبًا من مكة ويتجهزون لمهاجمة المسلمين بالمدينة فأمر بتجهيز الجيش ، وجعل لواء المهاجرين لأبى بكر ، ولواء الأنصار لسعد بن عبادة ، وأسرع بالخروج لمفاجأة العدو ، وسار حتى نزل على ماءٍ قريب من بنى المصطلق يقال له (الْمُرَيْسِيع) ، ثم أحاط المسلمون بالعدو وحاصروهم ، فَفَرَّ مَنْ كان جاء للانضمام إليهم ، وتركوهم يواجهون مصيرهم .. ولم يجد بنو المصطلق مَفَرًّا من التسليم – بعد فترة من التراشق بالسهام – حين رأوا قوة المسلمين ، وكثرة عددهم ، وإصرارهم على الاستمرار فى القتال ، فَأُخِذوا أسرى هم ونساؤهم وذراريهم ، وغُنِمَت إبلهم وماشيتهم ..

هذا .. وقد كان لعمر بن الخطاب أجيرٌ فى الجيش يخدمه ويعلف فرسه ، ويجهز له سلاحه ، فازدحم على الماء مع أحد الأنصار من الخزرج ، فتشاجرا ، وصاح الأجير : يا معشر المهاجرين ، وصاح الأنصارى : يا معشر الأنصار ، وكادت تقع فتنة بين المسلمين .. ولما سمع عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول – الذى كان يُظْهِر الإسلام وخرج مع الجيش ابتغاء الغنيمة – ما حدث انتهزها فرصة لإثارة الشحناء ، وقال لجلسائه من المنافقين : لقد كَاثَرنا المهاجرون فِي ديارنا ، وَاللهِ مَا أَعُدُّنَا وإياهم إلا كما قال القائل : (سَمِّنْ كَلْبَك يَأْكُلْك) ، أَمَا وَاللهِ

لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ .. ثم قال : هَذَا مَا فَعَلْتُمْ بِأَنْفُسِكُمْ ، أَحْلَلْتُمُوهُمْ بِلادَكُمْ ، وَقَاسَمْتُمُوهُمْ أَمْوَالَكُمْ ، أَمَا وَاللهِ لَوْ أَمْسَكْتُمْ عَنْهُمْ مَا بِأَيْدِيكُمْ لَتَحَوَّلُوا إِلَى غَيْرِ دِيَاركم [1] .. وسمعه زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ فأسرع إلى رسول الله (ﷺ) وأخبره ، وكان عنده عمر بن الخطاب فغضب وقال : يا رسول الله مُرْ بِهِ عَبَّادَ بْنَ بِشْرٍ فَلْيَقْتُلْهُ ، فَقَالَ النبى (ﷺ) :فَكَيْفَ يَا عُمَرُ إِذَا تَحَدَّثَ النّاسُ وقالوا : إِنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ !! .. ولما شعر ابن سلول أن مقالته بَلَغَتْ النبى (ﷺ) أسرع إليه ينفى ما نسب إليه ، ويحلف بالله ما قاله ولا تكلم به ..

ولكى يقضى النبى (ﷺ) على الفتنة فى مهدها أمر أن يُؤَذَّن بالرحيل فى ساعة لم يكن يرتحل المسلمون فيها ، وانطلق بالناس طيلة يومهم حتى أمسوا ، وطيلة ليلتهم حتى أصبحوا ، وجزءًا من يومهم الثانى حتى ضربتهم الشمس ، ثم نزل بالناس وهم فى شدة التعب ، فناموا نومًا عميقًا ، وأنساهم التعب حديث عبد الله بن أُبَىٍّ ابن سلول ، وعادوا إلى المدينة بما معهم من سبى وغنائم تم تقسيمها عليهم ..

هذا .. وقد كـــان من ضمن السبايا جُوَيْرِيَة بِنْت الْحَارِث بْن أَبِي ضِرَارٍ – زعيم بنى المصطلق – التى وقعت فى سهم أحد الأنصار ، فَكَاتَبَتْهُ [2]

---

[1] سيرة ابن هشام .

[2] المكاتبة : أن تفتدى نفسها بالمال لتُعْــتَق .

عَلَى نَفْسِهَا فاشْتَطّ فى طلبه لعلمه أن أباها لن يتركها وأنه سوف يفتديها بأى ثمن .. فذهبت إلى رسول الله (ﷺ) وقالت له : أَنَا جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ بْنِ أَبِي ضِرَارٍ سَيِّدِ قَوْمِه ، وَقَدْ أَصَابَنِي مِنَ الْبَلاَءِ مَا لَمْ يَخْفَ عَلَيْك ، فَوَقَعْتُ فِي سهم فلان ، فَكَاتَبْتُه عَلَى نَفْسِي ، فَجِئْتُكَ أَسْتَعِينُك عَلَى كِتَابَتِي ، فقَالَ لها النبى (ﷺ) : فَهَلْ لَكِ فِي خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ ؟ قَالَتْ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ : أَقْضِي كِتَابَتَك وَأَتَزَوَّجُك .. ففرحت بعرض رسول الله (ﷺ) وأسلمت ، وتزوجها (ﷺ) ، وأصبحت بذلك من أمهات المؤمنين .. ولما علم المسلمون بالخبر أطلقوا ما بأيديهم من الأسرى إكرامًا لمصاهرة الرسول (ﷺ) إياهم ، فكانت (رضى الله عنها) أعظم النساء بركة على قومها .. وجاء أبوها يسعى لفداء ابنته ، ولم يكن يعلم بما حدث ، فقد فَرَّ من المعركة حين رأى ريح الهزيمة تَهُبُّ على قومه ، جاء يسوق إبلاً قد أخفى منها اثنين فى مكان ما ، ودخل على رسول الله (ﷺ) يَعْرِضُ عليه الإبل فِدَاءِ ابْنَته ، فقال له النبى (ﷺ) : وأَيْنَ الْبَعِيرَان اللَّذَان خَبَّأتَهُما فِي مكان كَذَا وَكَذَا ؟ ، فَقَالَ الْحَارِثُ : أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إلاَّ اللهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ الله ، فَوَاللهِ مَا اطَّلَعَ عَلَى ذَلِكَ أحَدٌ إلاَّ الله .. فَأَسْلَمَ الْحَارِثُ وأسلم معه قومه الذين أصبحوا أصهارًا لرسول الله (ﷺ) .. [١]

ثم نزلت الآيات [٢] تصدق ما قاله زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ للنبى (ﷺ) ، وتفضح عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول وتحكى مَقَالَتَه التى قالها ، فأرسل النبى (ﷺ) إلى زيد

---

[١] سيرة ابن هشام .
[٢] سورة المنافقون : آية ٧ ، ٨ .

فاستدعاه وقال له : إِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَكَ يَا زَيْدُ .. وشاع بين الناس أن النبى (ﷺ) سيأمر بقتل ابن سلول ، وسمع بذلك ابنه عبد الله بن عبد الله بن أُبَىٍّ ابن سلول - وكان من خيار الصحابة - فسارع إلى النبى (ﷺ) وقال له : يَا رَسُولَ الله ، إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّك تُرِيدُ قَتْلَ عَبْدِ الله بْنِ أُبَيّ فِيمَا بَلَغَكَ عَنْهُ ، فَإِنْ كُنْت لاَبُدَّ فَاعِلاً فَمُرْنِي بِهِ فَأَنَا أَحْمِلُ إِلَيْك رَأْسَهُ ، فَوَالله لَقَدْ عَلِمَت الْخَزْرَجُ مَا كَانَ لَهَا مِنْ رَجُلٍ أَبَرَّ بِوَالِدِهِ مِنِّي ، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَأْمُرَ بِهِ غَيْرِي فَيَقْتُلُهُ ، فَلاَ تَدَعُنِي نَفْسِي أَنْظُرُ إِلَى قَاتِلِ أَبِى يَمْشِي فِي النَّاسِ فَأَقْتُلُهُ ، فَأَقْتُلُ مُؤْمِنًا بِكَافِرٍ فَأَدْخُلُ النَّارَ .. فَقَالَ النبى (ﷺ) الرؤوف الرحيم بأمته : إِنَّا لا نَقْتُلُه بَلْ نَتَرَفَّقُ بِهِ ، وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا [1] .. فكان ابن سلول بعد ذلك إذا أحدث شيئًا عاتبه قومه من الخزرج وعَنَّفُوه ، وأشعروه أن بقاءه على قيد الحياة بعد نزول سورة (المنافقون) هبة من النبى (ﷺ) له ..

ومع ذلك العفو والصفح الجميل من النبى (ﷺ) فإن النفاق ، والكراهية ، والحقد الذى ملأ قلب ابن سلول لم يقف عند حد ، فما إن رأى السيدة عائشة (رضى الله عنها) تدخل المدينة فى وضح النهار على ناقة يقودها صَفْوَان ابن الْمُعَطَّل الصحابى الجليل (رضي الله عنه) حتى أشاع مقالة السوء ، وحديث الإفك بين الناس فى غفلة من السيدة العفيفة الطاهرة (رضى الله عنها) ، بل وفى غفلة من رسول الله (ﷺ) .. وتروى السيدة عائشة (رضى الله عنها) القصة كاملة

---

[1] سيرة ابن هشام .

فتقول : كَانَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجه ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللَّه (ﷺ) مَعَهُ .. قَالَتْ عَائشَةُ : فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَة غَزَاهَا ، فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي ، فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّه (ﷺ) بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحجَابُ ، فَكُنْتُ أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي [1] وَأُنْزَلُ فِيه ، فَسرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) مِنْ غَزْوَته تلْكَ وَقَفَلَ وَدَنَوْنَا منَ الْمَدينَة قَافلينَ آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي فَلَمَسْتُ صَدْرِي فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ ظَفَارِ [2] قَد انْقَطَعَ ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عقْدي فَحَبَسَني ابْتغَاؤُهُ .. قَالَتْ : وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذينَ كَانُوا يُرَحِّلُونني فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذي كُنْتُ أَرْكَبُ عَلَيْه ، وَهُمْ يَحْسبُونَ أَنِّي فِيه ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خفَافًا لَمْ يَهْبُلْنَ [3] ، وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ ، إِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلْقَةَ منَ الطَّعَامِ ، فَلَمْ يَسْتَنْكرِ الْقَوْمُ خفَّةَ الْهَوْدَجِ حِينَ رَفَعُوهُ وَحَمَلُوهُ ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَديثَةَ السِّنِّ فَبَعَثُوا الْجَمَلَ فَسَارُوا ، وَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا مِنْهُمْ دَاعٍ وَلاَ مُجِيبٌ ، فَتَيَمَّمْتُ [4] مَنْزِلِي الَّذي كُنْتُ بِه ، وَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقدُونني فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ ، فَبَيْنَا أَنَا جَالسَةٌ فِي مَنْزِلِي غَلَبَتْني عَيْني فَنِمْتُ ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ ، فَأَصْبَحَ

---

[1] الهودج : محمل له قبة كانت النساء تركبه على ظهر البعير . [2] خرز من بلاد ظفار .
[3] يهبلن : يثقلن باللحم والشحم . [4] تيممت مَنْزلي : قصدتُ واتجهتُ إليه .

عِنْدَ مَنْزِلِي ، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي ، وَكَانَ رَآنِي قَبْلَ الْحِجَابِ ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِه [١] حِينَ عَرَفَنِي ، فَخَمَّرْتُ [٢] وَجْهِي بِجِلْبَابِي ، وَوَاللَّهِ مَا تَكَلَّمْنَا بِكَلِمَةٍ ، وَلاَ سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِه ، وَهَوَى حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ فَوَطِئَ عَلَى يَدِهَا فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَرَكِبْتُهَا ، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ مُوغِرِينَ [٣] فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ [٤] وَهُمْ نُزُولٌ .. قَالَتْ : فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَ الإِفْكِ [٥] عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ .. قَالَ عُرْوَةُ : أُخْبِرْتُ أَنَّهُ كَانَ يُشَاعُ وَيُتَحَدَّثُ بِهِ عِنْدَهُ فَيُقِرُّهُ وَيَسْتَمِعُهُ وَيَسْتَوْشِيهِ [٦] .. وَقَالَ عُرْوَةُ أَيْضًا : لَمْ يُسَمَّ مِنْ أَهْلِ الإِفْكِ أَيْضًا إِلاَّ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ ، وَمِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ ، وَحَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ فِي نَاسٍ آخَرِينَ لا عِلْمَ لِي بِهِمْ غَيْرَ أَنَّهُمْ عُصْبَةٌ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَإِنَّ الذى تولى كِبْرَ ذَلِكَ يُقَالُ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ .. قَالَ عُرْوَةُ : كَانَتْ عَائِشَةُ تَكْرَهُ أَنْ يُسَبَّ عِنْدَهَا حَسَّانُ ، وَتَقُولُ إِنَّهُ الَّذِي قَالَ :

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي ... لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ

قَالَتْ عَائِشَةُ : فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا ، وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الإِفْكِ ، لا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَهُوَ يَرِيبُنِي فِي وَجَعِي

---

[١] " استرجاعه " أى قوله : إنا لله وإنا إليه راجعون .
[٢] التخمير : التغطية .
[٣] الموغر : النازل فى وقت شدة الحر للراحة .
[٤] حين تبلغ الشمس منتهاها من الارتفاع .
[٥] الإفك : أقبح الكذب وأفحشه .
[٦] يطلبه ويستزيد منه من مُحدّثه .

أَنِّي لا أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي ، إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) فَيُسَلِّمُ ثُمَّ يَقُولُ : كَيْفَ تِيكُمْ[1] ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ ، فَذَلِكَ يَرِيبُنِي ، وَلا أَشْعُرُ بِالشَّرِّ حَتَّى خَرَجْتُ حِينَ نَقَهْتُ فَخَرَجْتُ مَعَ أُمِّ مِسْطَحٍ قِبَلَ الْمَنَاصِعِ[2] ، وَكَانَ مُتَبَرَّزَنَا ، وَكُنَّا لاَ نَخْرُجُ إِلاَّ لَيْلاً إِلَى لَيْلٍ ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الْكُنُفَ[3] قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا ، قَالَتْ : وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الأُوَلِ فِي الْبَرِّيَّةِ قِبَلَ الْغَائِطِ ، وَكُنَّا نَتَأَذَّى بِالْكُنُفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بُيُوتِنَا .. قَالَتْ : فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ – وَهِيَ ابْنَةُ أَبِي رُهْمِ بْنِ الْمُطَّلِبِ ابْنِ عَبْدِ مَنَافٍ ، وَأُمُّهَا بِنْتُ صَخْرِ بْنِ عَامِرٍ خَالَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ، وَابْنُهَا مِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ بْنِ عَبَّادِ بْنِ الْمُطَّلِبِ – فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بَيْتِي حِينَ فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا ، فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا[4] فَقَالَتْ : تَعِسَ مِسْطَحٌ ، فَقُلْتُ لَهَا : بِئْسَ مَا قُلْتِ ، أَتَسُبِّينَ رَجُلاً شَهِدَ بَدْرًا ؟! فَقَالَتْ : أَيْ هَنْتَاهْ ، أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ ؟! فقلت : مَا قَالَ ؟! فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الإِفْكِ .. قَالَتْ : فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي ، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) فَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ : كَيْفَ تِيكُمْ ؟ فَقُلْتُ لَهُ : أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ ؟ قَالَتْ : وَأُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا .. قَالَتْ : فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) فَقُلْتُ لأُمِّي : يَا أُمَّتَاهُ مَاذَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ ؟ قَالَتْ : يَا بُنَيَّةُ هَوِّنِي

---

(1) يشير إلى عائشة .

(2) مواضع قضاء الحاجة فى الخلاء .

(3) الكنف : جمع كنيف ، وهو موضع مستور من بناء لقضاء الحاجة .

(4) المرط : كساء من صوف يؤتزر به .

عَلَيْك ، فَوَاللَّه لَقَلَّمَا كَانَت امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةً عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا لَهَا ضَرَائِرُ إِلاَّ كَثَّرْنَ عَلَيْهَا ، قَالَتْ : فَقُلْتُ : سُبْحَانَ اللَّه ، أَوَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا ؟! قَالَتْ : فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لاَ يَرْقَأُ [(١)] لِي دَمْعٌ ، وَلا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ [(٢)] ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ أَبْكِي .. قَالَتْ : وَدَعَا رَسُولُ اللَّه (ﷺ) عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِب ، وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْد حِينَ اسْتَلْبَثَ [(٣)] الْوَحْيُ يَسْأَلُهُمَا وَيَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِه ، قَالَتْ : فَأَمَّا أُسَامَةُ فَأَشَارَ عَلَى رَسُول اللَّه (ﷺ) بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِه ، وَبِالَّذِي يَعْلَمُ لَهُمْ فِي نَفْسِه ، فَقَالَ أُسَامَةُ : أَهْلُكَ وَلا نَعْلَمُ إِلاَّ خَيْرًا .. وَأَمَّا عَلِيٌّ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّه ، لَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ ، وَسَلِ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ .. قَالَتْ فَدَعَا رَسُولُ اللَّه (ﷺ) بَرِيرَةَ فَقَالَ : أَيْ بَرِيرَةُ ، هَلْ رَأَيْت مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُك ؟ قَالَتْ لَهُ بَرِيرَةُ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا قَطُّ أَغْمِصُهُ [(٤)] غَيْرَ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا ، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ [(٥)] فَتَأْكُلُهُ .. قَالَتْ : فَقَامَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) مِنْ يَوْمِه فَاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ، مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي عَنْهُ أَذَاهُ فِي أَهْلِي ؟ وَاللَّه مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلاَّ خَيْرًا ، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلاً مَا عَلِمْتُ عَلَيْه إِلاَّ خَيْرًا ، وَمَا يَدْخُلُ عَلَى

---

(١) يرقأ : ينقطع .

(٢) لا أكتحل بنوم : لا أنام .

(٣) استلبث : أبطأ وتأخر .

(٤) أغمصه : أعيبه .

(٥) الداجن : الحيوانات والطيور التى تربى بالبيت .

أَهْلِي إِلاَّ مَعِي .. قَالَتْ : فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ – أَخُو بَنِي عَبْدِالأَشْهَلِ – فَقَالَ : أَنَا يَا رَسُولَ اللَّه أَعْذرُكَ ، فَإِنْ كَانَ مِنَ الأَوْسِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ .. قَالَتْ : فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْخَزْرَجِ ، وَهُوَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ، وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ – قَالَتْ : وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلاً صَالِحًا ، وَلَكِنِ احْتَمَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ – فَقَالَ لِسَعْد : كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّه ، لاَ تَقْتُلُهُ ، وَلاَ تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِه ، وَلَوْ كَانَ مِنْ رَهْطِكَ مَا أَحْبَبْتَ أَنْ يُقْتَلَ .. فَقَامَ أُسَيْدُ ابْنُ حُضَيْرٍ – وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدٍ – فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ : كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّه ، لَنَقْتُلَنَّهُ ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ .. قَالَتْ : فَثَارَ الْحَيَّانِ الأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا ، وَرَسُولُ اللَّه (ﷺ) قَائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ .. قَالَتْ : فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ .. قَالَتْ : فَبَكَيْتُ يَوْمِي ذَلِكَ كُلَّهُ ، لاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ ، وَلاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ .. قَالَتْ : وَأَصْبَحَ أَبَوَايَ عِنْدِي وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا ، لاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ ، وَلاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ حَتَّى إِنِّي لأَظُنُّ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي ، فَبَيْنَا أَبَوَايَ جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَأَذِنْتُ لَهَا ، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي .. قَالَتْ : فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) عَلَيْنَا فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ ، قَالَتْ : وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ مَا قِيلَ قَبْلَهَا ، وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي بِشَيْءٍ .. قَالَتْ : فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) حِينَ جَلَسَ ثُمَّ قَالَ : أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ ، إِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا ، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ

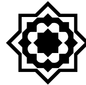
بذَنْب فَاسْتَغْفري اللَّهَ وَتُوبي إِلَيْه ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْه .. قَالَتْ : فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّه (ﷺ) مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعي حَتَّى مَا أُحسُّ منْهُ قَطْرَةً ، فَقُلْتُ لأَبي : أَجبْ رَسُولَ اللَّه (ﷺ) عَنِّي فيمَا قَالَ ، فَقَالَ أَبي : وَاللَّه مَا أَدْري مَا أَقُولُ لرَسُول اللَّه (ﷺ) ، فَقُلْتُ لأُمِّي : أَجيبي رَسُولَ اللَّه (ﷺ) فيمَا قَالَ ، قَالَتْ أُمِّي : وَاللَّه مَا أَدْري مَا أَقُولُ لرَسُول اللَّه (ﷺ) ، فَقُلْتُ وَأَنَا جَاريَةٌ حَديثَةُ السِّنِّ لا أَقْرَأُ منَ الْقُرْآن كَثيرًا : إِنِّي وَاللَّه لَقَدْ عَلمْتُ لَقَدْ سَمعْتُمْ هَذَا الْحَديثَ حَتَّى اسْتَقَرَّ في أَنْفُسكُمْ ، وَصَدَّقْتُمْ به ، فَلَئنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَريئَةٌ لاَ تُصَدِّقُوني ، وَلَئن اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بأَمْرٍ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي منْهُ بَريئَةٌ لَتُصَدِّقُنِّي ، فَوَاللَّه لاَ أَجدُ لي وَلَكُمْ مَثَلاً إِلاَّ أَبَا يُوسُفَ حينَ قَالَ (فَصَبْرٌ جَميلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصفُونَ) .. قَالَتْ : ثُمَّ تَحَوَّلْتُ ، فَاضْطَجَعْتُ عَلَى فرَاشي ، قَالَتْ : وَأَنَا حينَئذ أَعْلَمُ أَنِّي بَريئَةٌ ، وَأَنَّ اللَّهَ مُبَرِّئي ببَرَاءَتي ، وَلَكنْ وَاللَّه مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ مُنْزلٌ في شَأْني وَحْيًا يُتْلَى ، لَشَأْني في نَفْسي كَانَ أَحْقَرَ منْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فيَّ بأَمْرٍ ، وَلَكنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّه (ﷺ) في النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُني اللَّهُ بهَا ، فَوَاللَّه مَا رَامَ [1] رَسُولُ اللَّه (ﷺ) مَجْلسَهُ ، وَلاَ خَرَجَ أَحَدٌ منْ أَهْلِ الْبَيْت حَتَّى أُنْزلَ عَلَيْه ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ منَ الْبُرَحَاء [2] ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ منْهُ منَ الْعَرَق مثْلُ الْجُمَان [3] وَهُوَ في يَوْمٍ شَاتٍ منْ ثقَلِ الْقَوْلِ الَّذي أُنْزلَ عَلَيْه ،

---

(1) رام : فارق وبرح . (2) البرحاء : الشدة والتغير فى الحال .

(3) الجمان : حبات من اللؤلؤ ، والمراد : ينـــزل العرق على هيئة اللؤلؤ .

قَالَتْ : فَسُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّه (ﷺ) وَهُوَ يَضْحَكُ ، فَكَانَتْ أَوَّلَ كَلِمَة تكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ : يَا عَائشَةُ أَمَّا اللَّهُ فَقَدْ بَرَّأَك .. قَالَتْ : فَقَالَتْ لي أُمِّي : قُومِي إِلَيْه ، فَقُلْتُ : وَاللَّه لا أَقُومُ إِلَيْه ، فَإِنِّي لاَ أَحْمَدُ إِلاَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ .. قَالَتْ : وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْك عُصْبَةٌ مِنْكُمْ) الْعَشْرَ الآيَات ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي .. قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ – وَكَانَ يُنْفقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لقَرَابَته مِنْهُ وَفَقْرِه – : وَاللَّه لاَ أُنْفقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لعَائشَةَ مَا قَالَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ (وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ) إِلَى قَوْله (غَفُورٌ رَحِيمٌ) ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ : بَلَى وَاللَّه ، إِنِّي لأُحبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي ، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفقُ عَلَيْه ، وَقَالَ : وَاللَّه لاَ أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا .. قَالَتْ عَائشَةُ : وَكَانَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) سَأَلَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي ، فَقَالَ لِزَيْنَبَ : مَاذَا عَلمْت أَوْ رَأَيْت ؟ فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّه ، أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي ، وَاللَّه مَا عَلمْتُ إِلاَّ خَيْرًا .. قَالَتْ عَائشَةُ : وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ (ﷺ) ، فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالْوَرَعِ .. قَالَتْ : وَطَفقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ تُحَارِبُ لَهَا ، فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ .. [1]



[1] رواه البخارى ومسلم .

بَيْعَة الرِّضْوَان ، وصُلْح الْحُدَيْبِيَة

مضت على هجرة النبى (ﷺ) إلى المدينة ست سنوات ، وهو والمسلمون أثناءها فى جهاد مستمر ، مع قريش تارة ، ومع قبائل العرب تارة ، ومع اليهود تارة ، يرجعون من غزوة إلى غزوة ، لا يكاد يستقر بـهم المقام فى المدينة شهورًا متصلة ، بالإضافة إلى القيام بالتكاليف الشرعية التى لم يعتادوها ، والتى كانت الآيات تنـزل بـها متتابعة كالصيام ، والزكاة ، وإقامة الحدود ، والمواريث ، وتقرير حقوق المرأة فى الحياة ، والزواج ، وتَمَلُّك المال .. وكذلك الحرمان من أشياء أَلِفوها فى الجاهلية كالخمر ، والميسر ، والزنا ، والزواج بغير حدود ، والركون إلى مباهج الدنيا ، واللهو ، واللعب .. ويزيد على ذلك شعور المهاجرين بِأَلَمِ النفى ، والحرمان من الوطن والأهل ومراتع الصبا .. كما أن الكعبة كانت تُشَكل بالنسبة إليهم الأمن والأمان ، وها هو الإسلام يزيدها تشريفًا وتعظيمًا ، ويأمر بالتوجه إليها فى جميع الصلوات ، وهم والمسلمون جميعًا محرومون من زيارتـها والطواف بـها ، ولا سبيل لهم إليها .. لذلك كانت الفرحة غامرة عندما خرج عليهم رسول الله (ﷺ) ذات صباح يخبرهم أنـهم سيدخلون المسجد الحرام آمنين إن شاء الله ..

وأَذَّن النبى (ﷺ) بالعمرة فى ذى القعدة من السنة السادسة من الهجرة ، وأوفد رسله إلى القبائل من غير المسلمين يدعوهم إلى الاشتراك وإياه فى

الخروج إلى بيت الله مسالمين غير مقاتلين ، وأراد بذلك أن يعلم العرب جميعًا أنه خرج فى شهر حرام يريد بيت الله الحرام ، وأنه أشرك العرب الذين هم على غير دينه معه فى أداء هذا المنسك ، والذى كانوا يؤدونه فى الجاهلية ، فلا تجد قريش سبيلاً لمنعهم من دخول مكة ..

وخرج النبى (ﷺ) فى أول شهر ذى القعدة فى ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار ، ومَنْ لحق به من العرب يتقدمهم على ناقته القَصْوَاء [1] – وتخلف عنه الكثير من القبائل التى دعاها للاشتراك معه – وساق سبعين بَدَنَة هَدْيًا للكعبة ، وعندما وصل إلى ذى الْحُلَيْفَة (ميقات أهل المدينة) أَحْرَم بالعمرة ، وأَحْرَمَ مَنْ كان معه كذلك ، و لم يحمل أَحَدٌ معه سلاحًا إلا السيوف فى غُمدها .. وبلغ الخبر قريشًا فامتلأت خوفًا ، واعتقدت أنها حيلة يحتال بها المسلمون للدخول عليهم بمكة رَدًّا على محاولة الأحزاب الدخول إلى المدينة ، فقرروا الحيلولة بين المسلمين ودخول مكة ، فجهزوا جيشًا من مائتى فارس خرجوا من مكة ، ونزلوا بذى طُوَى انتظارًا للمسلمين .. ولَقِيَ النبى (ﷺ) فى مسيره رجلاً من بنى كعب أخبره أن قريشًا سمعت بمسيره فخرجوا وقد لبسوا جلود النمور ، ونزلوا بذى طُوَى يعاهدون الله على ألا يدخل المسلمون إلى مكة أبدًا ، فقال النبى (ﷺ) : يَا وَيْحَ قُرَيْشٍ ، لَقَدْ

---

[1] القصواء : اسم أطلقه النبى (ﷺ) على ناقته .

أَهْلَكَتهُمُ الْحَرْبُ ، مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلّوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ الْعَرَبِ ، فَإِنْ هُمْ أَصَابُونِي كَانَ ذلك الّذي أَرَادُوا ، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الإِسْلامِ وَافِرِينَ ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوّةٌ !! فَمَا تَظُنّ قُرَيْشٌ ؟ فَوَاللهِ لاَ أَزَالُ أُجَاهِدُ عَلَى الّذِي بَعَثَنِي اللهُ بِهِ حَتّى يُظْهِرَهُ اللهُ أَوْ تَنْفَرِدَ هَذِهِ السّالِفَةُ [1] .. [2]

وبدأت فرسان أهل مكة تظهر فى الأفق ، وكان معنى ذلك أن القتال سيدور لو استمر المسلمون فى طريقهم ، فقرر النبى (ﷺ) أن يتحول عن طريقه إلى طريق آخر ، واتجه إلى مهبط الْحُدَيْبِيَة من أسفل مكة ، وعندما وصلها بَرَكَت القصواء (ناقة النبى ﷺ) فقال المسلمون : خَلأَت [3] الْقَصْوَاءُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ (ﷺ) : مَا خَلأَت الْقَصْوَاءُ ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ .. ثم قال : لا تَدْعُونِي قُرَيْشٌ الْيَوْمَ إِلَى خُطَّةٍ يَسْأَلُونَنِي فِيهَا صِلَةَ الرَّحِمِ إلاَّ أَعْطَيْتهمْ إِيَّاهَا .. وأمر بالنزول ، فقالوا : يا رسول الله ، مَا بِالْوَادِي مَاءٌ نَنْزِلُ عَلَيْهِ ، فأعطى رجلاً سهمًا وأمره أن يغرزه فى قاع بئر مهجورة ، فجاش الماء من البئر وفاض ، فنزل الناس حيث أمرهم رسول الله (ﷺ) .. [4]

ولما رأى فرسان قريش ما صنع المسلمون من تحولهم عن طريقهم ، رجعوا مسرعين ليقفوا مدافعين عن مكة إذا قصدها المسلمون .. وقررت قريش أن

---

[1] السالفة : صفحة العنق .. وانفرادها : كناية عن الموت ، لأنها لا تنفرد عما يليها إلا به .
[2] سيرة ابن هشام .
[3] خلأت : حَرَنَت وامتنعت عن مغادرة مكانها ، وأصابها الجهد .
[4] سيرة ابن هشام .

توفـــد إلى النبى (ﷺ) من رجالـــها مَنْ يحاول تعرّف قوته ، ويقنعه بالعدول عن دخول مكة ، فأرسلت بُدَيْل بن وَرْقَاء فى رجال من خزاعة يسألونه ما الذى جاء به ، فلما رأوا المسلمين وما هم عليه من إحرام ، وقد ساقوا الْهَدْى علموا أنه إنـــما جاء زائرًا للكعبة و لم يأت للحرب ، فعادوا إلى قريش يطلبون منها أن تُخَلِّى بين المسلمين وبين البيت الحرام ، فغضب رجال قريش وصاحوا بـــهم واتـــهموهم ، وقالوا : وَإِنْ كَانَ جَاءَ وَلاَ يُرِيدُ قِتَالاً ، فَوَاللهِ لاَ يَدْخُلُهَا عَلَيْنَا عَنْوَةً أَبَدًا ، وَلاَ تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ عَنَّا بِذَلِكَ .. ثم بعثوا إلى النبى (ﷺ) مِكْرَزَ ابْنَ حَفْصٍ ، فرجع بمثل ما رجع به بُدَيْل بن وَرْقاء ، فبعثت قريش الْحُلَيْسَ سَيِّدَ الأَحَابِيشِ [1] ، وكانت قريش تستعين بـــهم فى قتالها للنبى (ﷺ) ، فأرادت أن يرى الْحُلَيْس أن التفاهم مع النبى (ﷺ) غير ممكن ، وأنه لا يستجيب له ، فيزداد نُصْرَة لقريش .. فلما رآه النبى (ﷺ) مقبلاً قال : أطلقوا الهدى لتكون أمامه فيراها ، فتكون دليلاً على أنا لا نريد حربًا ، بل جئنا معظمين للبيت الحرام .. فلما رآها الْحُلَيْس تأثر لها ، وعلم أن قريشًا ظالمة لهؤلاء الذين جاءوا للعبادة وليس للحرب ، ورجع إلى قريش دون أن يقابل النبى (ﷺ) ، وذكر لهم ما رأى ، فقالوا : اجْلِسْ ، فَإِنَّمَا أَنْتَ أَعْرَابِيّ لاَ عِلْمَ لَك ، فغضب الحليس ، وأنذرهم أنه ما حالفهم ليَصُدّ عن البيت مَنْ جاء مُعَظِمًا له ، وأنـــهم إن لم يُخَلّوا بين محمد وما جاء له ، خرج بالأحابيش من مكة ..

---

[1] الأحابيش : قوم من العرب رُمَاة ، سُمُّوا بذلك نسبة إلى حُبْشِى (جبل بأسفل مكة) ، أو لسمرة ألوانِهم .

وخشيت قريش عاقبة غضبه فاسترضوه ، وطلبوا منه أن يمهلهم حتى يتدبروا أمرهم ، وقرروا أن يُوفِدوا مَنْ يثقون به وبحكمته ، فأرسلوا عُرْوَةَ بْنَ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيّ الذى جاء إلى النبى (ﷺ) وأخذ يحدثه ، ويحذره مِنْ أن مَنْ حوله قد يَنْفَضُّون مِنْ حوله ولا يجد من يسانده ، فصاح به أبو بكر منكرًا أن ينصرف الناس عن رسول الله (ﷺ) ، وكان عروة يتناول لحية النبى (ﷺ) وهو يكلمه ، وكان الْمُغِيرَة بن شُعْبَة واقفًا على رأس الرسول (ﷺ) ، وكلما أخذ عروة بلحية النبى (ﷺ) ضربه المغيرة على يده وقال : كُفَّ يَدَك عَنْ وَجْهِ رَسُولِ اللهِ (ﷺ) قَبْلَ أَلاَّ ترجع إِلَيْك ، فَيَقُولُ عُرْوَةُ : وَيْحَك مَا أَغْلَظَك !! ..

ورجع عروة بعدما سمع ما سمعه مَنْ جاء قبله ، وقال لرجال قريش : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، إِنِّي قَدْ جِئْتُ كِسْرَى فِي مُلْكِهِ ، وَقَيْصَرَ فِي مُلْكِهِ ، وَالنَّجَاشِيّ فِي مُلْكِهِ ، وَإِنِّي وَاللهِ مَا رَأَيْتُ مَلِكًا فِي قَوْمٍ قَطّ مِثْلَ مُحَمَّدٍ فِي أَصْحَابِهِ ، لاَ يَتَوَضَّأُ إِلاَّ ابْتَدَرُوا وَضُوءَهُ ، وَلاَ يَبْصُقُ بُصَاقًا إِلاَّ ابْتَدَرُوهُ ، وَلاَ يَسْقُطُ مِنْ شَعْرِهِ شَيْءٌ إِلاَّ أَخَذُوهُ ، وَلَقَدْ رَأَيْت قَوْمًا لاَ يُسْلِمُونَهُ لِشَيْءٍ أَبَدًا !! ..

هذا .. وكانت قريش قد بعثت أربعين أو خمسين رجلاً منهم ، وأَمَرَتْهم أن يُطِيفُوا بمعسكر رسول الله (ﷺ) لِيُصيبوا من أصحابه أحدًا ، فكانوا يأتون بالليل يقذفون المسلمين بالحجارة فَأُخِذُوا أخذًا ، وجئ بـهم إلى النبى (ﷺ) ، فعفا عنهم وخلّى سبيلهم احترامًا للشهر الحرام ، وأرسل إلى قريش خِرَاش بن

أُمَيّة الْخُزَاعِيّ ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له ، وحمله على بعير له ، فعقروا بعير النبى (ﷺ) ، وأرادوا قتل خِرَاش لولا أن منعته الأحابيش فَخَلَّوْا سبيله .. ثم إن النبى (ﷺ) دعا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ليبعثه إلى مكة ، فيبلغ أشرافها ما جاء له ، فقال : يَا رَسُولَ الله ، إِنِّي أَخَافُ قُرَيْشًا عَلَى نَفْسِي ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ مِنْ بَنِي عَدِيّ بْنِ كَعْب أَحَدٌ يَمْنَعُنِي ، وَقَدْ عَرَفَتْ قُرَيْشٌ عَدَاوَتِي إِيَّاهَا ، وَغِلْظَتِي عَلَيْهَا ، وَلَكِنِّي أَدُلُّك عَلَى رَجُلٍ أَعَزّ بِهَا مِنِّي ، عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ .. فَدَعَا رَسُولُ الله (ﷺ) عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ، فَبَعَثَهُ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ وَأَشْرَاف قُرَيْش ، يُخْبِرُهُمْ أَنّهُ لَمْ يَأْت لِحَرْب ، وَأَنَّهُ إِنَّمَا جَاءَ زَائِرًا لِهَذَا الْبَيْت ، وَمُعَظِّمًا لِحُرْمَته .. فذهب عُثْمَانُ إلى مكة ، فَلَقِيَهُ أَبَانُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ فأَجَارَهُ حَتَّى بَلَّغَ رسالة النبى (ﷺ) ، فعرضوا عليه أن يطوف بالبيت إن شاء ، فقال : مَا كُنْت لأَفْعَل حَتَّى يَطُوفَ بِهِ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) ، إنما جئنا لنــزور البيت العتيق ، ونؤدى العمرة ، ولقد سقنا الْهَدْى ، فإذا طفنا بالبيت ، ونحرنا هدينا ، رجعنا بسلام ، وأجاب زعماء قريش بأنــهم أقسموا ألا يدخل المسلمون مكة هذا العام عنوة .. وطال احتباس قريش لعثمان مما أثار القلق فى نفوس المسلمين ، وشاع بينهم أن قريشًا قتلت عثمان ، وسرت الإشاعة فى معسكر المسلمين سريان النار فى الهشيم ، واستعد الجميع للقتال ، ووضع كلٌّ يده على مقبض سيفه ، فقد انتهكت قريش حرمة الشهر الحرام ، وحرمة البلد الحرام ..

ودعا النبى (ﷺ) مَنْ معه من المسلمين إلى البيعة ، وكان واقفًا تحت شجرة فبايعوه ، فمنهم من يقول : بايعناه على الموت ، ومنهم من يقول : بايعناه على ألاَّ نَفِرّ ، وبايع رسول الله (ﷺ) لعثمان بن عفان ، فضرب بإحدى يديه على الأخرى ، ونزل قول الله تعالى : (لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾)[1] ، وسميت هذه البيعة ببيعة الرضوان ..

ولم يلبث المسلمون إلا قليلاً حتى جاء عثمان بن عفان ، وأخبر رسول الله (ﷺ) أن قريشًا لم يعد لديها شك فى أنـــهم جاءوا للعمرة وليس للقتال ، ولكنهم يصرون على موقفهم منهم هذا العام ، حتى لا تسقط هيبة قريش ، وتتزعزع مكانتها فى نظر العرب ، فعليه أن يفكر وإياهم لعلهم جميعا يجدون من هذا الموقف مخرجًا .. ثم بعثت قريش سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو ، وَقَالُوا لَهُ : ائْتِ مُحَمَّدًا فَصَالِحْهُ ، وَلاَ يَكُنْ فِي صُلْحِهِ إلاَّ أَنْ يَرْجِعَ عَنَّا عَامَهُ هَذَا ، فَوَاللهِ لاَ تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ عَنَّا أَنَّهُ دَخَلَهَا عَلَيْنَا عَنْوَةً أَبَدًا .. فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه رسول الله (ﷺ) مقبلاً قال : قَدْ أَرَادَ الْقَوْمُ الصُّلْحَ حِينَ بَعَثُوا هَذَا الرَّجُلَ .. فلما انتهى سهيل إلى النبى (ﷺ) جرت محادثات طويلة للصلح وشروطه كادت تنقطع فى بعض الأحيان ، لكن كان يعيد اتصالها حِرْصُ

---

(1) سورة الفتح آية ١٨ .

الجانبين على النجاح .. وكان المسلمون من حول النبى (ﷺ) يسمعون هذه المحادثات ، ويضيق بعضهم بأمرها صدرًا لتشدد سهيل بن عمرو فى مسائل يتساهل النبى (ﷺ) فى قبولها ، فلما تم الاتفاق ولم يبق إلا كتابة العهد ، وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال : يَا أَبَا بَكْرٍ ، أَلَيْسَ بِرَسُولِ اللهِ ؟ قَالَ : بَلَى ، قَالَ : أَوَلَسْنَا بِالْمُسْلِمِينَ ؟ قَالَ : بَلَى ، قَالَ : أَوَلَيْسُوا بِالْمُشْرِكِينَ ؟ قَالَ : بَلَى ، قَالَ : فَعَلامَ نُعْطى الدَّنِيَّةَ [1] فِي دِينِنَا ؟! قَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَا عُمَرُ الْزَمْ غَرْزَهُ [2] ، فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ ، قَالَ عُمَرُ : وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ .. ثُمَّ أَتَى رَسُولَ اللهِ (ﷺ) فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَلَسْتَ بِرَسُولِ اللهِ ؟ قَالَ : بَلَى ، قَالَ : أَوَلَسْنَا بِالْمُسْلِمِينَ ؟ قَالَ : بَلَى ، قَالَ : أَوَلَيْسُوا بِالْمُشْرِكِينَ ؟ قَالَ : بَلَى ، قَالَ : فَعَلامَ نُعْطى الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا ؟! قَالَ النبى (ﷺ) : أَنَا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ ، لَنْ أُخَالفَ أَمْرَهُ ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي ..

وكان عمر بعد ذلك يقول : مَا زِلْتُ أَتَصَدَّقُ وَأَصُومُ وَأُصَلِّي وَأُعْتِقُ ، مِنَ الَّذِي صَنَعْتُ يَوْمَئِذٍ ، مَخَافَةَ كَلامِي الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ ، حَتَّى رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا ..

ودعا النبى (ﷺ) عَلِيَّ بن أبى طالب (رضي الله عنه) ، وقال له : اكْتُبْ (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) ، فَقَالَ سُهَيْلٌ : لاَ أَعْرِفُ هَذَا ، وَلَكِنِ اكْتُبْ (بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ) ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) : اكْتُبْ (بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ) ،

---

[1] الدنية : الذِّلَّة والخضوع والاستسلام .
[2] الزم غرزه : الزم أمره ونــــهيه .

فَكَتَبَهَا ، ثُمَّ قَالَ : اكْتُبْ (هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو) ، فَقَالَ سُهَيْلٌ : لَوْ شَهِدْتُ أَنَّك رَسُولُ اللهِ لَمْ أُقَاتِلْك ، وَلَكِنِ اكْتُبِ اسْمَك وَاسْمَ أَبِيك ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) : اكْتُبْ (هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو، اصْطَلَحَا عَلَى وَضْعِ الْحَرْبِ عَنِ النَّاسِ عَشْرَ سِنِينَ ، يَأْمَنُ فِيهِنَّ النَّاسُ ، وَيَكُفّ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ ، عَلَى أَنَّهُ مَنْ أَتَى مُحَمَّدًا مِنْ قُرَيْشٍ بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّهِ رَدَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَمَنْ جَاءَ قُرَيْشًا مِمَّنْ مَعَ مُحَمَّدٍ لَمْ يَرُدُّوهُ عَلَيْهِ ، وَأَنَّهُ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ دَخَلَ فِيهِ ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ فِيهِ ، وَأَنَّكَ تَرْجِعُ عَنَّا عَامَك هَذَا ، فَلاَ تَدْخُل عَلَيْنَا مَكَّةَ ، وَأَنَّهُ إِذَا كَانَ عَامُ قَابِلٍ ، خَرَجْنَا عَنْك ، فَدَخَلْتَهَا بِأَصْحَابِك ، فَأَقَمْتَ بِهَا ثَلاَثًا ، مَعَك سِلاَحُ الرَّاكِبِ ، السُّيُوفُ فِي الْقُرُبِ ، لاَ تَدْخُلهَا بِغَيْرِهَا) .. وما كاد هذا العقد يوقع ، حتى قالت خزاعة : نَحْنُ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ ، وقالت بَنُو بَكْرٍ : نَحْنُ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ [1] .. وقبل أن ينصرف سهيل فوجئ المسلمون بقدوم أبي جَنْدَلِ بن سُهَيْل بن عَمْرٍو يَرْسُفُ فِي الْحَدِيدِ [2] ، يريد أن ينضم إلى المسلمين ويرحل معهم ، فلما رآه أبوه ضرب وجهه ، وأخذ بتلابيبه ، وجعل يجرّه ليردّه إلى مكة معه ، وأبو جندل يصيح : يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ،

[1] الدخول فى العقد والعهد : التحالف وسريان شروط الاتفاق .
[2] يرسف فى الحديد : جاء يمشى مقيدا فى الحديد .

أَأُرَدّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ يَفْتِنُونِي فِي دِينِي ؟! فَقَالَ له رَسُولُ اللهِ (ﷺ) : يَا أَبَا جَنْدَلٍ ، اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ ، فَإِنَّ اللهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنْ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا ، إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صُلْحًا ، وَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَعْطَوْنَا عَهْدَ اللهِ ، وَإِنَّا لاَ نَغْدِرُ بِهِمْ ، وقام سهيل بن عمرو راجعًا إلى مكة ، وأخذ معه ابنه أبا جندل تنفيذًا لعهد النبى (ﷺ) ووعده .. فزاد هذا الموقف من ضيق المسلمين ، وقلقهم ، وعدم رضاهم عن شروط العهد الذى اتفق عليه النبى (ﷺ) مع سهيل بن عمرو .. إلا أن إيمانــــهم ويقينهم وثقتهم برسول الله (ﷺ) هَوَّن عليهم الأمر ..

وقام رسول الله (ﷺ) فصلى ثم نحر هَدْيه ، وحلق رأسه ، فلما رأى الناس صنيعه قاموا فنحروا هَدْيهم ، ومنهم من حلق رأسه ، ومنهم من قَصَّر شعره .. فقال رَسُولُ اللهِ (ﷺ) : يَرْحَمُ اللهُ الْمُحَلِّقِينَ ، قَالُوا : وَالْمُقَصِّرِينَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : يَرْحَمُ اللهُ الْمُحَلِّقِينَ ، قَالُوا : وَالْمُقَصِّرِينَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : يَرْحَمُ اللهُ الْمُحَلِّقِينَ ، قَالُوا : وَالْمُقَصِّرِينَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : وَالْمُقَصِّرِينَ .. فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ، فَلِمَ ظَاهَرْتَ [1] التَّرْحِيمَ لِلْمُحَلِّقِينَ دُونَ الْمُقَصِّرِينَ ؟ قَالَ : لَمْ يَشُكُّوا .. [2]

وبعد أن نحر المسلمون هديهم ، وحلقــوا رؤوسهم أو قصروا لـــم

---

[1] ظاهرت : قوّيت وأكّدت .

[2] رواه أحمد ، مسند بنى هاشم .

يبق إلا أن يرجعوا إلى المدينة ، على أمل أن يعودوا إلى مكة فى العام المقبل ، وإنـــهم لفى طريقهم بين مكة والمدينة إذ نزل جبريل الأمين (عليه السلام) على النبى (ﷺ) بسورة الفتح ، فتلاها النبى (ﷺ) على أصحابه ، فلم يبق لأحد منهم شك فى أن صلح الحديبية كان فتحًا مبينًا ، وعَمَّ الجميع فرح وسرور برضوان الله عليهم ، وبوعده لهم بدخول البيت الحرام آمنين ..

وما كاد المسلمون يصلون إلى المدينة حتى جاءها أبو بَصِير عُتْبَة بن أسيد فَارًّا بدينه من مكة ، فكتب أَزْهَرُ بْنُ عَبْدِ عَوْفٍ ، والأَخْنَسُ بْنُ شَرِيقٍ إلى النبى (ﷺ) كى يردّه تنفيذًا للعهد ، وبعثا بكتابـــهما مع رجل من بنى عامر ، ومعه مولى لهم ، فقال النبى (ﷺ) : يَا أَبَا بَصِيرٍ ، إِنَّا قَدْ أَعْطَيْنَا هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ مَا قَدْ عَلِمْت ، وَلاَ يَصْلُحُ لَنَا فِي دِينِنَا الْغَدْرُ ، وَإِنَّ اللهَ جَاعِلٌ لَك وَلِمَنْ مَعَكَ مِنْ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا ، فَانْطَلِقْ إِلَى قَوْمِك .. قَالَ أبو بصير : يَا رَسُولَ الله ، أَتَرُدُّنِي إِلَى الْمُشْرِكِينَ يَفْتِنُونَنِي فِي دِينِي ؟! فكرر النبى (ﷺ) عليه قوله ، فانطلق مع الرجلين ، حتى إذا كان بذى الْحُلَيْفَة سأل أَخَا بَنِي عَامِرٍ أن يريه سيفه ، فلما أخذه عَلاَ به العامرى فقتله ، فانطلق المولى يعدو إلى المدينة حتى أتى النبى (ﷺ) ، فلما رآه قال : إنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ رَأَى فزَعًا ، ثم قال للرجل : وَيْحَك مَا لَك ؟ قَالَ : قَتَلَ صَاحِبُك صَاحِبِي ، وإذا بأبى بصير يأتى مُتَوَشِّحًا السَّيْف يقول لرسول الله (ﷺ) : يَا رَسُولَ الله ، وَفَّتْ ذِمَّتُك ، وَأَدَّى اللهُ عَنْك ، أَسْلَمْتنِي بِيَدِ الْقَوْمِ ، وَقَدْ امْتَنَعْتُ بِدِينِي أَنْ أُفْتَنَ فيه

أَوْ يُعْبَثَ بِي .. ثم خرج أبو بصير حتى نَزَلَ الْعِيصَ على ساحل البحر فى طريق قريش إلى الشام ، فلما سمع المسلمون المقيمون بمكة بأمره فَرَّ إليه منهم نحو سبعين رجلاً جعلوه قائدًا لهم ، وأخذوا يقطعون الطريق على قوافل قريش ، مما جعلها تبعث إلى النبى (ﷺ) تسأله بأرحامها إلاَّ آوَى هؤلاء المسلمين حتى يتركوا الطريق آمنا ، وسقط شرط ردّ مَنْ يذهب إلى النبى بغير إذن مولاه من عهد الحديبية برغبة قريش – ذلك الشرط الذى كان من أهم أسباب انزعاج الصحابة وغيظهم – أما المهاجرات من النساء فلم يُطَبَّق عليهن هذا الشرط ، لأن المرأة إذا أسلمت حَرُمَت على زوجها الكافر ، فوجب التفريق بينهما ، وفى هذا الشأن نزل قول الله عز وجل : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)[1] ..

واستقرت الأمور بين المسلمين وبين قريش ، وأَمِن كل منهم جانب الآخر ، فسارت قوافل قريش آمنة فى طريقها ، وبدأ النبى (ﷺ) ينشر دعوته خارج حدود أرض العرب بإرسال الرسل والرسائل إلى مشارق الأرض ومغاربها ..

---

(1) سورة الممتحنة آية ١٠ .

كانت دولة الفرس من أعظم الدول وأقواها فى ذلك العصر ، وكانت تعبد النار ، وكانت دولة الروم تساويها فى القوة ، وكانت على دين النصرانية التى حُرِّفَت ، وكانت الدولتان فى حروب مستمرة ، وصراع للتسلط على الدول الأخرى واستعمارها ، وكانت الحرب بينهما سِجَالاً ، فتارة تنتصر هذه ، وتارة تنتصر تلك ، ولم يكن أمام الدول الصغيرة إلا أن تخضع لإحدى القوتين ، ولم يكن للعرب دولة ، بل كانوا قبائل متناثرة تعيش فى صحراء جرداء ، وتعتمد فى معيشتها على التجارة مع اليمن والحبشة والشام ، وعلى بعض الزراعات كالنخيل وغيره ، وعلى رعى الإبل والأغنام ، ولم تكن شبه الجزيرة العربية مطمعًا لإحدى القوتين الكبيرتين ، فظلَّت بِمَنْأًى عن الصراع ، لكنها كانت حريصة على عدم إثارة غضب هاتين القوتين اللتين تثيران الرعب فيمن حولهما من البلاد ..

وعلى رغم ذلك لم يتردد النبى (ﷺ) فى تبليغ رسالة ربه مهما كانت النتائج ، فخرج على أصحابه يومًا بعد عودته من الحديبية وقال لهم : إنَّ اللّهَ بَعَثَنِي رَحْمَةً وَكَافَّةً ، فَأَدُّوا عَنِّي يَرْحَمكُمْ اللّهُ ، وَلاَ تَخْتَلِفُوا عَلَيَّ كَمَا اخْتَلَفَ الْحَوَارِيُّونَ عَلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، قَالُوا : وَكَيْفَ يَا رَسُولَ اللّهِ كَانَ اخْتِلاَفُهُمْ ؟ قَالَ : دَعَاهُمْ لِمِثْلِ مَا دَعَوْتُكُمْ لَهُ ، فأما مَنْ بعثه مَبْعَثًا قريبًا فرَضِى وسلَّم ، وأما من بعثه مَبْعَثًا بعيدًا فكَرِهَ وَجْهَه وتثاقل ، فَشَكَا ذَلِكَ عِيسَى إِلَى اللّهِ ، فأصبح الْمُتَثَاقِلون وكلٌّ واحد مِنْهُمْ يَتَكَلَّمُ بِلُغَةِ الأمَّة التى بُعِثَ إليها .. ثم ذكر النبى

(ﷺ) لهم أنه مُرْسِل إلى هِرَقْل ، وكِسْرَى ، والنَّجَاشِيّ ، والْمُقَوْقَس ، والْحَارِث الْغَسَّانِي ، والْحَارِث الْحِمْيَرِيّ يدعوهم إلى الإسلام ، فقيل : يا رسول الله ، إِنَّهُمْ لاَ يَقْبَلُونَ كِتَابًا إِلاَّ إِذَا كَانَ مَخْتُومًا ، فَاتَّخَذَ (ﷺ) خَاتَمًا مِنْ فِضَّةٍ نَقْشُه : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ، وَخَتَمَ بِهِ الْكُتُبَ إِلَى الْمُلُوكِ ..

هذا .. وَقَدَ بَعَثَ (ﷺ) دِحْيَةَ الْكَلْبِيّ إِلَى هِرَقْل عظيم الروم بكتاب قال فيه : [بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .. مِنْ مُحَمَّد عَبْد اللَّه وَرَسُوله إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ ، سَلاَمٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ، أَمَّا بَعْدُ .. فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلاَمِ ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الأَرِيسِيِّينَ .. و (يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)[1]] ..[2]

وَبَعَثَ (ﷺ) عَبْدَ اللهِ بْنَ حُذَافَةَ السَّهْمِيّ إِلَى كِسْرَى عظيم الفرس بكتاب قال فيه : [بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .. مِنْ مُحَمَّد رَسُولِ اللهِ إِلَى كِسْرَى عَظِيمِ فَارِسَ ، سَلاَمٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى وَآمَنَ بِاللهِ وَرَسُوله وَشَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ اللهِ ، فَإِنِّي أَنَا رَسُولُ اللهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ ، فَإِنْ أَبَيْت فَعَلَيْكَ إِثْمُ الْمَجُوسِ] ..[3]

---

[1] سورة آل عمران آية ٦٤ . [2] زاد المعاد ، الكتاب إلى هرقل . [3] زاد المعاد ، الكتاب إلى كسرى .

وبعثَ (ﷺ)عَمْرَو بنَ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيّ إلَى النَّجَاشِيّ ملك الحبشة بكتاب قال فيه : [بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .. مِنْ مُحَمَّد رَسُولِ اللهِ إلَى النَّجَاشِيّ مَلك الْحَبَشَة ، سَلِمَ أَنْتَ ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللهَ الَّذي لاَ إِلَهَ إلاَّ هُوَ الْمَلكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رُوحُ اللهِ وَكَلمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْبَتُولِ الطَّيِّبَةِ الْحَصِينَة ، فَحَمَلَتْ بعيسَى فَخَلَقَهُ اللهُ منْ رُوحِهِ ، وَنَفَخَهُ كَمَا خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ إِلَى اللهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَالْمُوَالاَة عَلَى طَاعَته ، وَأَنْ تَتْبَعَنِي وَتُؤْمنَ بِالَّذي جَاءَنِي ، فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ وَجُنُودَكَ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَل ، وَقَدْ بَلَّغْتُ وَنَصَحْتُ فَاقْبَلُوا نَصِيحَتِي ، وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى] .. (1)

وَبَعَثَ (ﷺ) حَاطِبَ بْنَ أَبِي بَلْتَعَةَ إلَى الْمُقَوْقَسِ عظيم قبط مصر بكتاب قال فيه : [بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .. مِنْ مُحَمَّد عَبْد اللهِ وَرَسُوله إِلَى الْمُقَوْقَسِ عَظِيمِ الْقِبْطِ ، سَلاَمٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ، أَمَّا بَعْدُ .. فَإِنِّي أَدْعُوكَ بدعَايَة الإِسْلاَمِ ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ ، وَأَسْلِمْ يُؤْتكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ ، فَإِنْ تَوَلَّيْت فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْقِبْطِ .. و (يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ) (2)] .. (3)

(1) زاد المعاد ، الكتاب إلى النجاشى . (2) سورة آل عمران آية ٦٤ . (3) زاد المعاد ، الكتاب إلى المقوقس.

أما هرقل فلما وصله كتاب النبى (ﷺ) قَالَ حِينَ قَرَأَهُ : الْتَمِسُوا لِي هَاهُنَا أَحَدًا مِنْ قَوْمِهِ لأَسْأَلَهُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) .. قَـــالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَأَخْبَرَنِي أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ أَنَّهُ كَانَ بِالشَّأْمِ فِي رِجَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَدِمُوا تِجَارًا فِي الْمُدَّةِ [1] الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) وَبَيْنَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ ، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ : فَوَجَدَنَا رَسُولُ قَيْصَرَ بِبَعْضِ الشَّأْمِ ، فَانْطُلِقَ بِي وَبِأَصْحَابِي حَتَّى قَدِمْنَا إِيلِيَاءَ [2] ، فَأُدْخِلْنَا عَلَيْهِ ، فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ فِي مَجْلِسِ مُلْكِهِ وَعَلَيْهِ التَّاجُ ، وَإِذَا حَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ ، فَقَالَ لِتَرْجُمَانِهِ : سَلْهُمْ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ : فَقُلْتُ : أَنَا أَقْرَبُهُمْ إِلَيْهِ نَسَبًا ، قَالَ : مَا قَرَابَةُ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ ؟ فَقُلْتُ : هُـــوَ ابْنُ عَمِّي – وَلَيْسَ فِي الرَّكْبِ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ غَيْرِي – فَقَالَ قَيْصَرُ : أَدْنُوهُ ، وَأَمَرَ بِأَصْحَابِي فَجُعِلُوا خَلْفَ ظَهْرِي عِنْدَ كَتِفِي ، ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ : قُلْ لأَصْحَابِهِ : إِنِّي سَائِلٌ هَذَا الرَّجُلَ عَنِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ، فَإِنْ كَذَبَ فَكَذِّبُوهُ – قَالَ أَبُو سُفْيَانَ : وَاللَّهِ لَوْلاَ الْحَيَاءُ يَوْمَئِذٍ مِنْ أَنْ يَأْثُرَ أَصْحَابِي عَنِّي الْكَذِبَ لَكَذَبْتُهُ حِينَ سَأَلَنِي عَنْهُ ، وَلَكِنِّي اسْتَحْيَيْتُ أَنْ يَأْثُرُوا الْكَذِبَ عَنِّي فَصَدَقْتُهُ – ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ : قُلْ لَهُ : كَيْفَ نَسَبُ هَذَا الرَّجُلِ فِيكُمْ ؟ قُلْتُ : هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ ، قَالَ : فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ مِنْكُمْ قَبْلَهُ ؟ قُلْتُ : لاَ ، فَقَالَ : كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ عَلَى الْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ ؟ قُلْتُ : لاَ ، قَالَ : فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ ؟

---

(1) الصلح والمعاهدة .   (2) إيلياء : بيت المقدس .

قُلْتُ : لاَ ، قَالَ : فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ ؟ قُلْتُ : بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ ، قَالَ : فَيَزِيدُونَ أَوْ يَنْقُصُونَ ؟ قُلْتُ : بَلْ يَزِيدُونَ ، قَالَ : فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ ؟ قُلْتُ : لاَ ، قَالَ : فَهَلْ يَغْدِرُ ؟ قُلْتُ : لاَ ، وَنَحْنُ الآنَ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ نَحْنُ نَخَافُ أَنْ يَغْدِرَ – قَالَ أَبُو سُفْيَانَ : وَلَمْ يُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا أَنْتَقِصُهُ بِهِ لاَ أَخَافُ أَنْ تُؤْثَرَ عَنِّي غَيْرُهَا – قَالَ : فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ أَوْ قَاتَلَكُمْ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : فَكَيْفَ كَانَتْ حَرْبُهُ وَحَرْبُكُمْ ؟ قُلْتُ : كَانَتْ دُوَلاً وَسِجَالاً ، يُدَالُ عَلَيْنَا الْمَرَّةَ ، وَنُدَالُ عَلَيْهِ الأُخْرَى ، قَالَ : فَمَاذَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ ؟ قَالَ : يَأْمُرُنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لاَ نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَيَنْهَانَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلاَةِ ، وَالصَّدَقَةِ ، وَالْعَفَافِ ، وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ .. فَقَالَ لِتَرْجُمَانِهِ حِينَ قُلْتُ ذَلِكَ لَهُ : قُلْ لَهُ : إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ فِيكُمْ فَزَعَمْتَ أَنَّهُ ذُو نَسَبٍ ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا .. وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ ، فَقُلْتُ لَوْ كَانَ أَحَدٌ مِنْكُمْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ ، قُلْتُ رَجُلٌ يَأْتَمُّ بِقَوْلٍ قَدْ قِيلَ قَبْلَهُ .. وَسَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ فَزَعَمْتَ أَنْ لا ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ .. وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ فَزَعَمْتَ أَنْ لا ، فَقُلْتُ لَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَلِكٌ قُلْتُ يَطْلُبُ مُلْكَ آبَائِهِ .. وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ فَزَعَمْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ .. وَسَأَلْتُكَ هَلْ

يَزِيدُونَ أَوْ يَنْقُصُونَ فَزَعَمْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ ، وَكَذَلكَ الإِيمَانُ حَتَّى يَتِمَّ .. وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لدينه بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فيه فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ ، فَكَذَلكَ الإِيمَانُ حينَ تَخلطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ لا يَسْخَطُهُ أَحَدٌ .. وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدرُ فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ ، وَكَذَلكَ الرُّسُلُ لاَ يَغْدرُونَ .. وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ وَقَاتَلَكُمْ فَزَعَمْتَ أَنْ قَدْ فَعَلَ ، وَأَنَّ حَرْبَكُمْ وَحَرْبَهُ تَكُونُ دُوَلاً ، وَيُدَالُ عَلَيْكُمُ الْمَرَّةَ ، وَتُدَالُونَ عَلَيْه الأُخْرَى ، وَكَذَلكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى ، وَتَكُونُ لَهَا الْعَاقبَةُ .. وَسَأَلْتُكَ بِمَاذَا يَأْمُرُكُمْ فَزَعَمْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَيَنْهَاكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلاَة ، وَالصَّدَقَة ، وَالْعَفَاف ، وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْد ، وَأَدَاءِ الأَمَانَة ، قَالَ : وَهَذه صفَةُ النَّبيِّ ، قَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ ، وَلَكنْ لَمْ أَظُنَّ أَنَّهُ منْكُمْ .. وَإِنْ يَكُ مَا قُلْتَ حَقًّا فَيُوشكُ أَنْ يَمْلكَ مَوْضعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ ، وَلَوْ أَرْجُو أَنْ أَخْلُصَ إِلَيْه لَتَجَشَّمْتُ لُقيَّهُ [1]، وَلَوْ كُنْتُ عنْدَهُ لَغَسَلْتُ قَدَمَيْه ..قَالَ أَبُو سُفْيَانَ : ثُمَّ دَعَا بِكتَابِ رَسُولِ اللَّه (ﷺ) فَقُرِئَ ، فَلَمَّا أَنْ قَضَى مَقَالَتَهُ عَلَتْ أَصْوَاتُ الَّذينَ حَوْلَهُ منْ عُظَمَاءِ الرُّومِ ، وَكَثُرَ لَغَطُهُمْ ، فَلاَ أَدْرِي مَاذَا قَالُوا ، وَأُمِرَ بِنَا فَأُخْرِجْنَا ، فَلَمَّا أَنْ خَرَجْتُ مَعَ أَصْحَابِي وَخَلَوْتُ بِهِمْ قُلْتُ لَهُمْ : لَقَدْ أَمرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ ، هَذَا مَلكُ بَني الأَصْفَرِ يَخَافُهُ .. قَالَ أَبُو سُفْيَانَ : وَاللَّه مَا زِلْتُ ذَليلاً مُسْتَيْقنًا بِأَنَّ أَمْرَهُ سَيَظْهَرُ حَتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ قَلْبِي الإِسْلاَمَ وَأَنَا كَارِهٌ .. وَكَانَ ابْنُ النَّاظُورِ – صَاحِبُ إِيلِيَاءَ

---

[1] تجشمت لقيه : تحملت مشقة الوصول إليه .

وَهِرَقْلَ – سُقُفًّا (١)عَلَى نَصَارَى الشَّأْمِ يُحَدِّثُ أَنَّ هِرَقْلَ حِينَ قَدِمَ إِيلِيَاءَ أَصْبَحَ يَوْمًا خَبِيثَ النَّفْسِ فَقَالَ بَعْضُ بَطَارِقَتِه (٢) : قَدِ اسْتَنْكَرْنَا هَيْئَتَكَ ! – قَالَ ابْنُ النَّاظُورِ : وَكَانَ هِرَقْلُ حَزَّاءً (٣) يَنْظُرُ فِي النُّجُومِ – فَقَالَ لَهُمْ حِينَ سَأَلُوهُ : إِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ حِينَ نَظَرْتُ فِي النُّجُومِ مَلِكَ الْخِتَانِ قَدْ ظَهَرَ ، فَمَنْ يَخْتَتِنُ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ ؟ قَالُـــوا : لَيْسَ يَخْتَتِنُ إِلاَّ الْيَهُودُ ، فَلاَ يُهِمَّنَّكَ شَأْنُهُمْ ، وَاكْتُبْ إِلَى مَدَايِنِ مُلْكِكَ فَيَقْتُلُوا مَنْ فِيهِمْ مِنَ الْيَهُودِ .. فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ أُتِيَ هِرَقْلُ بِرَجُلٍ أَرْسَلَ بِهِ مَلِكُ غَسَّانَ يُخْبِرُ عَنْ خَبَرِ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) ، فَلَمَّا اسْتَخْبَرَهُ هِرَقْلُ قَالَ : اذْهَبُوا فَانْظُرُوا أَمُخْتَتِنٌ هُوَ أَمْ لاَ ، فَنَظَرُوا إِلَيْهِ فَحَدَّثُوهُ أَنَّهُ مُخْتَتِنٌ ، وَسَأَلَهُ عَنِ الْعَرَبِ فَقَالَ : هُمْ يَخْتَتِنُونَ ، فَقَالَ هِرَقْلُ : هَذَا مُلْكُ هَذِهِ الأُمَّةِ قَدْ ظَهَرَ .. ثُمَّ كَتَبَ هِرَقْلُ إِلَى صَاحِبٍ لَهُ بِرُومِيَةَ – وَكَانَ نَظِيرَهُ فِي الْعِلْمِ – وَسَارَ هِرَقْلُ إِلَى حِمْصَ ، فَلَمْ يَرِمْ (٤) حِمْصَ حَتَّى أَتَاهُ كِتَابٌ مِنْ صَاحِبِهِ يُوَافِقُ رَأْيَ هِرَقْلَ عَلَى خُرُوجِ النَّبِيِّ (ﷺ) وَأَنَّهُ نَبِيٌّ ، فَأَذِنَ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسْكَرَةٍ (٥) لَهُ بِحِمْصَ ، ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فَغُلِّقَتْ ، ثُمَّ اطَّلَعَ فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الرُّومِ هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلاَحِ وَالرُّشْدِ ، وَأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ ، فَتُبَايِعُوا هَذَا النَّبِيَّ ؟ ، فَحَاصُوا (٦) حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الأَبْوَابِ فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ ، فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفْرَتَهُمْ وَأَيِسَ مِنَ الإِيمَانِ قَالَ : رُدُّوهُمْ عَلَيَّ ،

---

(١) الرئيس الديني عند النصارى . (٢) رجال الكنيسة . (٣) كاهنا .
(٤) لم يبرح أو يغادر . (٥) بناء كالقصر . (٦) اضطربوا وتدافعوا .

وَقَالَ : إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي آنفًا أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ ، فَقَدْ رَأَيْتُ .. فَسَجَدُوا لَهُ ، وَرَضُوا عَنْهُ ، فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنِ هِرَقْلَ .. [١]

وأما كِسْرى ، فلما قرأ كتاب رسول الله (ﷺ) مَزَّقَهُ ، فَقَالَ النَّبِي (ﷺ) : اللَّهُمَّ مَزِّقْ مُلْكَه .. فَمَزَّقَ اللهُ مُلْكَهُ وَمُلْكَ قَوْمِهِ .. [٢]

وأما النَّجَاشِيّ ، فلما قرأ كتاب رسول الله (ﷺ) قال : أَشْهَدُ بِاللهِ أَنَّهُ النَّبِيّ الأُمِّيّ الَّذِي يَنْتَظِرُهُ أَهْلُ الْكِتَابِ ، وَأَنَّ بِشَارَةَ مُوسَى بِرَاكِبِ الْحِمَارِ كَبِشَارَةِ عِيسَى بِرَاكِبِ الْجَمَلِ ، وَأَنَّ الْعِيَانَ لَيْسَ بِأَشْفَى مِنْ الْخَبَرِ .. ثُمَّ كَتَبَ النَّجَاشِيّ جَوَابَ كِتَابِ النَّبِي (ﷺ) [بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ..إِلَى مُحَمَّد رَسُولِ اللهِ مِنَ النّجَاشِيّ أَصْحَمَةَ ، سَلاَمٌ عَلَيْك يَا نَبِيَّ اللهِ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ ، اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، أَمَّا بَعْدُ .. فَقَدْ بَلَغَنِي كِتَابُك يَا رَسُولَ اللهِ فِيمَا ذَكَرْتَ مِنْ أَمْرِ عِيسَى ، فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ عِيسَى لا يَزِيدُ عَلَى مَا ذَكَرْتَ ثُفْرُوقًا [٣] ، إِنَّهُ كَمَا ذَكَرْت ، وَقَدْ عَرَفْنَا مَا بُعِثت بِهِ إِلَيْنَا ، وَقَدْ قَرَّبْنَا ابْنَ عَمِّك وَأَصْحَابَهُ ، فَأَشْهَدُ أَنَّك رَسُولُ اللهِ صَادِقًا مُصَدَّقًا ، وَقَدْ بَايَعْتُك وَبَايَعْتُ ابْنَ عَمِّك ، وَأَسْلَمْتُ عَلَى يَدَيْهِ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ].. [٤]

---

[١] رواه البخارى ، كتاب بدء الوحى ، وكتاب الجهاد والسير .

[٢] زاد المعاد ، الجزء الأول ، الكتاب إلى كسرى .

[٣] الثّفْرُوقُ : غِلاف ما بين النَّواة والقِمَع .

[٤] زاد المعاد ، الجزء الثالث ، الكتاب إلى النجاشى .

وأما المقوقس ، فلما قرأ كتاب رسول الله (ﷺ) قال : إِنِّي قَدْ نَظَرْتُ فِي أَمْرِ هَذَا النَّبِي فَوَجَدْتُهُ لاَ يَأْمُرُ بِمَزْهُودٍ فِيه ، وَلاَ يَنْهَى عَنْ مَرْغُوبٍ فِيه ، وَلَمْ أَجِدْهُ بِالسَّاحِرِ الضَّال ، وَلا الْكَاهِنِ الْكَاذِب ، وَوُجِدَتْ مَعَهُ آيَةُ النُّبوَّة بِإِخْرَاجِ الْخَبْءِ وَالإِخْبَارِ بِالنَّجْوَى ، وَسَأَنْظُرُ .. وَأَخَذَ كِتَابَ النَّبِي (ﷺ) فَجَعَلَهُ فِي حُقٍّ مِنْ عَاجٍ ، وَخَتَمَ عَلَيْه ، وَدَفَعَهُ إِلَى جَارِيَةٍ لَهُ ، ثُمَّ دَعَا كَاتِبًا لَهُ يَكْتُبُ بِالْعَرَبِيَّة فَكَتَبَ إِلَى رَسُولِ الله (ﷺ) : [بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .. لِمُحَمَّد بْنِ عَبْدِ الله مِنَ الْمُقَوْقَسِ عَظِيمِ الْقِبْطِ ، سَلاَمٌ عَلَيْك ، أَمَّا بَعْدُ : فَقَدْ قَرَأْتُ كِتَابَك ، وَفَهِمْتُ مَا ذَكَرْتَ فِيه وَمَا تَدْعُو إِلَيْهِ ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ نَبِيًّا بَقِيَ وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّهُ يَخْرُجُ بِالشَّام ، وَقَدْ أَكْرَمْتُ رَسُولَك ، وَبَعَثْتُ إِلَيْك بِجَارِيَتَيْنِ لَهُمَا مَكَانٌ فِي الْقِبْطِ عَظِيمٌ ، وَبِكِسْوَةٍ ، وَأَهْدَيْتُ إِلَيْك بَغْلَةً لِتَرْكَبَهَا ، وَالسَّلاَمُ عَلَيْك] (١) ..

والْجَارِيَتَان هما : مَارِيَة ، وَسِيرِين .. أما سيرين فقد أسلمت وأهداها النبى (ﷺ) لحسان بن ثابت ، وأما السيدة مارية فقد اتخذها النبى (ﷺ) لنفسه بعدما أسلمت فأصبحت مولاة له وسُرِّية (٢) ، وقد أنجب (ﷺ) منها ولده إبراهيم الذى مات وهو صغير ودُفِنَ بالبقيع .. وأما البغلة فكانت بيضاء وسَمَّاها النبى (ﷺ) : دُلْدُل ..

---

(١) زاد المعاد ، الجزء الثالث ، الكتاب إلى المقوقس .

(٢) السُّرِّية تختلف عن الأمة أو الجارية ، إذ يُتَّخذ لها بيت ، ويحق لسيدها أن يطأها ، فإن أنجبت حَرُمَ بيعها..

فتح خيبر

كان يهود خيبر من أقوى اليهود بأسًا فى الجزيرة العربية ، وأكثرهم سلاحًا ، وأوفرهم مالاً ، وكانوا يظاهرون غَطَفان على رسول الله (ﷺ) ، ويحاولون تأليف كتلة مع يهود وادى القرى وتيماء ، مما شكل خطرًا على الدولة الناشئة للمسلمين .. لذلك لم يكد يمضى شهر على عودة النبى (ﷺ) والمسلمين من الحديبية حتى تم تجهيز جيش من ألف وستمائة مقاتل ، ومائة فارس ، شرط النبى (ﷺ) ألا يشارك فيه إلا مَنْ شهد الحديبية ، أو أن يكون متطوعًا ليس له من الغنيمة شىء .. وخرج المسلمون من المدينة وعلى رأسهم رسول الله (ﷺ) وقطعوا المسافة بين المدينة وخيبر فى ثلاثة أيام – لم تكد خيبر تحسهم أثناءها – وباتوا على أبواب حصونها ، وعندما أصبح الصباح خرج اليهود من حصونهم متجهين إلى زراعاتهم ، فلما رأوا جيش المسلمين ، ولَّوا مدبرين يصيحون : مُحَمَّدٌ وَالْخَمِيس [1] ، مُحَمَّدٌ وَالْخَمِيس .. ودخلوا حصونهم وأغلقوها عليهم ، وقال رسول الله (ﷺ) : اللَّهُ أَكْبَرُ ، خَرِبَتْ خَيْبَرُ ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ..

ولما سمعت غطفان بنزول النبى (ﷺ) وجيشه خيبر ، خرجوا لمعاونة اليهود ، ثم رجعوا خشية أن يهاجم المسلمون منازلهم بعد أن تركوها ..

---

[1] الخميس : الجيش .. وسُمِى بذلك لأنه مكون من خمس فرق .

ووقفت قريش تترقب هذه الغزوة ، وهى تتوقع أن تدور الدائرة على المسلمين لِمَا عُرِف من قوة حصون خيبر ، وقيامها فوق الصخور والجبال ، ولطول ممارسة أهلها للحرب والقتال .. ووقف المسلمون أمام الحصون متأهبين للقتال ..

وتشاور اليهود فيما بينهم ، فأشار عليهم زعيمهم سَلاَّم بن مِشْكَم ، فأدخلوا أموالهم وعيالهم فى حصنى الْوَطِيح والسُّلاَلِمِ ، وأدخلوا الذخيرة والسلاح حصن نَاعِم ، ودخلت الْمُقاتِلة حصن نَطَاة ، ودخل سلاَّم بن مِشْكَم معهم يحرضهم على الحرب .. والتقى الفريقان حول حصن نَطَاة ، واقتتلوا قتالاً شديدًا ، وتُوُفِّىَ سلام بن مشكم ، فتولى الحارث بن أبى زينب قيادة اليهود ، وضيق المسلمون الحصار على حصون اليهود الذين استماتوا فى الدفاع عنها ، واستمر الحصار أيامًا ، فبعث النبى (ﷺ) أبا بكر إلى حصن ناعم كى يفتحه ، فقاتل ورجع ، ولم يفتح الحصن ، فبعث النبى (ﷺ) عمر ابن الخطاب فى اليوم التالى ، فلم يفتح الحصن ، فقال النبى (ﷺ) : لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً يَفْتَح اللهُ عَلَى يَدَيْهِ ، يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ .. فبات الجميع وكلهم يتمنى أن يكون ذلك الرجل ، وعندما أصبح الصباح سأل النبى (ﷺ) عن علىّ فقالوا : إنه أَرْمَدُ [1] يا رسول الله ، فقال : ائْتُونِي بِهِ ،

[1] فى عينيه رمد .

فلما جاءه تَفَل النبى (ﷺ) فى عينيه فَشُفِىَ للحظته ، فأعطاه الراية وقال له : امْضِ بِهَا حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ عَلَيْك .. ومضى عَلِىّ بالراية ، فلما دنا من الحصن خرج إليه اليهود فقاتلهم هو ومَنْ معه ، فضربه رجل منهم فأطاح بِتُرْسِهِ من يده ، فتناول علىّ بابًا من أبواب الحصن فتَتَرَّس به ، فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتى فتح الحصن ، ثم جعل الباب قنطرة اجتاز المسلمون عليها إلى داخل أبنية الحصن .. وبعد فتح حصن ناعم فتح المسلمون حصن الْقَمُوص بعد قتال شديد ..

وأصابت المسلمين مجاعة شديدة بعد أن فرغ زادهم ، مما اضطرهم إلى ذبح الْحُمُرِ الأَهْلِيَّةِ ، فنهاهم النبى (ﷺ) عن أكل لحومها والقُدُور تَفُور بــــها ، فكفؤوها على وجوهها ، وأَذِنَ لهم فى أكل لحوم الخيل .. ثم فتح الله عليهم حصن الصّعْبِ بْنِ مُعَاذٍ ، فوجدوا فيه طعامًا كثيرًا مكّنهم من متابعة الحصار والقتال الذى استمر بضع عشرة ليلة .. وكان شعار الصحابة فى خيبر : يَا مَنْصُورُ ، أَمِتْ أَمِتْ ..

واستمر القتال من حصن إلى حصن ، وجعلت الحصون تقع فى أيدى المسلمين واحدًا بعد واحد ، حتى انتهوا إلى حصنى الوَطِيح والسُّلالِم ، وكانا آخر حصنين منيعَيْن لليهود ، ودب اليأس فى نفوس اليهود فطلبوا الصلح ، على أن يحقن النبى (ﷺ) دماءهم ، وقَبِلَ النبى (ﷺ) ، وأبقاهم على أرضهم – التى آلت إلى

المسلمين بحكم الفتح – على أن يكون لهم نصف ثمارها مقابل عملهم فيها ..

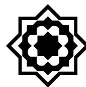
وكان من بين ما وقع فى أيدى المسلمين عدة صحائف من التوراة ، فطلب اليهود ردَّها ، فأمر النبى (ﷺ) بتسليمها إليهم ، وأهْدَتْ زينب بنت الحارث امرأة سلاّم بن مِشْكم – زعيم يهود خيبر الذى مات فى بداية الغزو – شاة مسمومة للنبى (ﷺ) ، فجلس وأصحابه حولها ليأكلوها ، وتناول النبى (ﷺ) الذِراع فأخذ منها قطعة فى فمه ثم لَفِظَها ، وقال : إن هذه الشاة تخبرنى بأنـــها مسمومة .. ودعا زينب يسألها فاعترفت وقالت : لقد بَلَغْتَ مِنْ قَوْمِي مَا لَمْ يَخْفَ عَلَيْك ، فَقُلْتُ : إنْ كَانَ مَلِكًا اسْتَرَحْتُ مِنْهُ ، وَإِنْ كَانَ نَبِيًّا فَسَيُخْبَر .. وكان بشر بن البراء قد تناول من الشاة قطعة فاستساغها وبلعها فمات ، فقُتِلت زينب امرأة سلاّم بن مِشْكم به قصاصًا ..

وكانت السيدة صَفِيَّة بِنْت حُيَيّ بن أَخْطَب من بين السبايا – وقُتِل زوجها – فقيل للنبى (ﷺ) : يا رسول الله ، صفية سيدة بنى قريظة وبنى النضير لا تصلح إلا لك .. فأعتقها النبى (ﷺ) ، وتزوجها بعد أن أسلمت ، وصارت (رضى الله عنها) من أمهات المؤمنين ..

هذا .. وبعد ما تم الصلح مع يهود خيبر بعث النبى (ﷺ) إلى يهود فَدَك يدعوهم إلى الإسلام ، فتصالحوا معه على نصف أموالهم من غير قتال ، وتجهز النبى (ﷺ) للعودة إلى المدينة عن طريق وادى القرى ، فتجهز اليهود بـــها لقتال

المسلمين ، لكنهم اضْطُرُّوا إلى التسليم ، والصلح كما فعل يهود خيبر ، وأما يهود تيماء فقبلوا الجزية من غير حرب ولا قتال .. وبذلك دانت يهود الجزيرة العربية لسلطان المسلمين ، و أصبح المسلمون بمأمن من ناحية الشَّمال إلى الشام ، أما من ناحية الجنوب فحين غضب كِسْرى من كتاب النبى (ﷺ) له ومزقه أرسل إلى بَازَان عامله على اليمن يأمره بأن يبعث إليه برأس هذا الرجل الذى بالحجاز ، فأوفد بازان رسله برسالة إلى النبى (ﷺ) ، ولما وصل رسل بازان إلى النبى (ﷺ) أخبرهم أن كِسْرى مات وخلفه ابنه شِيرَوَيْه - وكان النبى (ﷺ) قد عرف ذلك بالوحى - وطلب إليهم أن يكونوا رسله إلى بازان يدعونه إلى الإسلام ، فلما رجع رسل بازان إليه وأبلغوه رسالة النبى (ﷺ) كان سعيدًا بأن يسلم وأن يبقى عاملاً للنبى (ﷺ) على اليمن ، وبذلك أصبح المسلمون بمأمن من ناحية الجنوب بإسلام بازان ، وبصلح الحديبية مع قريش ..

وعاد النبى (ﷺ) إلى المدينة منصورًا بفضل الله ، واتفقت عودته مع عودة جعفر بن أبى طالب ومَنْ كان معه من المسلمين من الحبشة ، وكذلك عاد رسل النبى (ﷺ) الذين أرسلهم إلى الملوك ، والتأم شمل الجميع بالمدينة المنورة ، وأقام المسلمون آمنين منتظرين حلول شهر ذى القعدة لأداء عمرة القضاء التى تم الاتفاق عليها مع قريش فى صلح الحديبية ..



عُمْرَةُ القضاء

استدار العام وحَلَّ ذو القعدة سنة سبع من الهجرة ، وتجهز المسلمون الذين صُدُّوا عن المسجد الحرام فى ذى القعدة سنة ست من الهجرة لأداء العمرة التى قاضى رسول الله (ﷺ) قريشًا عليها – ولذلك سُمِّيت عمرة القضاء ، وتسمى أيضا عمرة القضية – وخرج النبى (ﷺ) ، وخرج معه ألفان من أصحابه – بزيادة ستمائة شخص عن العدد الذى كان معه فى عمرة الحديبية – واتجهوا إلى مكة يحدوهم الأمل فى رؤية الكعبة والطواف بـــها ، ولم يحملوا معهم سلاحًا إلاَّ السيوف فى قُرُبِها تنفيذًا لما اتُّفِق عليه فى صلح الحديبية ، ولما سمعت قريش بمقدم رسول الله (ﷺ) تركت مكة إلى الجبال والتلال المحيطة بـــها حيث نصبت خيامها ، ودخل النبى (ﷺ) إلى مكة على ناقته القَصْوَاء آخذًا بِخِطَامها عبد الله بن رَوَاحَة ، ويحيط به كبار الصحابة إحاطة السِّوار بالمعصم يحمونه بأجسادهم ، ويفدونه بأرواحهم ، تَحَسُّــبًا لسهم غادِر يرميه مَوْتور ، أو حاقد ، أو مأجور .. وارتفعت أصوات المسلمين بنشيد التوحيد : لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ، لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ ، لاَ شَرِيكَ لَكَ .. ورددت جنبات مكة وجبالها صدى الصوت المؤمن الخاشع ، وأرهف أهل مكة السمع ، وحبسوا أنفاسهم وهم يرقبون من أعالى الجبال والتلال هذا المشهد الفَذَّ الرائع الذى لم تشهد له مكة من قبل مثيلاً .. ولما

وصل النبى (ﷺ) إلى المسجد اضْطَبَعَ [(١)] ، وأمر أصحابه بالاضْطِبَاع ، وقال : يرحم الله امْرَأً أراهم اليوم من نفسه قوة – ذلك لأن قريش تحدثت بأن المسلمين قد أنْهكهم السفر – .. وبدأ النبى (ﷺ) الطواف حول الكعبة باستلام الحجر الأسود ، ورَمَلَ [(٢)] فى الأشواط الثلاثة الأولى ، ومشى فى الأربعة الأخيرة ، والمسلمون يقتدون بفعل رسول الله (ﷺ) ، فيفعلون مثل ما يفعل .. ولما أتم النبى (ﷺ) طوافه حول الكعبة انتقل إلى الصَّفَا وسَعَى بينها وبين الْمَرْوَة – راكبا ناقته القصواء – سبعة أشواط انتهت عند المروة حيث حلق شعره ، ونحر هَدْيَه ، وتحلل من عمرته ..

ومكث النبى (ﷺ) بمكة ثلاثة أيام ، يصلى الصلوات الخمس بأصحابه فى المسجد الحرام ، ويُؤَذِّن بلال من فوق الكعبة ، ويتردد أَذَانه فى جنبات مكة ، ويرقب أهلها المسلمين وهم فى صلاتـــهم خاشعون متوجهون بالكلية إلى الله الواحد الأحد ، ويرون كيف يعين قويُّهم ضعيفَهم ، ويرحم كبيرُهم صغيرَهم ، ويَبرُّ غنيُّهم فقيرَهم ، يسودهم الحب والوئام ، لا يصخبون ، ولا يتنازعون ، ولا يتباغضون ، ولا يتفاخرون بالأنساب ، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، والنبى (ﷺ) بين أصحابه كواحد منهم يحنو عليهم ، ويَهشُّ ويَبشُّ فى وجوههم ، ويُعَلِّمهم دينهم بيسر ولطف ، ويحيطهم برحمته ورأفته ..

---

(١) الاضطباع : أن يضع وسط الرداء تحت الإبط الأيمن ويلقى طرفيه على الكتف اليسرى .
(٢) الرمل : الإسراع فى المشى مع تقارب الخطى .

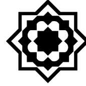
وهكذا رأى أهل مكة الإسلام خُلقًا وسلوكًا .. رأوا الإسلام على حقيقته ، وسمعوا القرآن من أطهر فم يصدح به فى الصلوات الجهرية – الفجر والمغرب والعشاء – نعم .. تبين لأهل مكة كيف كانوا ظالمين لهذا النور المبين ، وكيف خدعهم أشرافهم وزعماؤهم ، لذلك كانت مسارعة الكثير منهم إلى الدخول فى هذا الدين الذى يخاطب العقل والوجدان ، ويسمو بالإنسان من البهيمية ، والجاهلية إلى نور المعرفة واليقين ، ويعلو به فوق الشهوات والأهواء .. وكان من بين هؤلاء السيدة مَيْمُونَة بنت الحارث – أخت أم الفضل زوج العباس بن عبد المطلب عم النبى (ﷺ) – التى رأت ما رآه أهل مكة فَهَفَت نفسُها للإسلام فأسلمت وآمنت وصدقت .. ولما رأى العباس ذلك منها ذهب إلى النبى (ﷺ) وأخبره أن ميمونة تأَيَّمَت [1] وأنـــها أسلمت ، وعرض عليه الزواج منها ، فأرسل النبى (ﷺ) إليها جعفر بن أبى طالب فصادفها على بعير لها فقال : أرسلنى رسول الله (ﷺ) أذكره عليك ، فقالت (رضى الله عنها) : البعير وما عليه لرسول الله (ﷺ) ، فتزوجها النبى (ﷺ) بمكة ، فكانت آخر أزواجه (ﷺ) ..

وأراد النبى (ﷺ) أن يمكث بمكة بعد انقضـــاء الأيام الثلاثة ، فلما جاءه سهيل بن عمرو – الذى وقع معه صلـــح الحديبية – وحُوَيْطب بن

---

[1] تأيمت : مات عنها زوجها .

عبد العُزَّى يطلبان منه الخروج من مكة – فقد انقضت الأيام الثلاثة المتفق عليها – قال لهما : ما عليكم لو تركتمونى فأَعْرَستُ [1] بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ ، وصنعنا لكم طعامًا فحضرتموه ؟ .. فقالا : لا حاجة بنا إلى طعامك ، فاخرج عنا .. فأذَّن النبى (ﷺ) فى المسلمين بالرحيل ، وخلَّف وراءه أبا رافع مولاه كى يلحق به مع السيدة ميمونة (رضى الله عنها) فأتاه بــها وهو فى سَرِف [2] ، وصنع النبى (ﷺ) طعامًا لأصحابه بمناسبة زواجه .. ثم ارتحلوا إلى المدينة بعد أن تركت عمرة القضاء فى نفوس أهل مكة من الأثر ما ظهرت نتائجه بعد ذلك ..



(1) أعرس : دخل بزوجته .

(2) سرف : موضع بين مكة والمدينة .

غـزوة مؤتـة

بعد عودة النبى (ﷺ) من عُمْرة القضاء ، أرسل خمسين رجلاً إلى بنى سُلَيْم ليدعوهم إلى الإسلام ، فغدر بنو سليم بهم وقتلوهم ، ولم ينج منهم سوى رئيسهم الذى نجا بمحض الصدفة ، ثم أرسل النبى (ﷺ) خمسة عشر رجلاً إلى ذات الطَّلْح على حدود الشام يدعون إلى الإسلام ، فَقُتلوا جميعًا إلا رجلاً واحدًا .. فجهز النبى (ﷺ) – فى جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة – جيشًا واستعمل عليهم زيد بن حارثة ، وقال : إنْ أُصِيبَ زَيْدٌ ، فَجَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَى النَّاسِ ، فَإِنْ أُصِيبَ جَعْفَرٌ ، فَعَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ عَلَى النَّاسِ .. فتجهز المسلمون ثم تَهيأوا للخروج وهم ثلاثة آلاف ، ولما حضر خروجهم سار معهم النبى (ﷺ) إلى ظاهر المدينة وهو يوصيهم ألا يقتلوا النساء ، ولا الأطفال ، ولا المكفوفين ، ولا الشيوخ ، وألا يهدموا المنازل ، ولا يقطعوا الأشجار .. وسار الجيش حتى بلغ مَعَان من أرض الشام ، وعلم شُرَحْبيل – عامل هرقل على الشام – بمسير الجيش فجمع الجموع ، وأرسل إلى هرقل وأخبره ، فأرسل إليه جيشًا من مائة ألف رجل نزلوا مآب من أرض البَلْقَاء ، وبلغ المسلمين أمر هذه الجموع ، وهم بِمَعان ، فأقاموا بها ليلتين يفكرون ماذا يصنعون أمام تلك الجموع ، وقالوا : نكتب إلى رسول الله (ﷺ) فنخبره بعدد عدونا ، فإما أن يُمِدَّنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له .. وكاد هذا

الرأى يسود لولا أن تقدم عبد الله بن رواحة فقال : يا قوم ، والله إنَّ التى تكرهون لَلَّتى خرجتم تطلبون : الشهادة ، وما نقاتل الناس بعُدَدٍ ، ولا قوة ، ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بـــهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانْطَلِقوا ، فإنما هى إِحْدَى الْحُسْنَيَيْن : إما ظهور ، وإما شهادة .. فقال الناس : قد والله صدق ابن رواحة .. فمضى الناس حتى إذا كانوا بِتُخوم [1] البلقاء لقيتهم جموع الروم بقرية يقال لها مَشَارِف ، فانحاز المسلمون إلى قرية مُؤْتَة حيث بدأت المعركة حامية الوطيس بين ثلاثة آلاف من المسلمين ، وبين مائة أو مائتى ألف من جيوش هرقل !! وقاتل زيد بن حارثة – وهو يحمل راية رسول الله (ﷺ) – قتالاً شديدًا حتى مَزَّقته رماح العدو ، فأخذ الراية جعفر بن أبى طالب ، وقاتل حتى إذا أحاط العدو بفرسه ، اقتحم عنها وعقرها ، واندفع بنفسه وسط القوم يطيح بسيفه الرؤوس ، والراية فى يمينه فَقُطِعت يمينه ، فأخذ الراية بشماله فَقُطِعت ، فاحتضن الراية بعضديه حتى قُتِل ، فأخذ الراية عبد الله بن رواحة ، فتردد قليلاً ثم تقدم وقاتل حتى قُتِل ، فأخذ الراية ثابت بن أرقم ، وقال : يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ، اصْطَلِحُوا عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ ، قَالُوا : أَنْتَ ، قَالَ : مَا أَنَا بِفَاعِلٍ ، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد ، فأخذ الراية ، وداور بالمسلمين حتى ضم صفوفهم ونظمها ، واكتفى بمناوشة العدو حتى أرخى الليل سدوله ، ووضع الجيشان السلاح إلى الصباح ، وأثناء الليل وزَّع خالد

---

[1] التخوم : الحدود الفاصلة بين البلاد .

بعض جنوده فى صف طويل فى مؤخرة جيشه ، وأمرهم إذا أصبح الصباح أن يحدثوا جَلَبة شديدة حتى يُدْخِلوا فى رُوع العدو أن مددًا كبيرًا جاء المسلمين من المدينة ، وأثمرت حيلة خالد بن الوليد ، فتوقف الروم عن مهاجمة المسلمين ، وانتهز خالد الفرصة وانسحب بجيشه بسلام ، واتجه عائدًا إلى المدينة دون أن يتمكن العدو من الانتصار على المسلمين بفضل الله ..

وينـــزل جبريل (عليه السلام) إلى النبى (ﷺ) يخبره بمصرع القادة الثلاثة ، وبتولى خالد بن الوليد القيادة ، وانتصار جيش المسلمين ، فيسرع النبى (ﷺ) إلى بيت جعفر بن أبى طالب يطلب رؤية أبنائه ، وتأتيه أَسْمَاءُ بنت عُمَيْس (امـــرأة جعفر) بـــهم وقد غسَّلَتْهُم ، وطَيَّبَتْهم .. فأخذ النبى (ﷺ) يُقَبِّلُهم ، ويتشمَّمهُم ، وعيناه تذرفان .. وتسأله أسماء : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ ، مَا يُبْكِيك ؟ أَبَلَغَك عَنْ جَعْفَرٍ وَأَصْحَابِهِ شَيْءٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ أُصِيبُوا هَذَا الْيَوْمَ .. ويحكى عن جعفر فيقول : واللهِ لَقَدْ أَبْدَلَهُ اللهُ بِذِرَاعَيْهِ جَنَاحَيْنِ يَطِيرُ بِهِمَا فِي الْجَنَّةِ .. فصاحت أسماء باكية ، ودخلت فاطمة بنت النبى (ﷺ) تصرخ وتقول : وَاعَمَّاهُ .. فَقَالَ النبى (ﷺ) : عَلَى مِثْلِ جَعْفَرٍ فَلْتَبْكِ الْبَوَاكِي .. ويخرج إلى أصحابه وهو يبكى ويقول : أخوَاى !! ومُؤْنسَاى !! ومُحَدِّثَاى !! ثم يرجع إلى بيته ، ويقول لنسائه : اصْنَعُوا لأَهْلِ جَعْفَرٍ طَعَامًا ، فَإِنَّهُ قَدْ جَاءَهُمْ مَا يَشْغَلُهُمْ .. وتُصْبِحُ سُنَّةً أن يصنع الناس طعامًا لأهل الميت الذين يشغلهم الحزن عن ذلك ..

وما كاد خالد بن الوليد يعود بالجيش إلى المدينة حتى أخذ الناس يحثون

على الجيش التراب ويقولون : يَا فُرَّارُ ، فَرَرْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ؟! فَيَقُولُ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) : لَيْسُوا بِالْفُرَّارِ ، وَلَكِنَّهُمُ الْكُرَّارُ إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى ..

وبعد أسابيع بعث النبى (ﷺ) عمرو بن العاص يستنفر القبائل فى شمال الجزيرة العربية إلى الشام ، فلما كان على ماء يقال له السَّلْسَل بعث إلى النبى (ﷺ) يطلب مددًا ، فأرسل إليه أبا عبيدة بن الجراح مع طائفة من المهاجرين الأولين فيهم أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وقال لأبى عبيدة : لا تختلف مع عمرو بن العاص ، فلما وصل المدد ، قال عمرو لأبى عبيدة : إنما جئتَ مددًا لى ، فأنا على قيادة الجيش ، فقال أبو عبيدة : لقد قال رسول الله (ﷺ) : لا تختلفا ، وإنك إن عصيتنى أَطَعْتُك .. وتقدم الجيش فشتت جموع أهل الشام ، وعادت بذلك هيبة المسلمين فى تلك المنطقة ، وسُمِّيت تلك الغزوة بغزوة ذات السَّلاسِلِ ..

وبدأت وفود القبائل تجئ إلى النبى (ﷺ) من مختلف المناطق تعلن إسلامها ، وإذعانها له ، وخاصة القبائل العربية المتاخمة لحدود الشام ، كما أسلمت جموع من قبائل سُلَيْم – وعلى رأسهم العباس بن مِرْدَاس – ومن قبائل غَطَفَان ، وأَشْجَع ، وعَبْس ، وفَزَارَة ، وذُبْيان ، فاستتب الأمر للمسلمين فى شمال المدينة المنورة إلى حدود الشام ، وازداد الإسلام عزة وقوة ومنعة ..

فتح مكة

أثارت شجاعة المسلمين فى غزوة مؤتة ذهول جيوش الروم من عرب وعجم ، وأثارت إعجاب القبائل العربية المتاخمة لحدود الشام ، لكن انسحاب المسلمين من المعركة أثار فى نفوس الكثيرين من أهل المدينة الحزن والغضب ، أما أهل مكة فقد نظروا إلى الغزوة على أنـــها هزيمة ساحقة للمسلمين قضت عليهم ، وعلى سلطانـــهم فى الجزيرة العربية ، واعتقد بنو بكر - الذين دخلوا فى عهد قريش بعد صلح الحديبية - أن الفرصة قد سنحت لهم ليثأروا من خزاعة - الذين دخلوا فى عهد النبى (ﷺ) بعد صلح الحديبية - وشجعهم على ذلك جماعة من سادات قريش منهم عِكْرِمَة بن أَبِي جَهْل ، وأَمَدُّوهم بالسلاح ، ففاجأوا جماعة من خزاعة ، وقتلوا عددًا منهم ، وهم على ماء لهم يُقَال له الْوَتِير ، فَفَرَّ الباقون إلى مكة ، ولجأوا إلى دار بُدَيْل بن وَرْقَاء ، وشكوا إليه نقض قريش وبنى بكر عهدهم مع رسول الله (ﷺ) ، وسارع عَمْرُو بن سَالِم الْخُزَاعِيّ بالسفر إلى المدينة ، ودخل على النبى (ﷺ) وهو جالس مع أصحابه بالمسجد فقص عليه ما حدث ، واستنصره على بنى بكر ، فقال له النبى (ﷺ) : نُصِرْتَ يَا عَمْرُو ، ثم جاء بُدَيْل بن وَرْقَاء فى نفر من خزاعة إلى النبى (ﷺ) ، وأخبروه بما أصابـــهم ، وبمظاهرة قريش بنى بكر عليهم ، فتأكد للنبى (ﷺ) أن قريشًا قد نقضت عهدها معه ، فأمر المسلمين بالاستعداد ، والتجهز للخروج ، ولم يخبرهم بوجهته ..

أما زعماء قريش فقد رأى بعضهم أن ما حدث من عِكْرِمَة بن أَبِي جَهْل ومَنْ معه من تحريض لبنى بكر وتشجيع قد عرضهم للخطر ، فقد نُقِضَ العهد بفعلهم ، وأصبح المسلمون فى حِلٍّ من أى التزام قِبَلهم ، فقرروا إرسال أبى سُفْيان إلى النبى (ﷺ) للتفاوض معه ، فلما بلغ عُسْفان لقيه بُدَيْل بن وَرْقَاء ومَنْ معه ، فخاف أبو سُفْيان أن يكون بُدَيْل قد أخبر النبى (ﷺ) بما حدث ، فنفى بُدَيْل مقابلته له (ﷺ) ، لكن أبا سفيان لم يصدقه وآثر أن يلجأ إلى بيت ابنته أم حبيبة أم المؤمنين قبل أن يقابل النبى (ﷺ) ، فدخل عليها وأراد أن يجلس على فراش النبى (ﷺ) فطَوَتْهُ أم حبيبة ، فسألها : يَا بُنَيَّتِى أَرَغِبْتِ بِي عَنِ الْفِرَاشِ ، أَمْ رَغِبْتِ بِالْفِرَاشِ عَنِّي ؟! قالت : بَلْ رَغِبْتُ بِالْفِرَاشِ عَنْكَ ، فإنَّه فِرَاش رَسُولِ اللهِ (ﷺ) وَأَنْتَ امْرُؤٌ مُشْرِكٌ نَجِسٌ ، فَلَمْ أُحِبّ أَنْ تَجْلِسَ عَلَيه ، فقال أبو سفيان : وَاللهِ لَقَدْ أَصَابَكِ يَا بُنَيَّةُ بَعْدِي شَرٌّ !! .. وخرج مُغْضبًا ، ودخل على رسول الله (ﷺ) فكلمه فى العهد فلم يرد عليه ، فطلب من أبى بكر أن يكلم له النبى (ﷺ) فأبى ، فطلب من عمر فأغلظ له القول ، فدخل على علىّ بن أبى طالب ، وعنده السيدة فاطمة ، وطلب منه أن يشفع له عند رسول الله (ﷺ) ، فأخبره علىّ أنه لا يستطيع أحد أن يردّ رسول الله (ﷺ) عن أمر إذا هو اعتزمه ، فاستشفع أبو سفيان السيدة فاطمة أن يُجِيرَ [1] ابنها

[1] الإجارة : تعهد بالمنع والحماية فلا يحدث اعتداء بالإيذاء أو القتل .

الحسن بين الناس ، فقالت : مَا يُجِيرُ أَحَدٌ عَلَى رَسُولِ اللهِ (ﷺ) ، فاشتد الأمر على أبي سفيان فاستنصح عليًّا ، فقال له : وَاللهِ مَا أَعْلَمُ شَيْئًا يُغْنِي عَنْك ، وَلَكِنَّك سَيِّدُ بَنِي كِنَانَةَ ، فَقُمْ فَأَجِرْ بَيْنَ النَّاسِ ، ثُمَّ الْحَقْ بِأَرْضِك .. فذهب أبو سفيان إلى المسجد وأعلن أنه أجار بين الناس ، ثم ركب راحلته وانطلق عائدًا إلى مكة ، أما النبى (ﷺ) فقد أمر الجيش بالتَّجهز للخروج ، وبينما هم يستعدون لذلك كتب حَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَة كتابًا أعطاه امرأةً من مكة ، وجعل لها أجرًا على أن توصله إلى قريش .. ونزل جبريل عليه السلام على النبى (ﷺ) فأخبره بما فعل حَاطِب بن أَبِي بَلْتَعَة ، فاستدعى النبى (ﷺ) علىّ بن أبى طالب الذى يحكى فيقول : بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) أَنَا وَالزُّبَيْرَ وَالْمِقْدَادَ ، فَقَالَ : انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً [1] مَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوه مِنْهَا .. فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى [2] بِنَا خَيْلُنَا ، حَتَّى أَتَيْنَا الرَّوْضَةَ فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَة ، قُلْنَا لَهَا : أَخْرِجِي الْكِتَابَ ، قَالَتْ : مَا مَعِي كِتَابٌ ، فَقُلْنَا لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ ، فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا [3] ، فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) فَإِذَا فِيهِ : مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى نَاسٍ بِمَكَّةَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) : يَا حَاطِبُ ، مَا هَذَا ؟ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّه ، لاَ تَعْجَلْ عَلَيَّ ، إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ - يَقُولُ : كُنْتُ حَلِيفًا ،

---

[1] الظعينة : المرأة فى السفر .
[2] تعادَى : تتسابق فى الجرى .
[3] العقيصة : الشَّعر المضفور .

وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا – وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ مَنْ لَهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا [1] يَحْمُونَ قَرَابَتِي ، وَلَمْ أَفْعَلْهُ ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي ، وَلاَ رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلاَمِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) : أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ ، فَقَالَ عُمَرُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ ، فَقَالَ : إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَى مَنْ شَهِدَ بَدْرًا فَقَالَ : اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ .. فَأَنْزَلَ اللَّهُ السُّورَةَ [2] (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ) إِلَى قَوْلِهِ (فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ) .. [3]

وخرج النبى (ﷺ) فى رمضان على رأس ثمانى سنين ونصف من مقدمه المدينة ومعه المهاجرون والأنصار ، وانضم إليهم المسلمون من قبائل سُلَيْم ، ومُزَيْنة ، وغَطَفَان ، وغيرهم حتى بلغ عددهم عشرة آلاف مقاتل ، وساروا متجهين إلى مكة ، يصوم النبى (ﷺ) ، ويصومون حتى إذا بلغ الْكَدِيد – وهو ماء بَيْنَ عُسْفَان وقُدَيْد – أفطر وأفطروا .. ولم تعلم قريش بخروج النبى (ﷺ) حيث كانوا فى حيرة من أمرهم ، لا يدرون ما ينوى النبى (ﷺ) فعله ، وخرج العَبَّاس بن عبد المطلب مع أهله يريد المدينة فلَقِيَ النبيَّ (ﷺ) بِالْجُحْفَة ،

---

[1] يدا : منَّة ونعمة . [2] سورة الممتحنة . [3] رواه البخارى ، كتاب المغازى .

وكذلك خرج أَبُو سُفْيَان بن الْحَارِثِ بن عَبْدِ الْمُطَّلِب ابن عم النبى (ﷺ) ، وَعَبْد اللهِ بن أَبِي أُمَيَّةَ بن الْمُغِيرَة ابن عمته حتى وصلا إلى نيقِ الْعُقَابِ فوجدا جيش المسلمين ، واستأذنا على النبى (ﷺ) فرفض أن يأذن لهما ..

ولما رأى العباس بن عبد المطلب جيش المسلمين وعدَدَه وقوته خاف على مكة وأهلها ، وفاتح النبى (ﷺ) فى ذلك ، وأراد أن يكون سفيرًا له إلى أهل مكة حتى لا يحدث قتال وتبقى مكة حرامًا كما كانت ، ووافق النبى (ﷺ) وأعطى العباسَ بَغْلَته البيضاء ليركبها ليكون فى أمان ، فسار العباس حتى إذا وصل إلى ناحية الأَرَاك لَقِيَ أبا سفيان ، وبُدَيْل بن وَرْقَاء ، وحَكِيم بن حِزَام - وكانت قريش قد أرسلتهم ليتحسسوا أخبار النبى (ﷺ) حين علمت بنـــزول جيش المسلمين مَرَّ الظَّهْرَان - فقال العباس لأبى سفيان : وَيْحَك يَا أَبَا سُفْيَانَ ، هَذَا رَسُولُ اللهِ (ﷺ) فِي النَّاسِ ، وَاصبَاحَ قُرَيْشٍ إذا دَخَل مَكَّة عَنْوَة ، فقال أبو سفيان : فَمَا الْحِيلَةُ ، فِدَاك أَبِي وَأُمِّي ؟ فأركبه العباس خلفه على بَغْلَة النبى (ﷺ) وردَّ صاحبيه إلى مكة ، وسار به ، والناس إذا رأوا بَغْلَة النبى (ﷺ) عرفوها ، وتركوها تَمُر بِمَنْ عليها ، ودخل العباس على النبى (ﷺ) ومعه أبو سفيان ، فقال النبى (ﷺ) : اذْهَبْ بِهِ يَا عَبَّاسُ إِلَى رَحْلِك ، فَإِذَا أَصْبَحْت فَأْتني بِهِ ، فلما كان الصباح وجيء بأبى سفيان إلى النبى (ﷺ) قال له : وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَان !! أَلَمْ يَأْنِ لَك أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ؟! فقال أبو سفيان : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، مَا أَحْلَمَك ، وَأَكْرَمَك ، وَأَوْصَلَك ، وَاللهِ لَقَدْ

ظَنَنْتُ أَنْ لَوْ كَانَ مَعَ اللهِ إِلَهٌ غَيْرُهُ لَقَدْ أَغْنَى عَنِّي شَيْئًا بَعْدُ ، فقَالَ النبى (ﷺ) : وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ !! أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ ؟! قال أبو سفيان : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، مَا أَحْلَمَك ، وَأَكْرَمَك ، وَأَوْصَلَك ، أَمَّا وَاللهِ هَذِهِ فَإِنَّ فِي النَّفْسِ مِنْهَا حَتَّى الآنَ شَيْئًا ، فتدخل العباس موجهًا القول إلى أبى سفيان ناصحًا له أن يسلم ، وأن يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، فأسلم أبو سفيان ، وتوجه العباس إلى النبى (ﷺ) قائلاً : يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ يُحِبُّ الْفَخْرَ ، فَاجْعَلْ لَهُ شَيْئًا ، فقال النبى (ﷺ) : نَعَمْ ، مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ .. ثم قال النبى (ﷺ) للعباس : احْبِسْ أَبَا سُفْيَانَ عِنْدَ حَطْمِ الْخَيْلِ (١) حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ ، فَحَبَسَهُ الْعَبَّاسُ ، فَجَعَلَت الْقَبَائِلُ تَمُرُّ مَعَ النَّبِيِّ (ﷺ) ، تَمُرُّ كَتِيبَةً كَتِيبَةً عَلَى أَبِي سُفْيَانَ ، فَمَرَّتْ كَتِيبَةٌ قَالَ : يَا عَبَّاسُ مَنْ هَذِه ؟ قَالَ : هَذِه غِفَارُ ، قَالَ : مَا لِي وَلِغِفَارَ ، ثُمَّ مَرَّتْ جُهَيْنَةُ ، قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ مَرَّتْ سَعْدُ بْنُ هُذَيْمٍ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَمَرَّتْ سُلَيْمُ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ ، حَتَّى نَفِدَت الْقَبَائِلُ مَا تَمُرُّ بِه قَبِيلَةٌ إِلاَّ وسأل العباس عنها ، فإذا أخبره بِهِمْ قَالَ : مَا لِي وَلِبَنِي فُلانٍ ، حَتَّى مَرَّ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) فِي كَتِيبَتِه الْخَضْرَاءِ (٢) فِيهَا الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ) لاَ يُرَى مِنْهُمْ إِلاَّ الْحَدَقُ مِنَ

---

(١) حطم الخيل : ازدحامها .. وفى رواية " خطم الجبل " أى : أنف الجبل .

(٢) قِيلَ لَهَا الْخَضْرَاءِ لِكَثْرَةِ الْحَدِيدِ وَظُهُورِه فِيهَا .

الْحَديد ، فقَالَ : سُبْحَانَ اللهِ يَا عَبَّاسُ ، مَنْ هَؤُلاءِ ؟ قَالَ : هَذَا رَسُولُ اللهِ (ﷺ) فِي الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ ، قَالَ : مَا لأَحَد بِهَؤُلاءِ قِبَلٌ وَلا طَاقَةٌ ، وَاللهِ يَا أَبَا الْفَضْلِ لَقَدْ أَصْبَحَ مُلْكُ ابْنِ أَخِيك الْغَدَاةَ عَظِيمًا ، قَالَ : يَا أَبَا سُفْيَانَ إِنَّهَا النُّبُوَّةُ ، قَالَ : فَنَعَمْ إِذَنْ .. ولما مرَّ سَعْدُ بْنُ عُبَادَة على أبى سفيان قال : يَا أَبَا سُفْيَانَ الْيَوْمَ يَوْمُ الْمَلْحَمَة ، الْيَوْمَ تُسْتَحَلُّ الْكَعْبَةُ ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ : يَا عَبَّاسُ حَبَّذَا يَوْمُ الذِّمَارِ [1] ، فَلَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) بِأَبِي سُفْيَانَ قَالَ : أَلَمْ تَعْلَمْ مَا قَالَ سَعْدُ ابْنُ عُبَادَةَ ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) : مَا قَالَ ؟ قَالَ : قال : كَذَا وَكَذَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) : كَذَبَ سَعْدٌ ، وَلَكِنْ هَذَا يَوْمٌ يُعَظِّمُ اللَّهُ فِيهِ الْكَعْبَةَ ، وَيَوْمٌ تُكْسَى فِيهِ الْكَعْبَةُ .. ثم انطلق أبو سفيان عائدًا إلى قومه يصيح فيهم بأعلى صوته : يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قِبَل لكم به ، مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ أَغْلَقَ عليه بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ ..

وسار النبى (ﷺ) بجيشه ، وفَرَّقَه أربع فرق ، وأمَرَ الجميع ألاَّ يقاتلوا ، ولا يسفكوا دمًا إلا إذا أُكْرِهوا على ذلك إكراهًا ، وأمَرَ الزُّبَيْر بن الْعَوَّام الذى كان على ميسرة الجيش أن يدخل مكة من شَمالها ، وأمَرَ خَالِد بن الْوَلِيد الذى كان على ميمنة الجيش أن يدخل مكة من أسفلها ، وأمَرَ سَعْد بن عُبَادَة الذى كان على الأنصار أن يدخل مكة من جانبها الغربى ، وأمَرَ أبا عُبَيْدَة بن الْجَرَّاح الذى كان على المهاجرين أن يدخل مكة من أعلاها ، وسار هو

[1] الذمار : ما يجب حمايته من الأهل والعِرض .

معهم ، ثم أخذ الراية من سَعْد بن عُبَادَة – حين بلغه أنه يقول : الْيَوْمَ يَوْمُ الْمَلْحَمَةِ ، الْيَوْمَ تُسْتَحَلُّ الْحُرْمَة – ودفعها إلى ابنه قيس ، ودخلت الجيوش مكة دون مقاومة ، إلا جيش خالد بن الوليد الذى فوجئ بالنَّبْل يُلْقَى عليهم من الذين لم يُرْضِهم ما نادى به أبو سفيان ، والذين اشتركوا مع بنى بكر فى نقض العهد ، وعلى رأسهم عِكْرِمَة بن أَبِى جَهْل ، وصَفْوَان بن أُمَيَّة ، وسُهَيْل بن عَمْرو ، فطاردهم خالد بن الوليد وفَرَّقهم ، وقَتَل منهم بضعة عشر رجلاً ، وقُتِل من جيشه رجلان ، وفَرَّ كل من عكرمة ، وصفوان ، وسهيل ..

ونزل النبى (ﷺ) بأعلى مكة قُبَالَة جبل هند ، وهنالك ضُرِبَت له قبة دخل فيها ليستريح ، ولم يلبث إلا قليلاً ، ثم خرج وامتطى ناقته القَصْوَاء ، وسار بـــها حتى بلغ الكعبة ، فطاف بالبيت سبعًا يَسْتَلِمُ الحجر الأسود بِمِحْجَن [1] فِي يَدِهِ ، فلما قضى طوافه دعا عُثْمَان بن طَلْحَة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ، فَفُتِحَتْ له ، فدخلها فوجد فيها حَمَامَةً مِنْ عِيدَانٍ فكسرها بيده ثم طرحها ، ورأى جدرانـــها صُوِّرت عليها الملائكة والنبيون ، ورأى إبراهيم مُصَوَّرًا فى يده الأَزْلَام [2] يستقسم بـــها ، فأمر بتلك الصور فَمُحِيَت ، ومكث النبى (ﷺ) بالكعبة فترة طويلة ومعه بلال ، وقد سأل عبد الله بن عمر بلالاً – بعد خروج النبى (ﷺ) – هل صلى النبى (ﷺ) بالكعبة ؟ فأجاب بلال : نعم ، وأشار إلى المكان الذى صلى فيه ، ونسى عبد الله أن يسأل بلالاً كم صلى رسول الله (ﷺ) ..

---

(1) المحجن : عصا قصيرة منحنية الرأس .

(2) الأزلام : السهام المكتوب عليها إفعل ولا تفعل .

ولما خرج النبى (ﷺ) من الكعبة ، ابتدره العباس قائلاً : يا رسول الله ، أَعْطِنى المفتاح ، واجمع لى السدانة مع السقاية .. وينـــزل جبريل (عليه السلام) على النبى (ﷺ) بقول الله عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ ﴾ [1] فينادى الرسول (ﷺ) على عثمان بن طلحة سادن الكعبة ، فيعطيه المفتاح قائلاً له : خذوها خالدة تالدة ، لا ينـــزعها منكم إلا ظالم .. ويقف النبى (ﷺ) على باب الكعبة ، وقد اجتمع له الناس فى المسجد فيقول : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَه ، صَدَقَ وَعْدَهُ ، وَنَصرَ عَبْدَهُ ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ ، أَلاَ كُلُّ مَأْثُرَة [2] ، أَوْ دَمٍ [3]، أَوْ مَالٍ [4] يُدَّعى فَهُوَ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ ، إلاَّ سِدَانَةَ [5] الْبَيْتِ ، وَسِقَايَةَ الْحَجِيجِ ، أَلاَ وَقَتِيلَ الْخَطَإِ شِبْهِ الْعَمْدِ بِالسَّوْطِ وَالْعَصَا ، فَفِيه الدِّيَةُ مُغَلَّظَةً :مِائَةٌ مِنَ الإِبلِ ، أَرْبَعُونَ مِنْهَا فِي بُطُونِهَا أَوْلاَدُهَا .. يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، إِنَّ اللهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ نَخْوَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَظُّمَهَا بِالآبَاءِ ، النَّاسُ مِنْ آدَمَ ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ .. ثُمَّ تَلاَ قول الله عز وجل : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ﴾ [6] .. ثم قال : يا

---

[1] سورة النساء آية ٥٨ . [2] المأثرة : ما يُفْتَخر به . [3] دم : ثأر الجاهلية .

[4] مال : رِبًا . [5] السدانة : الاهتمام بالكعبة والعناية بـــها . [6] سورة الحجرات آية ١٣.

مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ ؟ قَالُوا : خَيْرًا ، أَخٌ كَرِيمٌ ، وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ ، قَالَ : اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ ..

وكان حول الكعبة الأصنام التى كانت تعبدها قريش من دون الله قد شُدَّت إلى جُدُرِها بالرَّصَاص ، كما كان هُبَل [1] داخل الكعبة ، فجعل النبى (ﷺ) يُشِير إلى هذه الأصنام جميعًا بقضيب فى يده ، وهو يقول : (جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا) [2] .. فانكفأت الأصنام على وجوهها ، وطُهِّر البيت الحرام بذلك ، وأمر النبى (ﷺ) بلالاً فصعد على الكعبة وأذَّن فوقها ، وصلى النبى (ﷺ) بالناس ..

هذا .. وقد قام (ﷺ) يوم الفتح فقال : إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ، فَهِيَ حَرَامٌ بِحَرَامِ اللَّه إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَة ، لَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي ، وَلا تَحِلُّ لأَحَدٍ بَعْدِي ، وَلَمْ تَحْلِلْ لِي قَطُّ إِلاَّ سَاعَةً مِنَ الدَّهْرِ ، لاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهَا ، وَلا يُعْضَدُ [3] شَوْكُهَا ، وَلاَ يُخْتَلَى خَلاَهَا [4] ، وَلاَ تَحِلُّ لُقَطَتُهَا إِلاَّ لِمُنْشِد .. فَقَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِب : إِلاَّ الإِذْخِرَ [5] يَا رَسُولَ اللَّه ، فَإِنَّهُ لاَبُدَّ مِنْهُ لِلْقَيْنِ [6] وَالْبُيُوت ؟ فَسَكَتَ (ﷺ) ثُمَّ قَالَ : إِلاَّ الإِذْخِرَ ، فَإِنَّهُ حَلاَلٌ .. وقال أيضًا (ﷺ) : لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ ..

---

(١) هُبَل : صنم تعظمه قريش . (٢) سورة الإسراء آية ٨١ .
(٣) يُعْضَد : يقطع . (٤) يختلى : يقطع ، الخلا : الرطب من النبات فإذا يبس فهو حشيش .
(٥) الإذخر : نبات طيب الرائحة . (٦) القَيْن : الحدّاد ، ثم أطلق على كل صانع .

وقد أهدر النبى (ﷺ) دم بعض الناس ، وأمر بقتلهم ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة لجرائم عظيمة ارتكبوها ، وكان بعضهم قد آثر الاختفاء ولاذ بالفرار ، منهم : عبد الله بن أبى السَّرْح ، كان قد أسلم وكان يكتب للنبى (ﷺ) الوحى ، فارْتَدَّ مشركًا إلى قريش زاعمًا أنه كان يزيِّف الوحى حين يكتبه ، وعبد الله بن خَطَل كان قد أسلم ثم قتل مولى له ، وارْتَدَّ مُشركًا وأمر جاريتيه فكانتا تُغنِّيان بِهجاء النبى (ﷺ) ، فأمر بقتلهما معه ، وعِكْرِمَة بن أبِى جَهْل ، وكان من أشدِّ الناس لَدَدًا فى خصومة النبى (ﷺ) والمسلمين ، خصومةً لم تــهدأ حتى بعد فتح مكة ودخول خالد بن الوليد من أسفلها .. فلما استقر الأمر ، وهدأت الحال ، ورأى الناس من فُسحة صدر الرسول (ﷺ) ، ومن عفوه الشامل ما رأوا ، طمع بعض أصحابه فى أن يعفو حتى عن هؤلاء الذين أمر أن يُقْتَلوا ، فقام عثمان بن عفان ، وكان أخا ابن أبى السَّرْح للرضاعة ، حتى أتى به النبى (ﷺ) فقال : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، بَايِعْ عَبْدَ اللَّهِ ، فَرَفَعَ (ﷺ) رَأْسَهُ ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ ثَلاثًا – كُلَّ ذَلِكَ يَأْبَى – فَبَايَعَهُ بَعْدَ ثَلاثٍ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ : أَمَا كَانَ فِيكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ يَقُومُ إِلَى هَذَا حَيْثُ رَآنِي كَفَفْتُ يَدِي عَنْ بَيْعَتِهِ فَيَقْتُلُهُ ؟! فَقَالُوا : وَمَا يُدْرِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا فِي نَفْسِكَ ؟! هَلاَّ أَوْمَأْتَ إِلَيْنَا بِعَيْنِكَ ؟! قَالَ : إِنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ أَعْيُنٍ [1] .. وأسلمت أم حكيم بنت الحارث ابن هشام زوج عِكْرِمَة بن أبِى جَهْل الذى فَرَّ إلى اليمن ، واستأمنت له النبى (ﷺ)

---

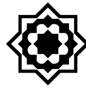
[1] رواه النسائى ، كتاب تَحريم الدم .

فأمَّنه ، فخرجت فى طلبه ، وجاءت به .. وعفا النبى (ﷺ) كذلك عن صَفْوَان ابن أُمَيَّة ، وكان قد صحب عكرمة فى فراره إلى ناحية البحر للسفر إلى اليمن ، فجئ بـــهما ، والسفينة التى تحملهما على أُهْبَة إقلاعها .. وعفا النبى (ﷺ) كذلك عن هند زوج أبى سفيان – التى مضغت كبد حمزة عمِّ الرسول (ﷺ) بعد استشهاده فى غزوة أُحُد – كما عفا عن أكثر مَنْ أمر بقتلهم .. ولم يقتل منهم إلاَّ أربعة رجال ، منهم الْحُوَيْرِثُ الذى رَوَّع بِحَرْبَته السيدة زينب (رضى الله عنها) بنت النبى (ﷺ) ، حين أرادت الهجرة من مكة إلى المدينة فأسقطت جنينها ، ورجلان أسلما ثم ارتكبا بالمدينة جريمة القتل ، وفرَّا راجعين إلى مكة مُرْتَدَّيْن إلى الشرك ، وابن خَطَل ، وإحدى جاريتيه اللتين كانتا تؤذيان النبى (ﷺ) بغنائهما ، وفرَّت الأخرى ثم استُؤمن لها ..

ولبث النبى (ﷺ) خمسة عشر يومًا بمكة ، ينظم خلالها شئونـــها ، ويفقه أهلها فى الدين ، وفى هذه الأثناء بعث السرايا للدعوة إلى الإسلام لا للقتال ، ولتحطيم الأصنام من غير سفكٍ للدماء ، وكان خالد بن الوليد قد خرج إلى نَخْلَة ليهدم العُزَّى ، وكانت لبَنِي شَيْبَان ، فلما هدمها خرج إلى جَذِيمَة ، فلما رآه القوم أخذوا السلاح ، فطلب إليهم خالد أن يضعوه ، فإن الناس قد أسلموا ، قال رجل من جَذِيمَة لقومه : وَيْلَكُمْ يَا بَنِي جَذِيمَةَ ، إِنَّهُ خَالِدٌ ، وَاللهِ مَا بَعْدَ وَضْعِ السِّلاحِ إلاَّ الإِسَارُ [1] ، وَمَا بَعْدَ الإِسَارِ إلاَّ ضَرْبُ الأَعْنَاقِ ، قال

[1] الإسار : الأَسْر .

له قومه : أَتُرِيدُ أَنْ تَسْفِكَ دِمَاءَنَا ؟ إنَّ النَّاسَ قَدْ أَسْلَمُوا ، وَوُضِعَتِ الْحَرْبُ ، وَأَمِنَ النَّاسُ ، وما زالوا به حتى وضع سلاحه .. ودعاهم خالد للإسلام فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا أَسْلَمْنَا ، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ : صَبَأْنَا .. صَبَأْنَا [1] ، عند ذلك أمر بـــهم خالد فَغُلُّوا ثم عرضهم على السيف ، فقتل مَنْ قتل منهم ، فلما انتهى الخبر إلى النبى (ﷺ) رفع يديه إلى السماء وقال : اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ .. ثم بعث إليهم علىّ بن أبى طالب ، وقال له : اخْرُجْ إِلَى هَؤُلاءِ الْقَوْمِ فَانْظُرْ فِي أَمْرِهِمْ ، وَاجْعَلْ أَمْرَ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيْك .. فخرج علىّ ومعه مال أعطاه النبى (ﷺ) إياه ، فلما بلغ القوم دفع الدية عن الدماء ، وعما أصيب من الأموال ، حتى إذا لم يبق شىء من دم أو مال إلا وَدَاهُ [2] ، أعطاهم بقية المال الذى بعث به رسول الله (ﷺ) احتياطًا لرسول الله (ﷺ) مما لا يعلم ، و لم ينصرف علىّ بن أبى طالب حتى رضى القوم جميعهم ..



---

(1) الصابئ : الذى يخرج من دين إلى غيره .
(2) وداه : دفع ديته .

حُنَيْن والطَّائِف

أقام المسلمون بمكة مع رسول الله (ﷺ) آمنين فرحين بنصر الله عز وجل ، يسارعون إلى الصلاة بالبيت الحرام خلف رسول الله (ﷺ) كلما سمعوا أذان بلال (رضي الله عنه) ، واجتمع المهاجرون بأسرهم وأهليهم الذين هداهم الله بعد الفتح فأسلموا ، والكل فى سعادة ووئام .. وبينما هم كذلك إذ ترامت إليهم أنباء تَجَمُّع قبائـل هَوَازِن ، وثَقِيف ، ونصر ، وعلى رأسهم مَالِك بن عَوْف النَّصْرِيّ ، وبنى جُشَم ، وعلى رأسهم دُرَيْد بن الصَّمَّة ، واستعدادهم لقتال المسلمين .. اجتمعت هذه القبائل كلها ، ومعها أموالُها ، ونساؤها ، وأبناؤها ، ونزلوا سهل أَوْطَاس ، وأمرهم مالك بن عوف أن ينحازوا إلى قمم الجبال بِحُنَيْن ، وعند مضيق الوادى ، حتى إذا وصل المسلمون إلى الوادى شَدُّوا عليهم شَدَّة رجل واحد تُفَرِّق صفوفهم ، ويختلط حابلهم بنابلهم .. وخرج النبى (ﷺ) من مكة متجهًا إلى حنين فى اثنى عشر ألف مقاتل ، يَتَقَدَّم كل قبيلة عَلَمُها ، واغْتَرَّ بعض المسلمين بعددهم ، وقوتـهم ، وقالوا فى غرور ، وزهو : لَنْ نُغْلَبَ الْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ .. ولما وصل المسلمون حنينًا مع المساء نزلوا على أبواب واديـها ، وأقاموا بـها حتى الفجر ، وتحرك الجيش وفى مقدمته خالد بن الوليد على رأس بنى سُلَيْم ، وانحدروا من مضيق حنين فى واد من أودية تِهَامَة ، وإنـهم لكذلك وفى عَمَايَة الفجر إذ شَدَّت عليهم القبائل بقيادة مَالِك بن عَوْف شَدَّة رجل واحد ، وأمطروهم بوابل من النِّبَال مما أنزل

الفزع فى قلوبـــهم ، وولوا مدبرين ، وثبت النبى (ﷺ) مكانه ، وأَبُو سُفْيَان ابن الْحَارِث بن عَبْد الْمُطَّلِب آخذ بخطام بَغْلَته البيضاء ، ويحيط به جماعة من المهاجرين الأولين والأنصار ، وينادى رسول الله (ﷺ) فى المنهزمين : إِلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ ، أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ .. وينادى العباس بن عبد المطلب – وكان جهورى الصوت – يا معشر الأنصار ، يا أصحاب البيعة [1] ، ويتردد صوته فى جنبات الوادى ، ويدخل قلوب المهاجرين والأنصار فيفيئون إلى رسول الله (ﷺ) قائلين : لَبَّيْكَ .. لَبَّيْكَ .. واجتمع المسلمون وتماسكوا وشدوا على القبائل – التى نزلت من مكانـــها فوق الجبال ، وأصبحوا وجهًا لوجه مع المسلمين فى الوادى – وحَمِى وطيس المعركة ، وأخذ النبى (ﷺ) حُفْنَة من حصى – ناولها إياه العباس – وألقى بـــها فى وجوه الأعداء قائلاً : شَاهَتِ الْوُجُوهُ .. ولما رأت القبائل استبسال المسلمين ، فَرُّوا منهزمين لا يَلْوُونَ على شىء ، تاركين وراءهم نساءهم ، وأبناءهم ، وأموالهم ، فغنمها المسلمون ، ونقلوها إلى وادى الْجِعْرَانَة تحت الحراسة ريثما يعودون إليها بعد فراغهم من مطاردة عدوهم .. وانتصر المسلمون نصرًا عزيزًا بفضل الله ثم بفضل ثبات النبى (ﷺ) ، والذين كانوا من حوله .. وفى شأن هذه المعركة نزل قول الله عز وجل : (لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا

[1] بيعة الرضوان التى تمت تحت الشجرة يوم الحديبية .

رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾)[1] ..

وفَرَّ مالك بن عوف ومَنْ معه من قبائل ثَقِيف إلى الطَّائِف التى كانت مدينة محصنة لها أبواب تُغْلَق عليها ، ولأهلها دراية بحرب الحصار ، وهم ذوو ثروات طائلة جعلت حصونـــهم من أقوى الحصون وأمنعها ، وأمر النبى (ﷺ) أصحابه أن يسيروا إلى الطائف ، فوصلوها ونزلوا على مقربة منها ، فنالتهم النِّبَال التى رمى بـــها رجال ثَقِيف ، فقتلت منهم ثمانية عشر رجلاً ، وجرحت عددًا آخر ، فأمرهم النبى (ﷺ) بالانسحاب بعيدًا عن مرمى النِّبَال ، واستمر حصار الطائف شهرًا دون جدوى ، واقترب ذو القعدة ، والأشهر الْحُرُم ، فأمر النبى (ﷺ) جيشه بالانسحاب ، والتوجه إلى الْجِعْرَانَة ، على أن يعودوا إلى الطائف بعد انقضاء الأشهر الْحُرُم ..

وصل المسلمون إلى الْجِعْرَانَة ونزلوا لاقتسام الغنائم ، وإذا بوفد من هَوَازِن يأتى إلى رسول الله (ﷺ) يرجونه أن يَرُدَّ عليهم أموالهم ، ونساءهم ، وأبناءهم ، وقالوا له : يَا رَسُولَ الله ، إِنَّمَا فِي الْحَظَائِرِ عَمَّاتُكَ ، وَخَالاَتُكَ ، وَحَوَاضِنُك اللواتى كُنَّ يَكْفُلْنَك ، وَلَوْ أَنَّا مَلَحْنَا [2] لِلْحَارِثِ بْنِ أَبِي شَمِرٍ ، أَوِ

---

[1] سورة التوبة آية ٢٥ ، ٢٦ .

[2] ملحنا : أرضعنا .

النُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذِرِ ، ثُمَّ نَزَلَ مِنَّا بِمِثْلِ الَّذِي نَزَلْت بِهِ ، رَجَوْنَا عَطْفَهُ وَعَائِدَتَهُ عَلَيْنَا ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْمَكْفُولِينَ .. وقد كانت من بين السبايا امرأة تخطت الكهولة تقول للحراس : تَعَلَّمُوا ، وَاللهِ إِنِّي لأُخْتُ صَاحِبِكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ ، فلم يصدقوها ، وجاءوا بها النبى (ﷺ) فإذا هى الشَّيْمَاء بِنْت الْحَارِث بن عَبْد الْعُزَّى ، فبسط النبى (ﷺ) لها رداءه ، وأجلسها عليه ، وخيَّرها بين أن تبقى معه ، أو يُمَتِّعها [1] ويرجعها إلى قومها ، فاختارت الرجوع إلى قومها ..

وقال رسول الله (ﷺ) لوفد هوازن : مَعِي مَنْ تَرَوْنَ ، وَأَحَبُّ الْحَدِيث إِلَيَّ أَصْدَقُهُ ، فَاخْتَارُوا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ : إِمَّا السَّبْيَ [2] ، وَإِمَّا الْمَالَ ، وَقَدْ كُنْتُ اسْتَأْنَيْتُ بِكُمْ [3] - وَكَانَ أَنْظَرَهُمْ [4] رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً حِينَ قَفَلَ مِنَ الطَّائِفِ - فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) غَيْرُ رَادٍّ إِلَيْهِمْ إِلاَّ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ قَالُوا : فَإِنَّا نَخْتَارُ سَبْيَنَا .. فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) فِي الْمُسْلِمِينَ فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ، ثُمَّ قَالَ : أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ جَاءُونَا تَائِبِينَ ، وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَرُدَّ إِلَيْهِمْ سَبْيَهُمْ ، فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يُطَيِّبَ [5] ذَلِكَ فَلْيَفْعَلْ ، وَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَظِّهِ حَتَّى نُعْطِيَهُ إِيَّاهُ مِنْ أَوَّلِ مَا يُفِيءُ [6] اللَّهُ عَلَيْنَا فَلْيَفْعَلْ ، فَقَالَ النَّاسُ : قَدْ طَيَّبْنَا ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ

---

(1) يمتعها : يعطيها مالاً يرضيها .
(2) السبى : أسرى الحرب من النساء والولدان .
(3) استأنيت بكم : تمهلت بكم .
(4) أنظرهم : أمهلهم .
(5) يطيب : يَرْضَى .
(6) الفئ : ما يؤخذ من العدو من سبْيٍ ومال .

رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) : إِنَّا لاَ نَدْرِي مَنْ أَذِنَ مِنْكُمْ فِي ذَلِكَ مِمَّنْ لَمْ يَأْذَنْ ، فَارْجِعُوا حَتَّى يَرْفَعَ إِلَيْنَا عُرَفَاؤُكُمْ [1] أَمْرَكُمْ ، فَرَجَعَ النَّاسُ ، فَكَلَّمَهُمْ عُرَفَاؤُهُمْ ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ قَدْ طَيَّبُوا وَأَذِنُوا .. [2]

وسأل النبى (ﷺ) وفد هوازن عن مَالِك بن عَوْف النَّصْرِيّ ، فلما علم أنه ما يزال بالطائف مع ثقيف ، طلب منهم أن يُبْلِغوه : أنه إذا أتاه مسلمًا رَدَّ عليه أهله وماله ، وأعطاه مائة من الإبل ، و لم يبطئ مالك حين علم بوعد الرسول (ﷺ) أن خرج من الطائف سِرًّا ، ولحق بالنبى (ﷺ) ، وأعلن إسلامه ، وأخذ ماله وأهله ، ومائة من الإبل ..

وأعطى النبى (ﷺ) من الْخُمُس الخاص به رجالاً من سادات قريش ، وزعمائـــها ، ورؤساء العشائر – الذين أسلموا بعد الفتح – فوق نصيبهم الذى يستحقونه من الغنائم ، و لم يدع لهؤلاء المؤلفة قلوبـــهم حاجة إلاَّ قضاها ، مما جعل ألسنة أعداء الأمس تلهج بالثناء عليه ..

هذا .. ولَمَّا أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ ، وَجَدَ [3] هَذَا الْحَيُّ مِنَ الأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ ، حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمُ الْقَالَةُ [4]، حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ : لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) قَوْمَهُ .. فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ هَذَا الْحَيَّ

---

[1] جمع عريف : وهو القائم بأمور الناس ومصالحهم .
[2] رواه البخارى ، كتاب المغازى .
[3] وجد عليه : غضب منه .
[4] القالة : كثرة القول واللغط .

قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ ، قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ ، وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنَ الأَنْصَارِ شَيْءٌ ، قَالَ : فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ ؟ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا أَنَا إِلاَّ امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي ، قَالَ : فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ ، فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ النَّاسَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ ، فَجَاءَ رِجَالٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا ، وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ : قَد اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الأَنْصَارِ ، فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) فَحَمِدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ ، ثُمَّ قَالَ : يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ ، مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ ؟ أَلَمْ آتِكُمْ ضُلاَّلاً فَهَدَاكُمُ اللَّهُ ؟! وَعَالَةً [1] فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ ؟! وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ؟! قَالُوا : بَلَى ، اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ ، ثم قَالَ : أَلاَ تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ ؟ قَالُوا : وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ ؟! قَالَ : أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ : أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ ، وَمَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ ، وَعَائِلاً فَأَغْنَيْنَاكَ .. أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ [2] مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا ، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلاَمِكُمْ ؟! أَفَلاَ تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) فِي رِحَالِكُمْ ؟ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لَوْلاَ الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتِ الأَنْصَارُ

---

[1] العائل : الفقير .

[2] اللعاعة : البقية اليسيرة من الشئ .

شعْبًا ، لَسَلَكْتُ شعْبَ الأَنْصَارِ .. اللّهُمَّ ارْحَمِ الأَنْصَارَ ، وَأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ .. فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا [1] لِحَاهُمْ ، وَقَالُوا : رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحَظًّا .. ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) وَتَفَرَّقُوا .. [2]

وخرج رسول الله (ﷺ) من الْجِعْرَانَة مُحْرِمًا بالعمرة ، فلما قضى عمرته ، استخلف عَتَّاب بن أَسِيد على مكة ، وخَلَّف معه مُعَاذ بن جَبَل لِيُفَقِّه الناس فى دينهم ، ويعلمهم القرآن ، وعاد هو والأنصار والمهاجرون إلى المدينة ..

وأرسل النبى (ﷺ) لتحصيل الزكاة من فرع من بنى تميم فامتنعوا ، فبعث عُيَيْنَة بن حِصْن لتأديبهم ، فشتتهم ، وأسر خمسين منهم ، فلما علمت بنو تميم ، جاء أشرافهم ، وعلى رأسهم الأَقْرَع بن حَابِس ، ونادوا على النبى (ﷺ) من وراء الحجرات فتأذَّى من ذلك ، وخرج لصلاة الظهر ، فأخبروه أنهم جاهدوا معه فى حنين ، وتشفعوا للأسرى ، فأطلقهم ، ونزل قول الله تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) [3] .. كما أرسل الوَلِيد بن عُقْبَة لتحصيل الزكاة من بنى المصطلق ، فخرجوا لاستقباله ، فتوجس منهم شرًّا ، ففَرَّ عائدًا ، ثم ما لبث أن جاء وفد بنى المصطلق بزكاتهم ، وقالوا : خرجنا لنكرمه فولَّى مدبرًا ، فنزل قول الله تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ) [4] ..

[1] أخضل : بَلَّ . [2] رواه أحمد ، مسند المكثرين . [3] سورة الحجرات آية ٤ . [4] سورة الحجرات آية ٦ .

وبعد فتح مكة ، وانتصار النبى (ﷺ) فى حنين ، وحصاره للطائف ثبت فى نفوس العرب جميعًا أن لم يبق لأحد قِبَلٌ به فى شبه الجزيرة العربية كلها ، ولذلك بدأت القبائل تُقْبِل على النبى (ﷺ) تعلن إسلامها ، وطاعتها له ، ومنهم وفد قَدِمَ من طَيّئ ، وعلى رأسهم زيد الخيل ، يعلنون إسلامهم ، وطاعتهم لله ولرسوله ، وكان زيد الخيل مشهورًا بالفضائل فسماه النبى (ﷺ) زيدَ الخير بدلاً من زيد الخيل ..

وقد أوفد النبى (ﷺ) علىّ بن أبى طالب إلى طَيّئ ليهدم صنمها ، فَفَرَّ عَدِىّ بن حَاتِم الطَّائى بأهله وولده إلى الشام ، واحتمل علىّ الغنائم والأسرى ، ومن بينهم ابنة حاتم أخت عَدِىّ التى حين رأت رسول الله (ﷺ) قامت إليه وقالت : يا رسول الله ، هلك الوالد ، وغاب الرافد ، فامنن علىَّ منَّ الله عليك .. فقال (ﷺ) : إنَّ أَبَاهَا كَانَ يُحِبُّ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ ، واللهُ يُحِبُّ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ .. فأمر بعتقها ، وأعطاها مالاً ، وكساها كسوة حسنة ، وارتحلت إلى الشام ، ولقيت أخاها وقصت عليه الخبر ، ونصحته بالذهاب إلى رسول الله (ﷺ) ، فقدم على النبى (ﷺ) وأعلن إسلامه ..

وقد بعث بُجَيْر بن زُهَيْر إلى أخيه كعب أن النبى (ﷺ) قتل بمكة رجالاً كانوا يهجونه ، ويؤذونه ، وأن من بقى من هؤلاء الشعراء قد هربوا فى كل وجه ، وينصح إليه أن يطير إلى النبى (ﷺ) بالمدينة ، فإنه لا يقتل أحدًا جاءه

تائبًا ، أو ينجو بنفسه إلى حيث شاء من أغوار الأرض .. فأسرع كعب إلى المدينة ، ودخل على رسول الله (ﷺ) بالمسجد ، وأعلن إسلامه ، وأنشد قصيدته الشهيرة (بانت سعاد) بين يديه ، والتى منها قوله :

كُلُّ ابْنِ أُنْثَى وَإِنْ طَالَتْ سَلاَمَتُهُ ... يَوْمًا عَلَى آلَةٍ حَدْبَاءَ مَحْمُولُ
نُبِّئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ أَوْعَدَنِي ... وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ مَأْمُولُ

فعفا عنه رسول الله (ﷺ) ، وحَسُنَ من بعد ذلك إسلامُه ..

ويتوالى قدوم الوفود من مختلف الأنحاء تعلن إسلامها ، أو تعلن إذعانها ، ويرسل النبى (ﷺ) رُسُلَه إلى القبائل التى أسلمت لتحصيل زكاة أموالهم ، ولا تكاد الحياة تصفو للنبى (ﷺ) حتى تمرض ابنته السيدة زينب - كبرى بناته - مرضًا شديدًا من أثر ما حدث لها من ترويع ، وإسقاط لجنينها ، عندما كانت خارجة من مكة مهاجرة إلى أبيها بالمدينة ، تلك السيدة العظيمة التى ضربت المثل فى الوفاء لزوجها أبى العاص بن الربيع ، عندما أرسلت تفتديه حين وقع فى الأسر فى غزوة بدر ، وكذلك أجارته بالمدينة لَمَّا استولى المسلمون على قافلة قريش التى كان يقودها .. وتموت (رضى الله عنها) وتدفن بالبقيع إلى جوار أختها رُقَيَّة ..

ولم يطل حزنه (ﷺ) ، فقد ولدت له السيدة مارية ولدًا سَمَّاه إبراهيم - تَيَمُّنًا باسم سيدنا إبراهيم جَدِّ الأنبياء - مما زاد من مكانتها عنده (ﷺ) ، ومن سروره بهذا الطفل الذى وجد فيه العِوضَ عن أولاده الذين ماتوا قبل البعثة ..

يبدو أن المكانة التى رفع النبى (ﷺ) النساء إليها - والتى لم تكن معهودة عند العرب - وعطفه عليهن ، وحسن خلقه فى معاشرتـــهن ، قد دفع أزواجه إلى مراجعته (ﷺ) فى بعض الأمور التى تتعلق بـــهن .. وفى هذا الشأن يقول عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : وَاللَّه إِنْ كُنَّا فِي الْجَاهلِيَّة مَا نَعُدُّ للنِّسَاءِ أَمْرًا حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ فيهِنَّ مَا أَنْزَلَ ، وَقَسَمَ لَهُنَّ مَا قَسَمَ .. فَبَيْنَا أَنَا فِي أَمْرٍ أَتَأَمَّرُهُ ، إِذْ قَالَت امْرَأَتي : لَوْ صَنَعْتَ كَذَا ، وَكَذَا ، فَقُلْتُ لَهَا : مَا لَك وَلمَا هَاهُنَا ؟!وَفيمَ تَكَلُّفُك في أَمْرٍ أُرِيدُهُ ؟! فَقَالَتْ لِي : عَجَبًا لَكَ يَا ابْنَ الْخَطَّاب ، مَا تُرِيدُ أَنْ تُرَاجَعَ أَنْتَ ، وَإِنَّ ابْنَتَكَ لَتُرَاجِعُ رَسُولَ اللَّه (ﷺ) حَتَّى يَظَلَّ يَوْمَهُ غَضْبَانَ ! فَقَامَ عُمَرُ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ مَكَانَهُ ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى حَفْصَةَ فَقَالَ لَهَا : يَا بُنَيَّةُ إِنَّك لَتُرَاجِعينَ رَسُولَ اللَّه (ﷺ) حَتَّى يَظَلَّ يَوْمَهُ غَضْبَانَ ؟! فَقَالَتْ حَفْصَةُ : وَاللَّه إِنَّا لَنُرَاجِعُهُ ، فَقُلْتُ : تَعْلَمِينَ أَنِّي أُحَذِّرُك عُقُوبَةَ اللَّه ، وَغَضَبَ رَسُوله (ﷺ)! يَا بُنَيَّةُ ، لاَ يَغُرَّنَّك هَذه الَّتِي أَعْجَبَهَا حُسْنُهَا وحُبُّ رَسُول اللَّه (ﷺ) إِيَّاهَا - يُرِيدُ عَائشَةَ - قَالَ عمر : ثُمَّ خَرَجْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ - لقَرَابَتي منْهَا - فَكَلَّمْتُهَا ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ : عَجَبًا لَكَ يَا ابْنَ الْخَطَّاب ، دَخَلْتَ في كُلِّ شَيْء ، حَتَّى تَبْتَغِيَ أَنْ تَدْخُلَ بَيْنَ رَسُول الله (ﷺ) وَأَزْوَاجه ؟! فَأَخَذَتْنِي وَاللَّه أَخْذًا كَسَرَتْنِي عَنْ بَعْضِ مَا كُنْتُ أَجِدُ ، فَخَرَجْتُ منْ عنْدهَا .. (١)

(١) رواه البخارى ، كتاب تفسير القرآن .

ولما رأت نساء النبى (ﷺ) كثرة ما أفاء الله عليه من غنائم فى حنين أكثرن عليه السؤال فى طلب المزيد من النفقة ، مما أغضبه (ﷺ) ، وهو الذى لا يريد من الدنيا إلا القليل .. وقد شعر بـــهذا الغضب كل من أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، اللذين كانا أقرب الناس إليه ، وابنة كل منهما زوج له ، فأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ عَلَى رَسُولِ اللَّه (ﷺ) وَالنَّاسُ بِبَابِه جُلُوسٌ ، فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عُمَرُ فَاسْتَأْذَنَ ، فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ ، ثُمَّ أُذِنَ لأَبِي بَكْرٍ ، وَعُمَرَ ، فَدَخَلا وَالنَّبِيُّ (ﷺ) جَالِسٌ ، وَحَوْلَهُ نِسَاؤُهُ ، وَهُوَ وَاجِمٌ سَاكِتٌ - فَقَالَ عُمَرُ (رضي الله عنه) : لأُكَلِّمَنَّ النَّبِيَّ (ﷺ) لَعَلَّهُ يَضْحَكُ - فَقَالَ عُمَرُ : يَا رَسُولَ اللَّه ، لَوْ رَأَيْتَ بِنْتَ زَيْدٍ امْرَأَةَ عُمَرَ فَسَأَلَتْنِي النَّفَقَةَ آنفًا ، فَوَجَأْتُ [1] عُنُقَهَا ! فَضَحِكَ النَّبِيُّ (ﷺ) حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ [2] ، قَالَ : هُنَّ حَوْلِي كَمَا تَرَى يَسْأَلْنَنِي النَّفَقَةَ .. فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ (رضي الله عنه) إِلَى عَائِشَةَ لِيَضْرِبَهَا ، وَقَامَ عُمَرُ إِلَى حَفْصَةَ ، كِـــلاهُمَا يَقُولانِ : تَسْأَلانِ رَسُولَ اللَّه (ﷺ) مَا لَيْسَ عِنْدَهُ ؟! فَنَهَاهُمَا رَسُولُ اللَّه (ﷺ) ، فَقُلْنَ : وَاللَّهِ لاَ نَسْأَلُ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) بَعْدَ هَذَا الْمَجْلِسِ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ .. فنـــزل قول الله عز وجل : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا)[3] ..

---

[1] فوجأت : فضربتُ . [2] بدت : ظهرت ، نواجذه : أضراسه . [3] سورة الأحزاب آية ٢٨ ، ٢٩ .

فخيَّر رسول الله (ﷺ) نساءه تنفيذًا لأمر الله عز وجل ، فبدأ بالسيدة عَائِشَة فَقَالَ : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَذْكُرَ لَكِ أَمْرًا ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَعْجَلِي فِيهِ حَتَّى تَسْتَأْمِرِي[1] أَبَوَيْكِ ، قَالَتْ : مَا هُوَ ؟! فَتَلا عَلَيْهَا قول الله ، قَالَتْ عَائِشَةُ : أَفِيكَ أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيَّ ؟! بَلْ أَخْتَارُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ لا تُخْبِرَ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِكَ بِالَّذِي قُلْتُ ، قَالَ : لا تَسْأَلُنِي امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ إِلاَّ أَخْبَرْتُهَا .. إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا وَلا مُتَعَنِّتًا ، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا[2] .. ثُمَّ خَيَّرَ (ﷺ) نِسَاءَهُ كُلَّهُنَّ فَقُلْنَ مِثْلَ مَا قَالَتْ عَائِشَةُ[3] ..

وكان النبى (ﷺ) إِذَا صَلَّى الْعَصْرَ دَارَ عَلَى نِسَائِهِ ، فَيَدْنُو مِنْهُنَّ ، فَدَخَلَ عَلَى السيدة زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ (رضى الله عنها) ، فَاحْتَبَسَ عِنْدَهَا أَكْثَرَ مِمَّا كَانَ يَحْتَبِسُ ، فأحدث ذلك الغيرة فى نفوس سائر نسائه .. وتقول السيدة عَائِشَة (رضى الله عنها) : كَانَ النبى (ﷺ) يَمْكُثُ عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ ، وَيَشْرَبُ عِنْدَهَا عَسَلاً ، فَتَوَاصَيْتُ أَنَا وَحَفْصَةُ : أَنَّ أَيَّتَنَا دَخَلَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ (ﷺ) فَلْتَقُلْ : إِنِّي أَجِدُ مِنْكَ رِيحَ مَغَافِيرَ[4] ، أَكَلْتَ مَغَافِيرَ ؟! – وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) يَشْتَدُّ عَلَيْهِ أَنْ يُوجَدَ مِنْهُ الرِّيحُ – فَدَخَلَ عَلَى إِحْدَاهُمَا ، فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ ، فَقَالَ : لاَ ، بَلْ شَرِبْتُ عَسَلاً عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ ، وَلَنْ أَعُودَ لَهُ ، وَقَدْ حَلَفْتُ ، فَلاَ تُخْبِرِي بِذَلِكِ أَحَدًا[5] .. وكان ذلك الحديث مع السيدة عائشة

---

(1) الاستئمار : الاستئذان والاستشارة . (2) رواه أحمد ، ومسلم فى كتاب الطلاق . (3) رواه البخاري .
(4) المغافير : شراب يشبه العسل فى الطعم يجعل للفم رائحة كريهة . (5) رواه البخارى ، كتاب الطلاق .

(رضى الله عنها) ، فأخبرت به السيدة حفصة (رضى الله عنها) ، فنــزل جبريل (عليه السلام) ، وأخبر النبى (ﷺ) بذلك ، ونزلت سورة التحريم .. ويقول ابن عباس (رضى الله عنهما) : لَمْ أَزَلْ حَرِيصًا عَلَى أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ عَنِ الْمَرْأَتَيْنِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ (ﷺ) اللَّتَيْنِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لهما : (إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)[١] حَتَّى حَجَّ ، وَحَجَجْتُ مَعَهُ ، وَعَدَلَ [٢] ، وَعَدَلْتُ مَعَهُ بِإِدَاوَةٍ [٣] ، فَتَبَرَّزَ ، ثُمَّ جَاءَ ، فَسَكَبْتُ عَلَى يَدَيْهِ مِنْهَا ، فَتَوَضَّأَ ، فَقُلْتُ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَنِ الْمَرْأَتَانِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ (ﷺ) اللَّتَانِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لهما : (إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا) ؟ قَالَ : وَاعَجَبًا لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ ، هُمَا عَائِشَةُ ، وَحَفْصَةُ .. [٤]

وغيرة النساء أمر معهود ، ونساء النبى (ﷺ) كغيرهن من النساء فى هذا الشأن ، وقد كان حب النبى (ﷺ) للسيدة عائشة (رضى الله عنها) معلومًا لدى الجميع ، فكان الناس يَتَحَرَّوْنَ بِهَدَايَاهُمْ يَوْمَ عَائِشَةَ ، يَبْتَغُونَ بِذَلِكَ مَرْضَاةَ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) ، مما أثار غيرة الأخريات .. فعَنْ عَائِشَةَ (رضى الله عنها) قالت : إِنَّ نِسَاءَ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) كُنَّ حِزْبَيْنِ : فَحِزْبٌ فِيهِ عَائِشَةُ ، وَحَفْصَةُ ، وَصَفِيَّةُ ، وَسَوْدَةُ ، وَالْحِزْبُ الآخَرُ : أُمُّ سَلَمَةَ ، وَسَائِرُ نِسَاءِ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ قَدْ عَلِمُوا حُبَّ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) عَائِشَةَ ، فَإِذَا كَانَتْ عِنْدَ أَحَدِهِمْ

---

[١] سورة التحريم آية ٤ .
[٢] عدل : مال وتحول عن وسط الطريق .
[٣] الإداوة : إناء صغير .
[٤] رواه البخارى ، كتاب النكاح .

هَدِيَّةٌ يُرِيدُ أَنْ يُهْدِيَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّه (ﷺ) ، أَخَّرَهَا حَتَّى إِذَا كَانَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) فِي بَيْت عَائِشَةَ ، بَعَثَ صَاحِبُ الْهَدِيَّة بهَا إِلَى رَسُولِ اللَّه (ﷺ) فِي بَيْت عَائِشَةَ ، فَكَلَّمَ حِزْبُ أُمِّ سَلَمَةَ فَقُلْنَ لَهَا : كَلِّمِي رَسُولَ اللَّه (ﷺ) يُكَلِّمُ النَّاسَ فَيَقُولُ : مَنْ أَرَادَ أَنْ يُهْدِيَ إِلَى رَسُولِ اللَّه (ﷺ) هَدِيَّةً ، فَلْيُهْدِه إِلَيْه حَيْثُ كَانَ مِنْ بُيُوت نِسَائِه .. فَكَلَّمَتْهُ أُمُّ سَلَمَةَ بِمَا قُلْنَ ، فَلَمْ يَقُلْ لَهَا شَيْئًا ، فَسَأَلْنَهَا ، فَقَالَتْ : مَا قَالَ لِي شَيْئًا ، فَقُلْنَ لَهَا : فَكَلِّمِيه ، قَالَتْ : فَكَلَّمَتْهُ حِينَ دَارَ إِلَيْهَا أَيْضًا ، فَلَمْ يَقُلْ لَهَا شَيْئًا ، فَسَأَلْنَهَا ، فَقَالَتْ : مَا قَالَ لِي شَيْئًا ، فَقُلْنَ لَهَا : كَلِّمِيه حَتَّى يُكَلِّمَك ، فَدَارَ إِلَيْهَا ، فَكَلَّمَتْهُ ، فَقَالَ لَهَا : لا تُؤْذِينِي فِي عَائِشَةَ ، فَإِنَّ الْوَحْيَ لَمْ يَأْتِنِي وَأَنَا فِي ثَوْبِ امْرَأَة إِلاَّ عَائِشَةَ ، فَقَالَتْ : أَتُوبُ إِلَى اللَّه مِنْ أَذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّه .. ثُمَّ إِنَّهُنَّ دَعَوْنَ فَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّه (ﷺ) ، فَأَرْسَلَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّه (ﷺ) تَقُولُ : إِنَّ نِسَاءَكَ يَنْشُدْنَكَ اللَّهَ الْعَدْلَ فِي بِنْت أَبِي بَكْرٍ ، فَكَلَّمَتْهُ ، فَقَالَ : يَا بُنَيَّةُ ، أَلاَ تُحِبِّينَ مَا أُحِبُّ ؟ قَالَتْ : بَلَى ، فَرَجَعَتْ إِلَيْهِنَّ فَأَخْبَرَتْهُنَّ ، فَقُلْنَ : ارْجِعِي إِلَيْه ، فَأَبَتْ أَنْ تَرْجِعَ ، فَأَرْسَلْنَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ ، فَأَتَتْهُ فَأَغْلَظَتْ ، وَقَالَتْ : إِنَّ نِسَاءَكَ يَنْشُدْنَكَ اللَّهَ الْعَدْلَ فِي بِنْت ابْنِ أَبِي قُحَافَةَ ، فَرَفَعَتْ صَوْتَهَا حَتَّى تَنَاوَلَتْ عَائِشَةَ وَهِيَ قَاعِدَةٌ فَسَبَّتْهَا ، حَتَّى إِنَّ رَسُولَ اللَّه (ﷺ) لَيَنْظُرُ إِلَى عَائِشَةَ هَلْ تَكَلَّمُ ، فَتَكَلَّمَتْ عَائِشَةُ تَرُدُّ عَلَى زَيْنَبَ حَتَّى أَسْكَتَتْهَا ، فَنَظَرَ النَّبِيُّ (ﷺ) إِلَى عَائِشَةَ وَقَالَ : إِنَّهَا بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ .. (١)

---

(١) رواه البخارى ، كتاب الهبة .

هذا .. وقد آلَى [1] النبى (ﷺ) من نسائه شهرًا ، وقد سرى الهمس بين الناس أن النبى (ﷺ) طلَّق نساءه .. ويقول عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : إِنِّي كُنْتُ وَجَارٌ لِي مِنَ الأَنْصَارِ فِي بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ ، وَهِيَ مِنْ عَوَالِي الْمَدِينَةِ ، وَكُنَّا نَتَنَاوَبُ النُّزُولَ عَلَى النَّبِيِّ (ﷺ) ، فَيَنْزِلُ يَوْمًا ، وَأَنْزِلُ يَوْمًا ، فَإِذَا نَزَلْتُ جِئْتُهُ مِنْ خَبَرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ الأَمْرِ وَغَيْرِهِ ، وَإِذَا نَزَلَ فَعَلَ مِثْلَهُ ، وكانت غَسَّان تُنْعِلُ النِّعَالَ [2] لِغَزْوِنَا ، فَنَزَلَ صَاحِبِي يَوْمَ نَوْبَتِهِ ، فَرَجَعَ عِشَاءً ، فَضَرَبَ بَابِي ضَرْبًا شَدِيدًا ، وَقَالَ : أَنَائِمٌ هُوَ ؟! فَفَزِعْتُ ، فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ ، وَقَالَ : حَدَثَ أَمْرٌ عَظِيمٌ ، قُلْتُ : مَا هُوَ ، أَجَاءَتْ غَسَّانُ ؟! قَالَ : لاَ ، بَلْ أَعْظَمُ مِنْهُ وَأَطْوَلُ ، طَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) نِسَاءَهُ .. فقلت : قَدْ خَابَتْ حَفْصَةُ وَخَسِرَتْ ، كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ هَذَا يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ ، فَجَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي ، فَصَلَّيْتُ صَلاةَ الْفَجْرِ مَعَ النَّبِيِّ (ﷺ) ، فَدَخَلَ مَشْرُبَةً لَهُ ، فَاعْتَزَلَ فِيهَا ، فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ ، فَإِذَا هِيَ تَبْكِي ، قُلْتُ : مَا يُبْكِيكِ ؟ أَوَلَمْ أَكُنْ حَذَّرْتُكِ ، أَطَلَّقَكُنَّ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) ؟ قَالَتْ : لاَ أَدْرِي ، هُوَ ذَا فِي الْمَشْرُبَةِ .. فَخَرَجْتُ فَجِئْتُ الْمِنْبَرَ ، فَإِذَا حَوْلَهُ رَهْطٌ يَبْكِي بَعْضُهُمْ ، فَجَلَسْتُ مَعَهُمْ قَلِيلاً ، ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَجِدُ ، فَجِئْتُ الْمَشْرُبَةَ الَّتِي هُوَ فِيهَا ، فَقُلْتُ لِغُلاَمٍ لَهُ أَسْوَدَ : اسْتَأْذِنْ لِعُمَرَ ، فَدَخَلَ فَكَلَّمَ النَّبِيَّ (ﷺ) ، ثُمَّ خَرَجَ ، فَقَالَ : ذَكَرْتُكَ لَهُ ، فَصَمَتَ .. فَانْصَرَفْتُ حَتَّى جَلَسْتُ مَعَ الرَّهْطِ الَّذِينَ عِنْدَ الْمِنْبَرِ ، ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَجِدُ ، فَجِئْتُ – فَذَكَرَ مِثْلَهُ –

[1] آلى : حلف أن يعتزل نساءه . [2] تنعل النعال : تجهز الدواب والجمال بتركيب نعال لحوافرها وأخفافها .

فَجَلَسْتُ مَعَ الرَّهْطِ الَّذِينَ عِنْدَ الْمِنْبَرِ ، ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَجِدُ ، فَجِئْتُ الْغُلاَمَ ، فَقُلْتُ : اسْتَأْذِنْ لِعُمَرَ – فَذَكَرَ مِثْلَهُ – فَلَمَّا وَلَّيْتُ مُنْصَرِفًا فَإِذَا الْغُلاَمُ يَدْعُونِي قَالَ : أَذِنَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ ، فَإِذَا هُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى رِمَالِ حَصِيرٍ ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فِرَاشٌ ، قَدْ أَثَّرَ الرِّمَالُ بِجَنْبِهِ ، مُتَّكِئٌ عَلَى وِسَادَةٍ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ قُلْتُ وَأَنَا قَائِمٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَطَلَّقْتَ نِسَاءَكَ ؟ فَرَفَعَ بَصَرَهُ إِلَيَّ فَقَالَ : لاَ .. (فقص عمر ما حدث بينه وبين امرأته من مراجعتها له ، ومن ذهابه إلى ابنته حفصة ، وإلى أم سلمة) ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) .. قال عمر : فَجَلَسْتُ حِينَ رَأَيْتُهُ تَبَسَّمَ ، ثُمَّ رَفَعْتُ بَصَرِي فِي بَيْتِهِ ، فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ فِيهِ شَيْئًا يَرُدُّ الْبَصَرَ غَيْرَ أَهَبَةٍ [1] ثَلاثَةٍ ، فَقُلْتُ : ادْعُ اللَّهَ فَلْيُوَسِّعْ عَلَى أُمَّتِكَ ، فَإِنَّ فَارِسَ ، وَالرُّومَ وُسِّعَ عَلَيْهِمْ ، وَأُعْطُوا الدُّنْيَا ، وَهُمْ لا يَعْبُدُونَ اللَّهَ ، وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ : أَوَفِي شَكٍّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ؟! أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ اسْتَغْفِرْ لِي .. [2]

وعلى رأس الشهر خرج النبى (ﷺ) من مشربته ، ودخل على السيدة عائشة ، فقالت : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّكَ كُنْتَ قَدْ أَقْسَمْتَ أَنْ لاَ تَدْخُلَ عَلَيْنَا شَهْرًا ، وَإِنَّمَا أَصْبَحْتَ مِنْ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ لَيْلَةً ، أَعُدُّهَا عَدًّا ! فَقَالَ : الشَّهْرُ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ لَيْلَةً ، فَكَانَ ذَلِكَ الشَّهْرُ تِسْعًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً .. [3]

---

[1] الإهاب : الجلد قبل الدبغ .   [2] رواه البخارى ، كتاب المظالم والغصب ، وكتاب تفسير القرآن .

[3] رواه البخارى ، كتاب النكاح .

غزوة تَبُوك

كان النبى (ﷺ) إذا خرج فى غزو لا يُصَرِّح بوجهته ، بل يُعَرِّض بالحديث حتى يفاجئ عدوه ، إلا فى غزوة تبوك ، فقد كانت المسافة بعيدة ، فهى على حدود الشام ، وكان الزمان فى شدة الحر والقيظ ، وكان الناس فى عُسْر ، وكان العدو كثير العدد ، شديد القوة ، فقد بلغه (ﷺ) أن الروم تتجهز لغزو الحدود الشمالية لجزيرة العرب ، وأنـــهم أعدوا لذلك جيشًا جرارًا ، فأرسل النبى (ﷺ) فى القبائل جميعًا يدعوها للتهيؤ ، وإعداد أكثر ما يمكن إعداده من الرجال والسلاح ، ودعا أغنياء المسلمين للمشاركة بأموالهم فى تجهيز الجيش ، فأقبل الأغنياء يُلَبُّون دعوة الرسول (ﷺ) خفافًا مسرعين ، فأنفقوا نفقة عظيمة لتجهيز الجيش ، وكان عثمان بن عفان أكثرهم نفقة ، فقد جاء (رضي الله عنه) إِلَى النَّبِيِّ (ﷺ) بِأَلْفِ دِينَارٍ فِي ثَوْبِهِ ، حِينَ جَهَّزَ النَّبِيُّ (ﷺ) جَيْشَ الْعُسْرَةِ ، فَصَبَّهَا فِي حَجْرِ النَّبِيِّ (ﷺ) ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ (ﷺ) يُقَلِّبُهَا بِيَدِهِ وَيَقُولُ : مَا ضَرَّ ابْنَ عَفَّانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ – يُرَدِّدُهَا مِرَارًا – [1] .. وأنفق آخرون كلٌّ فى حدود طاقته ، وتجهز كل قادر على نفقة نفسه ، طامعًا فى الاستشهاد فى سبيل الله .. وأما الفقراء الذين لم يجدوا ما يتجهزون به ، فقد أقبلوا إلى النبى (ﷺ) بقلوب عامرة بالإيمان ، طامعين فى الجهاد فى سبيل الله ،

[1] رواه أحمد ، مسند البصريين .

فجهَّز بعضهم ، وقال لبعضهم : لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ، فتوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ، وقد أُطْلِقَ عليهم اسم البكائين ، وفى ذلك يقول أبو موسى الأشعرى (رضي الله عنه) : أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) فِي رَهْطٍ [1] مِنَ الأَشْعَرِيِّينَ أَسْتَحْمِلُهُ [2] ، فَقَالَ : وَاللَّهِ لاَ أَحْمِلُكُمْ ، مَا عِنْدِي مَا أَحْمِلُكُمْ .. ثُمَّ لَبِثْنَا مَا شَاءَ اللَّهُ ، فَأُتِيَ بِإِبِلٍ ، فَأَمَرَ لَنَا بِثَلاَثَةِ ذَوْدٍ [3] ، فَلَمَّا انْطَلَقْنَا قَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ : لاَ يُبَارِكُ اللَّهُ لَنَا ، أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) نَسْتَحْمِلُهُ فَحَلَفَ أَنْ لاَ يَحْمِلَنَا ، فَحَمَلَنَا .. يقول أَبُو مُوسَى : فَأَتَيْنَا النَّبِيَّ (ﷺ) فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ : مَا أَنَا حَمَلْتُكُمْ ، بَلِ اللَّهُ حَمَلَكُمْ ، إِنِّي وَاللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لاَ أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا ، إِلاَّ كَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي ، وَأَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ .. [4]

وأما مَنْ دخل فى الإسلام طمعًا فى مغانم الحرب ، أو خوفًا من سلطان المسلمين ، فقد تثاقلوا ، والتمسوا الأعذار ، وجعلوا يتهامسون فيما بينهم ، ويثبطون غيرهم قائلين : لاَ تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ .. ومنهم من ادعى الخوف على نفسه من الفتنة إذا رأى نساء الروم .. وخرج عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سَلُول بجيش من قومه ، ثم رجع بجيشه وتخلف عن رسول الله (ﷺ) فيمن تخلف من المنافقين ، وأهل الريب ..

---

(1) الرهط : الجماعة من الرجال دون العشرة .
(2) الاستحمال : طلب ما يركبه المجاهد ويحمل متاعه عليه.
(3) الذود : ما بين الثلاثة إلى العشرة من الإبل .
(4) رواه البخارى ، كتاب كفارات الأيمان .

وخلَّف النبى (ﷺ) علىّ بن أبى طالب على أهله ، وأمره أن يقيم فيهم ، وتَهَامَس المنافقون قائلين : خلَّفَه مع النِّسَاءِ وَالصِّبْيَان ، وذهب علىّ إلى رسول الله (ﷺ) يبكى ، ويريد الخروج ، فقال له النبى (ﷺ) : أَلاَ تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى ، إِلاَّ أَنَّهُ لَيْسَ نَبِيٌّ بَعْدِي ؟ .. [1]

واجتمع للنبى (ﷺ) فى هذا الجيش الذى سُمِّىَ جيش العُسْرَة – لشدة ما لاقى من مشقة وجهد – ثلاثون ألف رجل ، وكان الكثيرون منهم قليلى الزاد ، فكان العشرة منهم يتعاقبون بَعِيرًا واحدًا ..

وسار النبى (ﷺ) بجيشه ، وكان نفر من المسلمين قد تخلفوا عن النبى (ﷺ) من غير شك ولا ارتياب ، فكان الناس يقولون لرسول الله (ﷺ) : يَا رَسُولَ اللهِ ، تَخَلَّفَ فُلاَنٌ ، فَيَقُولُ : دَعُوهُ ، إِنْ كانَ فِيهِ خَيْرٌ فَسَيُلْحِقُهُ اللهُ تَعَالَى بِكُمْ ، وَإِنْ كانَ غَيْرَ ذَلِكَ فَقَدْ أَرَاحَكُمُ اللهُ مِنْهُ .. ويسير الجيش يومًا وليلة ، ثم ينـــزل الناس للاستراحة ، وقد تخلَّف مع مَنْ تخلَّف أثناء السير أبو ذَرٍّ الغِفَارى الذى تقاعست به ناقته فتركها ، وحَمَل متاعه على ظَهْره ، ومشى محاولاً اللَّحَاق بالرَّكْب .. وينتظر الأصْحاب مَنْ تتحقَّق فيه كلمة الرسول (ﷺ) : إِنْ كانَ فِيهِ خَيْرٌ فَسَيُلْحِقُهُ اللهُ تَعَالَى بِكُمْ .. وإذا بـــهم يرون رجلاً قادمًا من بعيد ينتزع رجليه من الرمال بمشقَّة ، يحمل متاعه على ظهره .. فيقولون : يَا رَسُولَ اللهِ ، هذا رَجُل قَادِم مِنْ بَعِيد يَمْشِي وَحْدَهُ !! فيقول

(1) رواه البخارى ، كتاب المغازى .

(ﷺ) : كُنْ أَبَا ذَرٍّ .. ويترقب الجميع ذلك القادم الذى يقترب شيئًا فشيئًا يكاد ينكفئ على وجهه ، وإذا به : أبو ذَرٍّ الغفَارى !! فيهتف الناس جميعًا : إِنَّه وَاللهِ أَبُو ذَرٍّ .. فيتلقَّاه الرسول (ﷺ) هاشًّا باشًّا ، ويقول : يَرْحَمُ اللهُ أَبَا ذَرٍّ ، يَعِيشُ وَحْدَهُ ، وَيَمُوتُ وَحْدَهُ ، ويُحْشَرُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَحْدَهُ .. [١]

ومن الذين تخلفوا أيضًا بغير عذر ثم ندموا على ذلك : أبو خَيْثَمَة ، الذى رَجَعَ – بَعْدَ أَنْ سَارَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) أَيَّامًا – إِلَى أَهْلِه فِي يَوْمٍ حَارٍّ ، فَوَجَدَ امْرَأَتَيْنِ لَهُ فِي عَرِيشَيْنِ [٢] لَهُمَا فِي حَائِطِه [٣] ، قَدْ رَشَّتْ كُلٌّ وَاحِدَة مِنْهُمَا عَرِيشَهَا ، وَبَرَّدَتْ لَهُ فِيهِ مَاءً ، وَهَيَّأَتْ لَهُ فِيهِ طَعَامًا ، فَلَمَّا دَخَلَ قَامَ عَلَى بَابِ الْعَرِيشِ ، فَنَظَرَ إِلَى امْرَأَتَيْه وَمَا صَنَعَتَا لَهُ ، فَقَالَ : رَسُولُ اللهِ (ﷺ) فِي الضِّحِّ [٤]، وَالرِّيحِ ، وَالْحَرِّ ، وَأَبُو خَيْثَمَةَ فِي ظِلٍّ بَارِدٍ ، وَطَعَامٍ مُهَيَّإٍ ، وَامْرَأَةٍ حَسْنَاءَ ، فِي مَالِه مُقِيمٌ !! مَا هَذَا بِالنَّصَف [٥] ، ثُمَّ قَالَ : وَاللهِ لاَ أَدْخُلُ عَرِيشَ وَاحِدَة مِنْكُمَا حَتَّى أَلْحَقَ بِرَسُولِ اللهِ (ﷺ) فَهَيِّئَا لِي زَادًا ، فَفَعَلَتَا ..ثُمَّ قَدَّمَ نَاضِحَهُ [٦] فَارْتَحَلَهُ ، ثُمَّ خَرَجَ فِي طَلَبِ رَسُولِ اللهِ (ﷺ) حَتَّى أَدْرَكَهُ حِينَ نَزَلَ تَبُوكَ .. وَقَدْ كَانَ أَدْرَكَ أَبَا خَيْثَمَةَ عُمَيْرُ بْنُ وَهْبٍ الْجُمَحِيّ فِي الطَّرِيقِ يَطْلُبُ رَسُولَ اللهِ (ﷺ) فَتَرَافَقَا ، حَتَّى إِذَا دَنَوَا مِنْ تَبُوكَ ، قَالَ أَبُو خَيْثَمَةَ لِعُمَيْرِ بْنِ وَهْبٍ : إِنَّ لِي ذَنْبًا ،

---

[١] سيرة ابن هشام .

[٢] العريش : كل ما يستظل به من بيوت ونحوها .

[٣] الحائط : بستان به نخل وشجر .

[٤] الضِّح : الشمس .

[٥] النَّصف : العدل .

[٦] الناضح : البعير الذى يُحمل عليه الماء .

فَلاَ عَلَيْك أَنْ تَخَلَّفَ عَنِّي حَتَّى آتِيَ رَسُولَ اللهِ (ﷺ) ، فَفَعَلَ حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ (ﷺ) وَهُوَ نَازِلٌ بِتَبُوكَ قَالَ النَّاسُ : هَذَا رَاكِبٌ عَلَى الطَّرِيقِ مُقْبِلٌ !! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) : كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ ، فَقَالُوا :يَا رَسُولَ اللهِ ، هُوَ وَاللهِ أَبُو خَيْثَمَةَ .. فَلَمَّا أَنَاخَ [1] ، أَقْبَلَ فَسَلَّمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ (ﷺ) ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) : أَوْلَى لَك يَا أَبَا خَيْثَمَةَ .. ثُمَّ أَخْبَرَ رَسُولَ اللهِ (ﷺ) الْخَبَرَ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) خَيْرًا ، وَدَعَا لَهُ بِخَيْرٍ .. [2]

هذا .. وفى الطريق إلى تبوك نزل رسول الله (ﷺ) بالجيش الْحِجْرَ عِنْدَ بُيُوتِ ثَمُودَ ، فَاسْتَسْقَى النَّاسُ مِنَ الآبَارِ الَّتِي كَانَ يَشْرَبُ مِنْهَا ثَمُودُ ، فَعَجَنُوا مِنْهَا ، وَنَصَبُوا الْقُدُورَ بِاللَّحْمِ ، فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) فَأَهْرَاقُوا [3] الْقُدُورَ ، وَعَلَفُوا الْعَجِينَ الإِبِلَ ، ثُمَّ ارْتَحَلَ بِهِمْ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ عَلَى الْبِئْرِ الَّتِي كَانَتْ تَشْرَبُ مِنْهَا النَّاقَةُ ، وَنَهَاهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا عَلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ عُذِّبُوا ، قَالَ : إِنِّي أَخْشَى أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ ، فَلاَ تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ .. [4]

وانطلق الجيش بعد ذلك قاصدًا تبوك ، وقد بلغ الروم أمر هذا الجيش وقوته ، فانسحبوا إلى داخل الشام يتحصنون بـــها ، ولم ير النبى (ﷺ) أن يتابعهم داخل حدودهم ، وكان يُحَنَّة بن رُؤْبَة صاحب أَيْلَة [5] أحد الأمراء المقيمين على حدود الشام ، فوجه النبى (ﷺ) إليه رسالة : أن يُذْعِن أو يغزوه ،

---

[1] أناخ : بَرَّك ناقته . [2] سيرة ابن هشام . [3] فأهراقوا : فصبُّوا وأهدروا .
[4] رواه أحمد ، مسند المكثرين من الصحابة . [5] أيلة : بلد على حدود الشام تعرف اليوم بإيلات .

فأقبل يُحَنَّة على النبى (ﷺ) وقَدَّم له الهدايا ، وصالحه على أن يدفع الجزية ، وأهداه النبى (ﷺ) رداءَ من نسيج أهل اليمن ، وكتب له كتاب أمْنٍ يقول فيه : [بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .. هَذِه أَمَنَةٌ مِنَ اللهِ وَمُحَمَّد النَّبيِّ رَسُول الله (ﷺ) لِيُحَنَّةَ بْنِ رُؤْبَةَ وَأَهْلِ أَيْلَةَ ، سُفُنُهُمْ وَسَيَّارَتُهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ لَهُمْ ذِمَّةُ اللهِ وَذِمَّةُ مُحَمَّد النَّبِيِّ وَمَنْ كَانَ مَعَهُمْ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ، وَأَهْلِ الْيَمَنِ ، وَأَهْلِ الْبَحْرِ .. فَمَنْ أَحْدَثَ مِنْهُمْ حَدَثًا ، فَإِنَّهُ لاَ يَحُولُ مَالُهُ دُونَ نَفْسِه ، وَإِنَّهُ طَيِّبٌ لِمَنْ أَخَذَهُ مِنَ النَّاسِ ، وَإِنَّهُ لاَ يَحِلُّ أَنْ يُمْنَعُوا مَاءً يَرِدُونَهُ ، وَلا طَرِيقًا يُرِيدُونَهُ مِنْ بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ] [1] .. وكذلك صالحه أهل جَرْبَاء ، وَأَذْرُح [2] ، ووافقوا على دفع الجزية المقررة ..

و قرر النبى (ﷺ) العودة بجيشه إلى المدينة بعد أن أرهب الروم ، وبعد عقد الاتفاق مع أمير أَيْلَة ، والبلاد المجاورة له ، فأصبحت هذه البلاد معاقل بين المسلمين وبين الروم ، بالإضافة إلى ما سوف يعطونه من جزية ، وبذلك تم تأمين حدود شبه الجزيرة العربية تأمينًا كاملاً ، لولا الخوف من أن يقوم أُكَيْدِر بن عَبْدِ الْمَلِك الكِنْدِىّ النَّصْرَانِىّ – أمير دُومَة الْجَنْدَل [3] – بمعاونة جيوش الروم إذا جاءت من ناحيته .. لذلك بعث النبى (ﷺ) إليه خالد بن الوليد فى خمسمائة فارس ، وأسرع خالد بالانقضاض على دُومَة الْجَنْدَل فى

---

[1] سيرة ابن هشام .

[2] جرباء ، وأذرح : قريتان من قرى الشام .

[3] دومة الجندل : بلد على حدود الشام .

غفلة من مَلِكِها ، الذى خرج فى ليلة مقمرة مع أخيه حسان لاصطياد بقر الوحش ، فأخذ خالد أُكَيْدِر أسيرًا ، وساق ما غَنِمَه من أنعام وأسلحة وأموال ، وعاد إلى المدينة ، ولحق بالنبى (ﷺ) ، الذى عرض الإسلام على أُكَيْدِر بن عَبْدِ الْمَلِك فأسلم ، وأصبح عونًا للمسلمين ..

وكان النبى (ﷺ) إذا عاد من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ، ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه كُلُّ مَنْ تخلف عن الغزو يعتذرون إليه بشتى المعاذير ، وكان منهم المنافقون ، وكان منهم المؤمنون الصادقون ككَعْبِ ابن مَالك ، وهِلاَلِ بن أُمَيَّة ، ومُرَارَةَ بنِ الرَّبِيع .. ويحكى كعب فيقول : لَمْ أَتخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللَّه (ﷺ) فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا قَطُّ إلاَّ فِي غَزْوَة تبُوكَ ، غَيْرَ أَنِّي قَدْ تَخلَّفْتُ فِي غَزْوَة بَدْرٍ وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَدًا تَخلَّفَ عَنْها ، إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) وَالْمُسْلِمُونَ يُرِيدُونَ عِيرَ قُرَيْشٍ ، حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ ، وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّه (ﷺ) لَيْلَةَ الْعَقَبَة حِينَ تَوَاثَقْنَا [1] عَلَى الإِسْلاَمِ ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ ، وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ [2] فِي النَّاسِ مِنْهَا .. وَكَانَ مِنْ خَبَرِي حِينَ تَخلَّفْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّه (ﷺ) فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلاَ أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزْوَة ، وَاللَّهِ مَا جَمَعْتُ قَبْلَهَا رَاحِلَتَيْنِ [3] قَطُّ ، حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ ..

---

(1) تواثقنا : تعاهدنا وتبايعنا .

(2) أذْكَر : أشهر .

(3) الراحلة : الناقة التى يركب عليها.

وَكَانَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) قَلَّمَا يُرِيدُ غَزَاةً يَغْزُوهَا إِلاَّ وَرَّى [1] بِغَيْرِهَا ، حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الْغَزَاةُ فَغَزَاهَا رَسُولُ اللَّه (ﷺ) فِي حَرٍّ شَدِيد ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا [2] ، وَاسْتَقْبَلَ عَدُوًّا كَثِيرًا ، فَجَلاَ [3] لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُ ، لِيَتَأَهَّبُوا [4] أُهْبَةَ عَدُوِّهِمْ ، فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ [5] الَّذِي يُرِيدُ ، وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّه (ﷺ) كَثِيرٌ لاَ يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ - أى لاَ يَجْمَعُهُمْ دِيوَانٌ مَكْتُوبٌ - قَالَ كَعْبٌ : فَقَلَّ رَجُلٌ يُرِيدُ يَتَغَيَّبُ إِلاَّ ظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ سَيُخْفَى لَهُ مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيٌ مِنَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ .. وَغَزَا رَسُولُ اللَّه (ﷺ) تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَتِ الثِّمَارُ ، وَأُحِبَّت الظِّلاَلُ ، فَالنَّاسُ إِلَيْهَا صُعْرٌ [6] ، فَتَجَهَّزَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّه (ﷺ) ، وَتَجَهَّزَ الْمُسْلِمُونَ مَعَهُ ، وَجَعَلْتُ أَغْدُو [7] لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُ فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ حَاجَةً ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي : أَنَا قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ إِذَا أَرَدْتُ .. فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتَمَادَى بِي [8] حَتَّى شَمَّرَ بِالنَّاسِ الْجِدُّ [9] ، فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) غَادِيًا ، وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ ، وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا ، فَقُلْتُ : أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ثُمَّ أَلْحَقُ بِهِمْ ، فَغَدَوْتُ بَعْدَ أَنْ فَصَلُوا [10] لأَتَجَهَّزَ ، فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا ، ثُمَّ غَدَوْتُ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتَمَادَى

---

(1) وَرَّى : أخفى وستر وأوهم . (2) المفاز : الصحراء القاحلة . (3) جلا : أوضح .

(4) ليتأهبوا : ليستعدوا ويتهيأوا . (5) أى بمقصده . (6) صعر : مائلون .

(7) أغدوا : أخرج صباحًا ، أول النهار . (8) يتمادى بى : يستمر بى . (9) تأهبوا للسير وأرادوه .

(10) فصلوا : خرجوا من حدود المدينة .

بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ [1] ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ - وَلَيْتَ أَنِّي فَعَلْتُ - فَلَمْ أَفْعَلْ ، وَجَعَلْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) فَطُفْتُ فِيهِمْ ، يَحْزُنُنِي أَنِّي لاَ أَرَى إِلاَّ رَجُلاً مَغْمُوصًا عَلَيْهِ فِي النِّفَاقِ [2] ، أَوْ رَجُلاً مِمَّنْ عَذَرَ اللهُ مِنْ الضُّعَفَاءِ .. وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ ، فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ : مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِك ؟ قَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ [3] ، وَالنَّظَرُ فِي عِطْفَيْهِ [4] ، فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ : بِئْسَمَا قُلْتَ ، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلاَّ خَيْرًا ، فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) .. فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلاً مِنْ تَبُوكَ ، حَضَرَنِي بَثِّي [5] ، فَجَعَلْتُ أَتَفَكَّرُ الْكَذِبَ ، وَأَقُولُ : بِمَاذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخْطَةِ رَسُولِ اللهِ (ﷺ) غَدًا ؟ وَأَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ كُلَّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي ، فَلَمَّا قِيلَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا ، زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ ، وَعَرَفْتُ أَنِّي لاَ أَنْجُو مِنْهُ إِلاَّ بِالصِّدْقِ ، فَأَجْمَعْتُ أَنْ أَصْدُقَهُ .. وَصَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) الْمَدِينَةَ ، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ ، فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ ، فَجَعَلُوا يَحْلِفُونَ لَهُ وَيَعْتَذِرُونَ ، وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلاً ، فَيَقْبَلُ مِنْهُمْ

---

[1] تفارط الغزو : تقدم الغزاة وتسابقوا . [2] مغموصًا عليه فى النفاق : مُتَّهَمًا به .

[3] البرد : رداء يلبس فوق الثياب . [4] النظر فى عطفيه : النظر فى جانبيه .. كناية عن الإعجاب بالنفس .

[5] البث : الحزن الشديد .

رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) عَلاَنِيَتَهُمْ وَأَيْمَانَهُمْ ، وَيَسْتَغْفِرُ لَهُمْ ، وَيَكِلُ سَرَائِرَهُمْ [١] إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، حَتَّى جِئْتُ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَتَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ ، ثُمَّ قَالَ لِي : تَعَالَ ، فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ لِي : مَا خَلَّفَكَ ؟ أَلَمْ تَكُنِ ابْتَعْتَ ظَهْرَك ؟ [٢] فَقُلْتُ : إِنِّي يَا رَسُولَ اللهِ ، وَاللهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ، لَرَأَيْتُ أَنِّي سَأَخْرُجُ مِنْ سُخْطِهِ بِعُذْرٍ ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلاً [٣] ، لَكِنْ وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُك الْيَوْمَ حَدِيثًا كَذِبًا لَتَرْضَيَنَّ عَنِّي ، وَلَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يُسْخِطَك عَلَيَّ ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُك حَدِيثًا صِدْقًا تَجِدُ [٤] عَلَيَّ فِيهِ ، إِنِّي لأَرْجُو عُقْبَايَ مِنَ اللهِ فِيهِ [٥] ، وَاللَّهِ مَا كَانَ لِي عُذْرٌ ، وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى ، وَلاَ أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ .. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) : أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ تَعَالَى فِيكَ .. فَقُمْتُ ، وَبَادَرَتْ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي فَقَالُوا لِي : وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا ، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لاَ تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) بِمَا اعْتَذَرَ بِهِ إِلَيْهِ الْمُخَلَّفُونَ ؟! قَدْ كَانَ كَافِيَكَ مِنْ ذَنْبِكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) لَكَ !! فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى رَسُولِ اللهِ (ﷺ) فَأُكَذِّبَ نَفْسِي ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ : هَلْ لَقِيَ هَذَا أَحَدٌ غَيْرِي ؟

---

[١] السرائر : جمع سريرة ، وهى ما يُكتم ويُسر .

[٢] ابتعت ظهرك : أى اشتريت دابتك .

[٣] براعة وقوة فى المنطق والكلام .

[٤] تجد عليَّ : تغضب منى .

[٥] أى أن يعوضنى خيرًا ، وأن يثيبنى فيه .

قَالُوا : نَعَمْ ، لَقِيَهُ مَعَكَ رَجُلاَن ، قَالاَ مِثْلَ مَقَالَتِك ، فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ ، فَقُلْتُ لَهُمْ : مَنْ هُمَا ؟ قَالُوا : مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَامِرِيُّ ، وَهِلاَلُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ ، فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا ، لِي فِيهِمَا أُسْوَةٌ ، فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي .. وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلاَمِنَا أَيُّهَا الثَّلاَثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ ، فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ ، وَتَغَيَّرُوا لَنَا ، حَتَّى تَنَكَّرَتْ لِي مِنْ نَفْسِي الأَرْضُ ، فَمَا هِيَ بِالأَرْضِ الَّتِي كُنْتُ أَعْرِفُ ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً ، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا ، وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ [(١)] ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ وَأَشْهَدُ الصَّلاَةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَطُوفُ بِالأَسْوَاقِ ، وَلاَ يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ ، وَآتِي رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلاَةِ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي : هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلاَمِ عَلَيَّ أَمْ لاَ ؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ ، فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلاَتِي نَظَرَ إِلَيَّ ، وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي ، حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ هَجْرِ الْمُسْلِمِينَ ، مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ حَائِطَ أَبِي قَتَادَةَ – وَهُوَ ابْنُ عَمِّي ، وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ – فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلاَمَ ، فَقُلْتُ لَهُ : يَا أَبَا قَتَادَةَ أَنْشُدُكَ اللَّهَ ، هَلْ تَعْلَمُ أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ؟ فَسَكَتَ ، فَعُدْتُ فَنَشَدْتُهُ ، فَسَكَتَ عَنِّي ، فَعُدْتُ فَنَشَدْتُهُ ، فَقَالَ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، فَفَاضَتْ عَيْنَايَ ، وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ ، فَبَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا

[(١)] أشب القوم : أصغرهم سنًّا .. وأجلدهم : أقواهم .

نَبَطِيٌّ [(١)] مِنْ أَنْبَاط أَهْلِ الشَّامِ - مِمَّنْ قَدِمَ بِطَعَامٍ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ - يَقُولُ : مَنْ يَدُلُّنِي عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ؟ فَجَعَلَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ إِلَيَّ حَتَّى جَاءَنِي ، فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ - وَكُنْتُ كَاتِبًا - فَإِذَا فِيهِ : (أَمَّا بَعْدُ .. فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلا مَضْيَعَةٍ ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ) .. فَقُلْتُ حِينَ قَرَأْتُهَا : وَهَذَا مِنَ الْبَلَاءِ أَيْضًا ، قَدْ بَلَغَ بِي مَا وَقَعْتُ فِيهِ أَنْ طَمِعَ فِيَّ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ .. قَالَ : فَعَمَدْتُ بِهَا إِلَى تَنُّورٍ فَسَجَرْتُهُ [(٢)] بِهَا .. فَأَقَمْنَا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الْخَمْسِينَ إِذَا بِرَسُولِ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) يَأْتِينِي ، فَقَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ ، فَقُلْتُ : أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ ؟ قَالَ : بَلِ اعْتَزِلْهَا ، فَلا تَقْرَبْهَا - وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ بِمِثْلِ ذَلِكَ - فَقُلْتُ لامْرَأَتِي : الْحَقِي بِأَهْلِكِ ، فَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الأَمْرِ مَا هُوَ قَاضٍ .. وَجَاءَتِ امْرَأَةُ هِلالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) فَقَالَتْ لَهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ هِلالَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ كَبِيرٌ ضَائِعٌ لاَ خَادِمَ لَهُ ، أَفَتَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ ؟ قَالَ : لاَ ، وَلَكِنْ لاَ يَقْرَبَنَّكِ ، قَالَتْ : وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا بِهِ مِنْ حَرَكَةٍ إِلَيَّ ، وَاللهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا ، وَلَقَدْ تَخَوَّفْتُ عَلَى بَصَرِهِ .. ويقول كعب : فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي : لَوِ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) فِي امْرَأَتِكَ ، فَقَدْ أَذِنَ لامْرَأَةِ هِلالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ ؟ فَقُلْتُ : وَاللَّهِ لا أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) ،

---

(١) نبطى : فلاح . نسبة إلى استنباط الماء واستخراجه .
(٢) التنور : الفرن ، سجرته : أحميته .

وَمَا أَدْرِي مَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) إذَا اسْتَأْذَنْتُهُ وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ .. قَالَ : فَلَبِثْنَا بَعْدَ ذَلكَ عَشْرَ لَيَالٍ ، فَكَمَلَ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً منْ حينَ نَهَى رَسُولُ الله (ﷺ) الْمُسْلمينَ عَنْ كَلاَمنَا ، ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلاَةَ الْفَجْرِ صَبَاحَ خَمْسينَ لَيْلَةً عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ منْ بُيُوتنَا ، فَبَيْنَمَا أَنَا جَالسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتي ذَكَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى منَّا (قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسي ، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بمَا رَحُبَتْ [1]) سَمعْتُ صَارخًا أَوْفَى [2] عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ يَقُولُ بأَعْلَى صَوْته : يَا كَعْبَ بْنَ مَالك ، أَبْشرْ ، فَخَرَرْتُ سَاجدًا ، وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ الْفَرَجُ .. وَآذَنَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) النَّاسَ بتَوْبَة اللَّه - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - عَلَيْنَا حينَ صَلَّى صَلاَةَ الْفَجْرِ ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا ، وَذَهَبَ نَحْوَ صَاحبَيَّ مُبَشِّرُونَ ، وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا ، وَسَعَى سَاعٍ منْ أَسْلَمَ وَأَوْفَى الْجَبَلَ ، فَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ منَ الْفَرَسِ ، فَلَمَّا جَاءَني الَّذي سَمعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُني ، نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ ، فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ ببشَارَته - وَاللَّه مَا أَمْلكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئذ - وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبستُهُمَا ، فَانْطَلَقْتُ أَتَأَمَّمُ [3] رَسُولَ اللَّه (ﷺ) ، يَلْقَاني النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنِّئُوني بالتَّوْبَة ، يَقُولُونَ : ليَهْنكَ تَوْبَةُ اللَّه عَلَيْكَ ، حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجدَ ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّه (ﷺ) جَالسٌ في الْمَسْجد حَوْلَهُ النَّاسُ ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْد اللَّه يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَني وَهَنَّأَني ، وَاللَّه مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ منَ الْمُهَاجرينَ غَيْرَهُ ..

قَالَ كَعْبٌ : فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّه (ﷺ) قَالَ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ منَ

---

(1) رحبت : اتسعت .   (2) أوفى : أشرف وعلا .   (3) أتأمم : أقصد .

السُّرُور : أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ ، قُلْتُ : أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ؟ قَالَ : لاَ ، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ .. قَالَ : وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ حَتَّى يُعْرَفَ ذَلِكَ مِنْهُ ، قَالَ : فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ [1] مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِلَى رَسُولِهِ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) : أَمْسِكْ بَعْضَ مَالِكَ ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ ، فَقُلْتُ : إِنِّي مُمْسِكٌ سَهْمِي [2] الَّذِي بِخَيْبَرَ ، وَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّمَا اللَّهُ تَعَالَى نَجَّانِي بِالصِّدْقِ ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لا أُحَدِّثَ إِلاَّ صِدْقًا مَا بَقِيتُ ..

قال كعب : وَاللهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ أَبْلاهُ اللهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ لِرَسُولِ اللهِ (ﷺ) ذَلِكَ أَفْضَلَ مِمَّا أَبْلانِي اللهُ ، وَاللهِ مَا تَعَمَّدْتُ مِنْ كِذْبَةٍ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ (ﷺ) إِلَى يَوْمِي هَذَا ، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللهُ فِيمَا بَقِيَ .. وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى (لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ

---

[1] انخلع من ماله : انقطع عن امتلاكه ، وتصدق به .   [2] السهم : النصيب من الغنيمة .

ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾)[1] ..

قَالَ كَعْبٌ : فَوَاللَّه مَا أَنْعَمَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيَّ مِنْ نِعْمَة قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي رَسُولَ اللَّه (ﷺ) يَوْمَئذ ، أَنْ لا أَكُونَ كَذَبْتُهُ ، فَأَهْلكَ كَمَا هَلَكَ الَّذينَ كَذَبُوهُ حِينَ كَذَبُوهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوهُ حِينَ كَذَبُوهُ شَرَّ مَا يُقَالُ لأَحَد ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى (سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾)[2] ..

قَالَ : وَكُنَّا خُلِّفْنَا أَيُّهَا الثَّلاثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولَئكَ الَّذينَ قَبِلَ منْهُمْ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) حِينَ حَلَفُوا فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ ، فَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللَّهُ تَعَالَى ، فَبِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ) ، وَلَيْسَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا الَّذي ذَكَرَ ممَّا خُلِّفْنَا بِتَخَلُّفِنَا عَنِ الْغَزْوِ ، وَإِنَّمَا هُوَ عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ ، وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ ، فَقَبِلَ مِنْهُ ..[3]

---

[1] سورة التوبة الآيات من ١١٧ إلى ١١٩ . [2] سورة التوبة آية ٩٥ ، ٩٦ .

[3] رواه أحمد فى مسند المكيين ، ومسلم فى كتاب التوبة ، وابن هشام عن ابن اسحاق فى سيرته .

و لم يكد يستقر النبى (ﷺ) بالمدينة بعد عودته من تبوك حتى مرضت ابنته أم كلثوم (رضي الله عنها) وماتت ، وحزن (ﷺ) عليها حزنًا شديدًا ، وكذلك كانت وفاتـــها صدمة لزوجها عثمان بن عفان (رضي الله عنه) الذي انقطع النسب بينه وبين النبى (ﷺ) للمرة الثانية ، فيبكي بُكاءً مُرًّا ، ويُسَرِّى عنه النبى (ﷺ) ويقول : والله لو عندنا ثالثة لزوَّجْنَاك إيَّاها .

وتمضى أيام ، وينـــزل جبريل (عليه السلام) يخبر النبى (ﷺ) بموت النَّجَاشي ، فيقول النبي (ﷺ) لأصحابه : مَاتَ الْيَوْمَ رَجُلٌ صَالِحٌ ، فَقُومُوا فَصَلُّوا عَلَى أَخِيكُمْ أَصْحَمَةَ [١] .. ويصلي عليه هو والمسلمون صلاة الغائب ..

وعلى رغم انتصارات المسلمين المتتالية ، فإن المنافقين فى المدينة وما حولها لا يَنْفَكُّون يكيدون للتفريق بين المؤمنين ، حتى إن بعضهم بَنَى مسجدًا بِذِي أَوَانٍ [٢] ، يأوى إليه جماعة منهم ، يحاولون تحريف كلام الله عن مواضعه ، ويثيرون البلبلة بين المسلمين ، ويتعاونون مع مَنْ حَارَب اللهَ ورسولَه من قبل ، وبلغ من جرأتـــهم أنـــهم طلبوا من رسول الله (ﷺ) أن يصلى لهم فيه قبل ذهابه إلى تبوك ، فأمهلهم حتى يرجع ، ونزل جبريل (عليه السلام) على النبى (ﷺ) بقول الله عز وجل : (وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ

[١] رواه البخارى ، كتاب المناقب .
[٢] ذى أوان : بلد على بعد ساعة من المدينة .

أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾) [1] .. فأمر النبى (ﷺ) بحرق مسجد الضرار هذا ، و لم يبق للمنافقين مَنْ يحميهم إلاَّ عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سَلُول شيخهم وزعيمهم ، الذى مرض ومات بعد تبوك بشهرين ، وصلى النبى (ﷺ) عليه إرضاءً لابنه عبد الله حين دعاه لذلك ، وقام على قبره حتى دفن ، فنـــزل قول الله تبارك وتعالى : (وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾) [2] ..

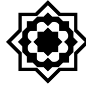
هذا .. وقد كانت غزوة تبوك فى شهر رجب من سنة تسع من الهجرة ، وهى آخر غزوات النبى (ﷺ) .. وتمضى الأيام ويمرض إبراهيم ابن النبى (ﷺ) مرضًا شديدًا ، وقامت من حوله أمه السيدة مارية وأختها سيرين تمرضانه ، و لم يَطُل به المرض ، وحضرته الوفاة ، ولما أُخْبِر النبى (ﷺ) بذلك ذهب مع عبد الرحمن بن عَوْف ، ووجد إبراهيم يجود بنفسه ، فأخذه ووضعه فى حَجْرِه ، وقال : إِنَّا يَا إِبْرَاهِيمُ لا نغنى عنك من الله شيئًا ، ثم ذرفت عيناه بالدمع ، فلما مات زادت الدموع فى عينى النبى (ﷺ) ، وقال : يا إبراهيم ، لولا أنه أمرٌ حقٌّ ، ووعْدٌ صِدْقٌ ، وأن آخرنا سيلحق بأوَّلنا ، لحزنَّا عليك أشد من هذا .. وسكت

---

[1] سورة التوبة الآيتان ١٠٧ ، ١٠٨ .

[2] سورة التوبة آية ٨٤ .

قليلاً ثم قال : إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ ، وَلاَ نَقُولُ إِلاَّ مَا يَرْضَى رَبُّنَا ، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ [1] .. ثم غَسَّلَهُ الفضل بن العباس ، وكَفَّنَهُ ، وصلى عليه النبى (ﷺ) ، وطائفة من المسلمين ، وحُمِل إلى البقيع حيث دُفِن ، واتفق أن كسفت الشمس ، فقال بعض الناس : إن الشمس كُسِفَتْ لموت إبراهيم ، فلما سمع النبى (ﷺ) بذلك خَرَجَ يَجُرُّ رِدَاءَهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْمَسْجِد ، وَثَابَ [2] النَّاسُ إِلَيْهِ ، فَصَلَّى بِهِمْ رَكْعَتَيْنِ ، فَانْجَلَت الشَّمْسُ ، فَقَالَ : إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّه ، وَإِنَّهُمَا لاَ يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ ، وَإِذَا كَانَ ذَاكَ ، فَصَلُّوا ، وَادْعُوا ، حَتَّى يُكْشَفَ مَا بِكُمْ .. [3]



---

(1) رواه البخارى ، كتاب الجنائز .

(2) ثاب : اجتمع .

(3) رواه البخارى ، كتاب الجمعة .

صلح الطائف

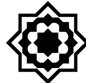
كان لانسحاب جيوش الروم إلى داخل معاقلهم بالشام ليتحصنوا بها ، وعدم مواجهتهم لجيش المسلمين فى تبوك أثر عميق فى نفوس العرب جميعًا ، خاصة القبائل التى ظلت محتفظة بدينها ، وكيانها ، وكان أثره أعمق فى أنفس قبائل الجنوب باليمن ، وحَضْرَ مَوْت ، وعُمَان ، والتى كانت خاضعة لسلطان الفرس لزمن طويل ، وها هم يرون الروم الذين غلبوا الفرس يهربون من مواجهة جيش المسلمين ، فلماذا لا يهادنون هم المسلمين ، أو ينضمون إليهم ، خاصة أن مَنْ أعلن إسلامه من زعماء القبائل ثبته النبى (ﷺ) فى إمارته ، وعلى قبيلته .. لذلك كانت مسارعة القبائل المختلفة فى الشمال ، وفى الجنوب إلى الدخول فى دين الله أفواجًا ، وكان أول من أسرع لإعلان الطاعة بعد تبوك هى الطائف التى قاومت حصار المسلمين لها - بعد فتح مكة وغزوة حنين - أشد المقاومة حتى انصرف المسلمون عنها دون اقتحامها .. فقد جاء إلى النبى (ﷺ) عُرْوَة بن مَسْعُود معلنًا إسلامه ، واعتزامه الذهاب إلى قومه يدعوهم للإسلام - وهو أحد سادة ثَقِيف المقيمين بالطائف ، وأحد الذين فاوضوا النبى (ﷺ) عن قريش فى صلح الحديبية ، وكان غائبًا باليمن حين حصار المسلمين للطائف - فحذَّره النبى (ﷺ) من قومه ثَقِيف لعلمه بتعصبهم لصنمهم (الَّلاَت) ، وقال له : إنَّهُمْ قَاتِلُوك ، فقال عُرْوَة : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَنَا

أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ .. وذهب عُرْوَة إلى قومه ودعاهم إلى الإسلام ، فلم يبدوا له رأيًا ، فلما أصبح الصباح قام عروة يؤذِّن للصلاة ، فأحاط به قومه ، ورموه بالنَّبْل من كل اتجاه ، فقال وهو يُسْلم الروح : كَرَامَةٌ أَكْرَمَنِي اللهُ بِهَا ، وَشَهَادَةٌ سَاقَهَا اللهُ إِلَيَّ ، فَلَيْسَ فِيَّ إلاَّ مَا فِي الشُّهَدَاءِ الَّذِينَ قُتِلُوا مَعَ رَسُولِ اللهِ (ﷺ) قَبْلَ أَنْ يَرْتَحِلَ عَنْكُمْ [1] .. ثم طلب أن يُدْفَن مع هؤلاء الشهداء ، فدفنه أهله معهم ..

وكان لقتل عُرْوَة بن مَسْعُود أحد سادة ثَقِيف على يد أناس من قومه – وهو يدعوهم إلى الإسلام – أثر بليغ فى نفوس القبائل المحيطة بالطائف ، والتى أسلمت ، ورأت فيما صنعت ثقيف بسيد من سادتها جُرْمًا لا يُغْتفر ، فلم يكن يخرج من ثقيف رجل إلا اقْتُطِع ، ورأت ثقيف أن العداوة قد أحاطت بهم من كل مكان ، ولا سبيل لهم إلى النجاة إلا بالصلح مع المسلمين ، فعرضوا على عَبْد يَالِيل أحد كبرائهم الذهاب إلى النبى (ﷺ) ليعرض عليه صلح ثقيف معه ، فشرط عَبْد يَالِيل أن يذهب معه خمسة آخرون ، وخرج الوفد متجهًا إلى المدينة ، وحين دخلوا على رسول الله (ﷺ) حيوه بتحية الجاهلية ، وليس بتحية الإسلام – التى علمهم الْمُغِيرَة بن شُعْبَة إيَّاها قبل أن يدخلوا على النبى (ﷺ) – وضربت لهم قُبَّة خاصة فى ناحية من نواحى المسجد أقاموا فيها ، وكان السفير بينهم وبين رسول الله (ﷺ) : خَالِد بن

(1) الذين استشهدوا من المسلمين فى حصار الطائف .

سَعيد بن الْعَاص ، وكلما ذهب إليهم بطعام لم يأكلوا منه حتى يأكل هو منه أولاً ، وقد أبلغوه أنـــهم على استعداد للإسلام بشرط أن يدع لهم صنمهم (الَّلاَت) ثلاث سنين لا يهدمها ، وأن يُعْفِيَهم من الصلاة ، فأَبَى النبى (ﷺ) عليهم ذلك ، فطلبوا أن يدعها لهم سنتين ، ثم سنة ، ثم شهرًا واحدًا ، كل ذلك يأبى عليهم رسول الله (ﷺ) دون هوادة ، وأما فى شأن الصلاة فقال : لاَ خَيْرَ فِي دِينٍ لاَ صَلاَةَ فِيهِ .. وتنازل الوفد عن طلباته ، وقبلوا الإسلام ، وإقامة الصلاة ، لكنهم طلبوا ألا يكسروا أصنامهم بأيديهم ، فوافق النبى (ﷺ) على ذلك ، وأَمَّر عليهم عُثْمَان بن أَبِي الْعَاص ، وهو أحدثهم سِنًّا ، لأنه كان أحرصهم على التفقه فى الدين .. وأقاموا فى المدينة ما بقى من شهر رمضان ، وصاموا مع المسلمين ، وعاد الوفد إلى بلادهم ، وأرسل النبى (ﷺ) معهم أبا سفيان بن حرب ، والمغيرة بن شعبة ، إذ كانت لهما بثقيف مَوَدَّة وحُرْمَة ، ليقوما بِهَدْم (الَّلاَت) ، وتم هَدْم (الَّلاَت) ، وأسلمت الطائف ، وبإسلامها صارت الحجاز كلها مسلمة ، وكانت البلاد الباقية فى جنوب شبه الجزيرة العربية تتهيأ كلها لإعلان إسلامها ، وبدأت الوفود تتتابع على المدينة لإعلان الطاعة ، والانضواء تحت سلطان دولة الإسلام ..



حج أبى بكر (رضي الله عنه)

اقترب شهر ذى الحجة – شهر الحج – وكان المشركون لا يزالون يحجون البيت الحرام ، وأمر النبى (صلى الله عليه وسلم) أبا بكر أن يخرج فى الناس حاجًّا ، فخرج فى ثلاثمائة مسلم قاصدًا إلى بيت الله الحرام ، وبدأ موسم الحج ، وبدأ الناس يتوافدون على مكة ، منهم المسلم ، وغير المسلم ، وقد آن الأوان لتطهير البيت الحرام من كل دين يخالف دين الإسلام ، لذلك أوفد النبى (صلى الله عليه وسلم) علىّ بن أبى طالب على إثر أبى بكر ، كى يعلن على الناس جميعًا فى يوم اجتماعهم ما أمر الله به ورسوله ، فلما رآه أبو بكر قال له : أَأَمِيرٌ أَمْ مَأْمُورٌ ؟ فَقَالَ : بَلْ مَأْمُورٌ ، وأخبره بما جاء له ، وأن النبى (صلى الله عليه وسلم) إنما بعثه لينادى فى الناس لأنه من أهل بيته ، فلما اجتمع الناس لأداء مناسكهم وقف علىّ بن أبى طالب ، وإلى جواره أبو هريرة ، وبدأ علىّ يتلو على الناس سورة براءة ، فلما أَتَمَّ تلاوتها سكت برهة ثم قال : أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّهُ لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ كَافِرٌ ، وَلاَ يَحُجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ ، وَلاَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ ، وَمَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) عَهْدٌ فَهُوَ لَهُ إِلَى مُدَّتِهِ .. ثم أَجَّلَ النَّاسَ أربعة أَشْهُرٍ بعد ذلك ليرجع كل قوم إلى مأمنهم ، وبلادهم ..

ويقول أبو هريرة (رضي الله عنه) : بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ فِي تِلْكَ الْحَجَّةِ فِي مُؤَذِّنِينَ يَوْمَ النَّحْرِ ، نُؤَذِّنُ بِمِنًى : أَنْ لاَ يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ ، وَلاَ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ ..[1]

---

(1) رواه البخارى ، كتاب الصلاة .

الوفود

عاد الحجيج إلى بلادهم ، وأخبروا أقوامهم بما نادى به علىّ بن أبى طالب ، وعندئذ دخلت فى الإسلام بلاد اليمن ، والبحرين ، واليمامة ، ومَهْرة ، ولم يأب إلا القليل الذين أخذتهم العزة بالإثم ، وغرَّهم بالله الغَرُور ، من هؤلاءِ : عَامِر بن الطُّفَيْل ، الذى ذهب مع وفد بنى عامر لإعلان إسلامهم ، فلما كانوا عند النبى (ﷺ) أراد عَامِر بن الطُّفَيْل أن يكون نِدًّا لرسول الله (ﷺ) ، وأَبَى أن يسلم ، وخرج وهو يقول : أَمَا وَاللهِ لأَمْلأَنَّهَا عَلَيْك خَيْلاً وَرِجَالاً ، فقال النبى (ﷺ) : اللَّهُمَّ اكْفِنِي عَامِرَ بْنَ الطُّفَيْلِ .. وانصرف عامر يريد قومه ، وإنه لفى بعض الطريق ، إذ أصابه الطاعون فى عنقه ، وقضى عليه وهو فى بيت امرأة من بنى سَلُول ، وهو يُرَدِّد : يَا بَنِي عَامِرٍ ، أَغُدَّةً كَغُدَّةِ الْبَعِيرِ ، وَمَوْتَةً فِي بَيْتِ سَلُولِيَّةٍ !! وكذلك أَرْبَد بن قَيْس الذى أَبَى هو الآخر أن يسلم ، وعاد إلى قومه بنى عامر ، ولم يَطُل به المقام ، بل أحرقته صاعقة حين خرج على جمل له ليبيعه .. ولم يمنع إباء عَامِر بن الطُّفَيْل ، وأَرْبَد بن قَيْس قومهما من أن يسلموا ، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا ، وبلغ عدد الوفود التى جاءت إلى النبى (ﷺ) لإعلان إسلامهم ، وإسلام أقوامهم واحدًا وسبعين وفدًا ، وتطهرت بلاد العرب جميعًا من الشرك ، وعبادة الأصنام ، وبعث النبى (ﷺ) من السابقين فى الإسلام إلى البلاد المختلفة مَنْ يفقههم فى الدين ..

هذا .. وقد كان من ضمن الوفود وفد من بَنِي حَنِيفَة من أهل اليمامـــة ، دخلوا على رسول الله (ﷺ) ، وخَلَّفُوا مُسَيْلِمَة بن حَبِيب على رحالهم ، وأسلموا ، وأعطاهم النبى (ﷺ) ، فذكروا له مُسَيْلِمَة ، فأمر له بمثل ما أمر لهم ، وقال : أَمَا إِنَّهُ لَيسَ بِشَرِّكُمْ مَكَانًا – وذلك لحفظه رحال أصحابه – فلما سمع مُسَيْلِمَة قـــولهم ادَّعى النبوة ، وزعم أن الله أشركه مع النبى (ﷺ) فى الرسالة ، وأخذ يَسْـــجَع فى القول مُدَّعيًا أنه وحى ، وأحَلَّ الخمر ، والزنا ، ووضع عن قومه الصلاة ، وانطلق يدعو الناس لتصديقه ، وتجرأ فأرسل رجلين إلى رسول الله (ﷺ) بكتاب يقـــول فيه : [مِنْ مُسَيْلِمَةَ رَسُولِ اللهِ إِلَى مُحَمَّد رَسُولِ الله ، سَلاَمٌ عَلَيْكَ ، أَمَّا بَعْـــدُ .. فَإِنِّى قَدْ أُشْرِكْتُ فِى الأَمْرِ مَعَكَ ، وإِنَّ لَنَا نِصْفَ الأَرْضِ ، وَلِقُـــرَيْشٍ نِصْـــف الأَرْضِ ، ولَكِنَّ قُرَيْشًا قَوْمٌ يَعْتَدُونَ] .. فقال النبى (ﷺ) لرسولى مُسَيْلِمَة : فمَـــا تَقُولاَن أَنْتُمَا ؟ قالاَ : نَقُولُ كَمَا قَالَ ، فقَالَ : أَمَا وَاللَّه لَوْلاَ أَنَّ الرُّسُـــلَ لاَ تُقْتَـــلُ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَكُمَا .. ثم كتب إلى مُسَيْلِمَة يقول : [بِسْمِ اللَّه الرَّحْمَنِ الـــرَّحِيمِ .. مِنْ مُحَمَّد رَسُولِ اللهِ إِلَى مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ ، السَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ، أَمَّـــا بَعْدُ .. فإِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ] ..

ويقول ابن عباس (رضى الله عنهما) : ذَكَرَ لِي رَسُولُ اللَّه (ﷺ) قَالَ : بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ أَنَّهُ وُضِعَ فِي يَدَيَّ سِوَارَانِ مِنْ ذَهَبٍ فَفَظِعْتُهُمَا ، فَكَرِهْتُهُمَا ، وَأُذِنَ لِي فَنَفَخْتُهُمَا فَطَارَا ، فَأَوَّلْتُهُ كَذَّابَيْنِ يَخْرُجَانِ .. [1]

---

[1] رواه أحمد ، مسند بنى هاشم .

حجة الوداع

فى الخامس والعشرين من شهر ذى القعدة من السنة العاشرة من الهجرة ، خرج النبى (ﷺ) بنسائه جميعًا من المدينة لأداء فريضة الحج ، واجتمع من المسلمين من كافة أنحاء الجزيرة العربية ما يقرب من مائة ألف أو يزيد ، يريدون أداء الحج مع النبى (ﷺ) ، ونزلوا بذى الْحُلَيْفَة - ميقات أهل المدينة - وباتوا ليلتهم ، ثم أحرموا بالحج فى اليوم التالى ، وانطلقوا إلى مكة وهم يُلَبُّون قائلين : لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ، لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ ، لا شَرِيكَ لَكَ .. حتى إذا بلغوا سَرِف [1] قال النبى (ﷺ) : مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ مَعَهُ هَدْيٌ فَأَحَبَّ أَنْ يَجْعَلَهَا عُمْرَةً فَلْيَفْعَلْ ، وَمَنْ كَانَ مَعَهُ الْهَدْيُ فَلاَ [2] .. ثم أكملوا مسيرهم حتى وصلوا إلى مكة فى اليوم الرابع من ذى الحجة ، ودخل النبى (ﷺ) البيت الحرام ، فاسْتَلَمَ الرُّكْنَ ، فَرَمَلَ ثَلاَثًا ، وَمَشَى أَرْبَعًا ، ثُمَّ قَامَ إِلَى مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ فَقَالَ : (وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى) [3]، فَجَعَلَ الْمَقَامَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ ، وصلى النبى (ﷺ) ركعتين ، قرأ فى الركعة الأولى سورة (قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَـٰفِرُونَ) ، وفى الركعة الثانية سورة (قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْبَيْتِ فَاسْتَلَمَ الرُّكْنَ ، ثُمَّ خَرَجَ مِنَ الْبَابِ إِلَى الصَّفَا ، حَتَّى إِذَا دَنَا مِنَ الصَّفَا قَرَأَ (إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ

(1) سَرِف : موضع فى الطريق . (2) رواه البخارى ، كتاب الحج . (3) سورة البقرة آية ١٢٥ .

ٱللَّهِ) [1] ، وقال (ﷺ) : نَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ ، فَبَدَأَ بالصَّفَا ، فَرَقِيَ عَلَيْهِ حَتَّى رَأَى الْبَيْتَ ، فَكَبَّرَ اللَّهَ وَهَلَّلَهُ وَحَمِدَهُ ، وَقَالَ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ ، وَلَهُ الْحَمْدُ ، يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، أَنْجَزَ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ ثُمَّ دَعَا بَيْنَ ذَلِكَ ، وَقَالَ مِثْلَ هَذَا ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ نَزَلَ إِلَى الْمَرْوَةِ ، فَمَشَى حَتَّى إِذَا انْصَبَّتْ [2] قَدَمَاهُ ، رَمَلَ فِي بَطْنِ الْوَادِي ، حَتَّى إِذَا صَعِدَتَا – يَعْنِي قَدَمَاهُ – مَشَى ، حَتَّى أَتَى الْمَرْوَةَ ، فَفَعَلَ عَلَى الْمَرْوَةِ كَمَا فَعَلَ عَلَى الصَّفَا .. [3]

وسعى (ﷺ) بين الصفا والمروة سبعة أشواط ، ثم أمر الناس أن يُحِلُّوا من إحرامهم ، ويجعلوها عمرة ، إلا من ساق الهدى معه ، فتعاظم ذلك على الناس ، لأنـهم كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الْعُمْرَةَ فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ مِنْ أَفْجَرِ الْفُجُورِ فِي الأَرْضِ ، وَيَجْعَلُونَ الْمُحَرَّمَ صَفَرًا ، وَيَقُولُونَ : إِذَا بَرَأَ الدَّبَرْ [4] ، وَعَفَا الأَثَرْ [5] ، وَانْسَلَخَ صَفَرْ [6] حَلَّتِ الْعُمْرَةُ لِمَنِ اعْتَمَرْ ، فقالوا : يَا رَسُولَ اللَّه ، أَيُّ الْحِلِّ ؟ قَالَ : الْحِلُّ كُلُّهُ .. فَقَالُوا : يَنْطَلِقُ أَحَدُنَا إِلَى مِنًى ، وَذَكَرُهُ يَقْطُرُ مَنِيًّا ؟! فلما بلغ ذلك النَّبِيَّ (ﷺ) قَالَ : لَوْ أَنِّي اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ ، لَمْ أَسُقِ الْهَدْيَ وَلَجَعَلْتُهَا عُمْرَةً ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ لَيْسَ مَعَهُ هَدْيٌ فَلْيَحْلِلْ وَلْيَجْعَلْهَا

---

[1] سورة البقرة آية ١٥٨ . [2] انصبت : انحدرت . [3] رواه مسلم ، كتاب الحج .

[4] برأ : التأم ، الدبر : الجرح الذى يكون فى ظهر البعير بعد العودة من الحج .

[5] عفا الأثر : ذهب أثر الأقدام . [6] انسلخ صفر : انتهى شهر صفر .

عُمْرَةً [١] .. فسأل سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ : يَا رَسُولَ اللَّه أَلعَامنَا هَذَا أَمْ لأَبَدِ الأَبَدِ ؟ فَشَبَّكَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) أَصَابعَهُ فِي الأُخْرَى ، وَقَالَ : دَخَلَتِ الْعُمْرَةُ فِي الْحَجِّ هَكَذَا - مَرَّتَيْنِ - لا ، بَلْ لأَبَدِ الأَبَدِ [٢].. وأقبل علىّ بن أبى طالب من اليمن ، ومعه من الهدى مائة ، وسأله النبى (ﷺ) : مَاذَا قُلْتَ حِينَ أَهْلَلْتَ بالْحَجِّ ؟ فقَالَ : قُلْتُ : اللَّهُمَّ إِنِّي أُهِلُّ بِمَا أَهَلَّ بِهِ رَسُولُكَ (ﷺ) [٣] ، فأمره أن يبقى على إحرامه ..

ويدخل النبى (ﷺ) على السيدة عائشة (رضى الله عنها) فيجدها تبكى ، فيقول لها : مَا يُبْكِيكِ يَا هَنْتَاهُ ؟ قالت : سَمِعْتُ قَوْلَكَ لأَصْحَابِكَ ، فَمُنِعْتُ الْعُمْرَةَ ، قَالَ : وَمَا شَأْنُكِ ؟ قالت : لاَ أُصَلِّي ، قَالَ : فَلاَ يَضِيرُكِ ، إِنَّمَا أَنْتِ امْرَأَةٌ مِنْ بَنَاتِ آدَمَ ، كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكِ مَا كَتَبَ عَلَيْهِنَّ [٤] .. وأمرها النبى (ﷺ) أن تنقض رأسها ، وتمتشط ، وأن تُهِلَّ بالحج ، وتدع العمرة ..

ولما جاء الثامن من ذى الحجة أمر النبى (ﷺ) الذين أحلوا من العمرة أن يحرموا بالحج ، وانطلق بـــهم إلى مِنًى حيث صلى بـــها الظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، وفجر التاسع من ذى الحجة ، ثُمَّ مَكَثَ قَلِيلاً حَتَّى طَلَعَتِ الشَّمْسُ ، ثم انطلق إلى عرفة ، فأَمَرَ بِقُبَّةٍ [٥] مِنْ شَعَرٍ فَضُرِبَتْ [٦] لَهُ بِنَمِرَةَ ،

---

[١] رواه البخارى ، كتاب الشركة .. ومسلم ، كتاب الحج . [٢] رواه مسلم ، كتاب الحج .

[٣] رواه مسلم ، كتاب الحج . [٤] رواه البخارى ، كتاب الحج .

[٥] القبة : الخيمة . [٦] فضربت : فنصبت .

فَسَارَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) لاَ تَشُكُّ قُرَيْشٌ ، إِلاَّ أَنَّهُ وَاقِفٌ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ أَوِ الْمُزْدَلِفَة كَمَا كَانَتْ قُرَيْشٌ تَصْنَعُ فِي الْجَاهِلِيَّة ، فَأَجَازَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) حَتَّى أَتَى عَرَفَةَ ، فَوَجَدَ الْقُبَّةَ قَدْ ضُرِبَتْ لَهُ بِنَمِرَةَ ، فَنَزَلَ بِهَا ، حَتَّى إِذَا زَاغَتِ الشَّمْسُ [١] ، أَمَرَ بِالْقَصْوَاءِ ، فَرُحِلَتْ لَهُ ، فَرَكِبَ حَتَّى أَتَى بَطْنَ الْوَادِي ، فَخَطَبَ النَّاسَ فَقَالَ : إِنَّ دِمَاءَكُمْ ، وَأَمْوَالَكُمْ ، عَلَيْكُمْ حَرَامٌ ، كَحُرْمَة يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا ، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا .. أَلاَ وَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّة مَوْضُوعٌ [٢] تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ ، وَدِمَاءُ [٣] الْجَاهِلِيَّة مَوْضُوعَةٌ ، وَأَوَّلُ دَمٍ أَضَعُهُ دَمُ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِث - كَانَ مُسْتَرْضَعًا فِي بَنِي لَيْث ، فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ - وَرِبَا الْجَاهِلِيَّة مَوْضُوعٌ ، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُهُ رِبَانَا ، رِبَا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْد الْمُطَّلِب ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ .. فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَة اللَّه ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَة اللَّه ، وَإِنَّ لَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لاَ يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ [٤] أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ [٥] ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ ، وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوف .. وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِه ، كِتَابَ اللَّه ، وَأَنْتُمْ مَسْئُولُونَ عَنِّي .. فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ ؟ قَالُوا : نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ ، وَأَدَّيْتَ ، وَنَصَحْتَ .. فَقَالَ بِإِصْبَعِه السَّبَّابَة إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُبُهَا [٦]

---

[١] زاغت الشمس : مالت عن وسط السماء إلى جهة الغرب .

[٢] موضوع : باطل ومتروك . [٣] الدم : الثأر . [٤] لا يوطئن فرشكم : لا يدخلن بيوتكم .

[٥] مبرح : مؤثر . [٦] ينكبها : يقلبها ، ويميلها إلى الناس .

إِلَى النَّاسِ : اللَّهُمَّ اشْهَدِ اللَّهُمَّ اشْهَدْ – ثَلاَثَ مَرَّاتٍ – ثُمَّ أَذَّنَ بلاَلٌ ، ثُمَّ أَقَامَ ، فَصَلَّى الظُّهْرَ ، ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى الْعَصْرَ ، وَلَمْ يُصَلِّ بَيْنَهُمَا شَيْئًا ، ثُمَّ رَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) حَتَّى أَتَى الْمَوْقِفَ ، فَجَعَلَ بَطْنَ نَاقَتِهِ إِلَى الصَّخَرَاتِ ، وَجَعَلَ حَبْلَ الْمُشَاةِ [1] بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ ، فَلَمْ يَزَلْ وَاقِفًا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ ، وَذَهَبَتِ الصُّفْرَةُ قَلِيلاً ، حَتَّى غَابَ الْقُرْصُ .. [2]

ونزل قول الله عز وجل : (ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا) [3] ..

ثم أفاض النبى (ﷺ) من عَرَفَة ، حتى أَتَى الْمُزْدَلِفَةَ ، فَصَلَّى بِهَا الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ ، بِأَذَانٍ وَاحِدٍ وَإِقَامَتَيْنِ ، وَلَمْ يُصَلِّ بَيْنَهُمَا شَيْئًا ، ثُمَّ اضْطَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ ، فَصَلَّى الْفَجْرَ حِينَ تَبَيَّنَ لَهُ الصُّبْحُ بِأَذَانٍ وَإِقَامَةٍ ، ثُمَّ رَكِبَ الْقَصْوَاءَ حَتَّى أَتَى الْمَشْعَرَ الْحَرَامَ ، فَرَقِيَ عَلَيْهِ ، فَحَمِدَ اللَّهَ ، وَكَبَّرَهُ ، وَهَلَّلَهُ ، فَلَمْ يَزَلْ وَاقِفًا حَتَّى أَسْفَرَ [4] جِدًّا ، ثُمَّ دَفَعَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ .. [5]

ثم انطلق إلى منى ، فرمى الجمرة الكبرى بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ ، يُكَبِّرُ كُلَّمَا رَمَى بِحَصَاةٍ ، ثُمَّ تَقَدَّمَ أَمَامَهَا فَوَقَفَ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ رَافِعًا يَدَيْهِ يَدْعُو .. ثم نحر بيده ثلاثًا وستين بدنة ، وأمر عليّ بن أبى طالب أن ينحر باقى الهدى – وكان

---

(1) حبل المشاة : مجتمعهم ، وطريقهم . (2) رواه مسلم ، كتاب الحج . (3) سورة المائدة آية ٣ .

(4) أسفر الصبح : انكشف وأضاء . (5) رواه ابن ماجه ، كتاب المناسك .

مائة بدنة – ثُمَّ أَمَرَ مِنْ كُلِّ بَدَنَةٍ بِبَضْعَةٍ ، فَجُعِلَتْ فِي قِدْرٍ ، فَطُبِخَتْ ، فَأَكَلاَ مِنْ لَحْمِهَا ، وَشَرِبَا مِنْ مَرَقِهَا ، ثم حلق رأسه ، وَجَلَسَ لِلنَّاسِ ، فَمَا سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ إِلاَّ قَالَ : لاَ حَرَجَ ، لاَ حَرَجَ ، حَتَّى جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ : حَلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أَنْحَرَ ؟ قَالَ : لاَ حَرَجَ ، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّه ، حَلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أَرْمِيَ ؟ قَالَ : لاَ حَرَجَ ، ثم قال : عَرَفَةُ كُلُّهَا مَوْقِفٌ ، وَالْمُزْدَلِفَةُ كُلُّهَا مَوْقِفٌ ، وَمِنًى كُلُّهَا مَنْحَرٌ ، وَكُلُّ فِجَاجِ مَكَّةَ طَرِيقٌ ، وَمَنْحَرٌ .. (١)

وفى يوم النحر ، خطب النبى (ﷺ) الناس فقال : أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا ؟ قالوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنوا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ ، قَالَ : أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ ؟ قالوا : بَلَى ، قَالَ : أَيُّ شَهْرٍ هَذَا ؟ قالوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنوا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ ، فَقَالَ : أَلَيْسَ ذُو الْحَجَّةِ ؟ قالوا : بَلَى ، قَالَ : أَيُّ بَلَدٍ هَذَا ؟ قالوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنوا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ ، قَالَ : أَلَيْسَتْ بِالْبَلْدَةِ الْحَرَامِ ؟ قالوا : بَلَى ، قَالَ : فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ ، وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا ، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا ، إِلَى يَوْمِ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ .. أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : اللَّهُمَّ اشْهَدْ ، فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ ، فَلاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ .. (٢)

وانطلق النبى (ﷺ) إلى البيت الحرام ، فطاف به سبعًا – طواف الإفاضة –

---

(١) رواه أحمد ، باقى مسند المكثرين . (٢) رواه البخارى ، كتاب الحج .

ثم عاد إلى منى ، فمكث بـــها أيام التشريق الثلاثة ، يرمى الجمرات الثلاث كل يوم بعد الزوال بسبع حصيات ، بادئًا بالجمرة الصغرى ، منتهيًا بالجمرة الكبرى ، وخطب الناس فى أوسط أيام التشريق فقال : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، أَتَدْرُونَ فِي أَيِّ شَهْرٍ أَنْتُمْ ؟ وَفِي أَيِّ يَوْمٍ أَنْتُمْ ؟ وَفِي أَيِّ بَلَد أَنْتُمْ ؟ قَالُوا : فِي يَوْمٍ حَرَامٍ ، وَشَهْرٍ حَرَامٍ ، وَبَلَد حَرَامٍ ، قَالَ : فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ ، وَأَمْوَالَكُمْ ، وَأَعْرَاضَكُمْ ، عَلَيْكُمْ حَرَامٌ ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا ، فِي بَلَدكُمْ هَذَا ، إِلَى يَوْمِ تَلْقَوْنَهُ .. ثُمَّ قَالَ : اسْمَعُوا مِنِّي تَعِيشُوا ، أَلاَ لاَ تَظْلِمُوا ، أَلاَ لاَ تَظْلِمُوا ، أَلاَ لاَ تَظْلِمُوا ، إِنَّهُ لاَ يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ إِلاَّ بِطِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ ، أَلاَ وَإِنَّ كُلَّ دَمٍ [1] ، وَمَال [2] ، وَمَأْثَرَة [3] كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّة تَحْتَ قَدَمِي هَذِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَة ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ يُوضَعُ دَمُ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِث بْنِ عَبْد الْمُطَّلِبِ - كَانَ مُسْتَرْضَعًا فِي بَنِي لَيْث فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ - أَلاَ وَإِنَّ كُلَّ رِبًا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّة مَوْضُوعٌ ، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَضَى أَنَّ أَوَّلَ رِبًا يُوضَعُ رِبَا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْد الْمُطَّلِبِ ، لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ ، وَلاَ تُظْلَمُونَ .. أَلاَ وَإِنَّ الزَّمَانَ قَد اسْتَدَارَ كَهَيْئَته يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ، ثُمَّ قَرَأَ (إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ)[4] .. أَلاَ لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا

---

[1] الدم : ثأر الجاهلية .

[2] المال : الربا .

[3] المأثرة : ما يُفْتَخر به .

[4] سورة التوبة آية ٣٦ .

يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ .. أَلاَ إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ ، وَلَكِنَّهُ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَكُمْ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي النِّسَاءِ ، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٌ ، لاَ يَمْلِكْنَ لأَنْفُسِهِنَّ شَيْئًا ، وَإِنَّ لَهُنَّ عَلَيْكُمْ وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ حَقًّا ، أَنْ لاَ يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا غَيْرَكُمْ ، وَلاَ يَأْذَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ لأَحَدٍ تَكْرَهُونَهُ ، فَإِنْ خِفْتُمْ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ ، وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ ، وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ ، وَلَهُنَّ رِزْقُهُنَّ ، وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَإِنَّمَا أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .. وَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ فَلْيُؤَدِّهَا إِلَى مَنِ ائْتَمَنَهُ عَلَيْهَا .. وَبَسَطَ يَدَيْهِ فَقَالَ : أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ ؟ أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ ؟ أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ ؟ ثُمَّ قَالَ : لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ ، فَإِنَّهُ رُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ [1] ..

ويعود النبى (ﷺ) إلى مكة لطواف الوداع ، وتقول السيدة عائشة (رضى الله عنها) : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، تَنْطَلِقُونَ بِحَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ ، وَأَنْطَلِقُ بِحَجٍّ ؟! فَأَمَرَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي بَكْرٍ أَنْ يَخْرُجَ مَعَهَا إِلَى التَّنْعِيمِ ، فَاعْتَمَرَتْ بَعْدَ الْحَجِّ .. [2]

وآذن النبى (ﷺ) فى أصحابه بالرحيل ، وإذا به (ﷺ) يرى السيدة صَفِيَّةَ عَلَى بَابِ خِبَائِهَا ، كَئِيبَةً ، حَزِينَةً ، لأَنَّهَا حَاضَتْ ، فَقَالَ : عَقْرَى ، حَلْقَى [3] ، إِنَّكِ لَحَابِسَتُنَا ؟ ثُمَّ قَالَ : أَكُنْتِ أَفَضْتِ يَوْمَ النَّحْرِ ؟ - يَعْنِي الطَّوَافَ - قَالَتْ : نَعَمْ ، قَالَ : فَانْفِرِي إِذًا .. ثم عاد (ﷺ) إلى المدينة .. [4]

---

(1) رواه أحمد فى مسند البصريين . (2) رواه البخارى ، كتاب الحج .

(3) عقرى ، حلقى : دعاء يجرى على لسان العرب ، ولا يعنونه . (4) رواه البخارى ، كتاب الحج .

عاد النبى (ﷺ) بعد حجة الوداع إلى المدينة ، وانصرف الناس كلٌّ إلى بلده ، وقد تعلموا مناسك الحج من رسول الله (ﷺ) ، واستمعوا إلى وصاياه .. ولم يطل بالنبى (ﷺ) المقام بالمدينة حتى أَمَرَ بتجهيز جيش لغزو تخـوم الشـام ، وملاقاة الروم فى عقر دارهم ، وأَمَّر على هذا الجيش أسامة بن زيد بن حارثة ، مما سبب لبعض الناس الاندهاش ، ودفعهم إلى الاعتراض على تعيين هذا الشاب الذى لم يجاوز العشرين من العمر أميرًا على جيش فيه كبار الصحابة كأبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وغيرهما من السابقين الأولين من المهـاجرين والأنصار ، فلما علم رسول الله (ﷺ) باعتراض البعض على إمارة أسامة ، قام فقال : إِنْ تَطْعَنُوا فِي إِمَارَتِهِ ، فَقَدْ كُنْتُمْ تَطْعَنُونَ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ ، وَأَيْمُ اللَّهِ إِنْ كَانَ لَخَلِيقًا لِلإِمَارَةِ ، وَإِنْ كَانَ لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ ، وَإِنَّ هَذَا لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ بَعْدَهُ [1] .. وأمر النبى (ﷺ) أسامة أن يُوطِئ الخيل تخوم البَلْقاء ، والدَّاروم من أرض فلسطين ، على مقربة من مُؤْتة حيث استُشْهِد أبوه زيد بـن حارثة ، وأن ينـزل على الأعداء فى عَمَايَة الصبح ، وأن يسرع بذلك حتى لا تسبق إلى أعدائه أنباؤه ، فإذا أَتَمَّ الله له النصر ، لم يُطِل بقاءه بينهم ، وعـاد غانِمًا مُظَفَّرًا .. وخرج أسامة والجيش معه إلى الْجُرُف على مقربة من المدينة

---

[1] رواه البخارى ، كتاب المغازى .

يتجهزون للذهاب إلى فلسطين ، وإنـــهم لفى استعدادهم للسفر إذ فوجئوا بمرض رسول الله (ﷺ) ، فحال ذلك دون تحركهم ..

وقد بدأ مرض النبى (ﷺ) خفيفًا ، حتى إنه مازح السيدة عائشة (رضى الله عنها) إذ تقول : رَجَعَ إِلَيَّ النَّبِيُّ (ﷺ) ذَاتَ يَوْمٍ مِنْ جَنَازَةٍ مِنَ الْبَقِيعِ ، فَوَجَدَنِي وَأَنَا أَجِدُ صُدَاعًا وَأَنَا أَقُولُ : وَا رَأْسَاهُ ، قَالَ : بَلْ أَنَا يَا عَائِشَةُ وَا رَأْسَاهُ ، قَالَ : وَمَا ضَرَّكِ لَوْ مُتِّ قَبْلِي فَغَسَّلْتُكِ ، وَكَفَّنْتُكِ ، وَصَلَّيْتُ عَلَيْكِ ، وَدَفَنْتُـــكِ ؟ فَقُلْتُ : لَكَأَنِّي بِكَ ، وَاللَّهِ لَوْ فَعَلْتَ ذَلِكَ لَرَجَعْتَ إِلَى بَيْتِي فَعَرَّسْتَ [1] فِيهِ بِبَعْضِ نِسَائِكَ ، قَالَتْ : فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) ثُمَّ بُدِئَ فِي وَجَعِهِ الَّـــذِي مَاتَ فِيهِ [2] .. وبدأ النبى (ﷺ) يطوف على نسائه كعادته ، والمرض يشتد به ، حتى إذا كان فى بيت ميمونة (رضى الله عنها) دعا نساءه ، واستأذنَهُنَّ أن يُمَرَّض فى بيت عائشة (رضى الله عنها) فَأَذِنَّ له ، فخرج (ﷺ) عاصبًا رأسه ، معتمـــدًا فى سيره على عمه العباس (رضي الله عنه) ، وعلى عَلِيّ بن أبى طالب (رضي الله عنه) ، وقدماه لا تكادان تحملانه حتى دخل بيت عائشة (رضى الله عنها) .. ولم يمنعه المرض من الخروج للصلاة بالناس ، وظل على ذلك عدة أيام ، ثم إنه خـــرج يومًـــا إلى المسجد ، وجلس على المنبر فقال : إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْـــرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ ، فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ : فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا .. ويقول أبو سعيد الخدرى (رضي الله عنه) : فقلت فى نفسى : مَـــا

[1] فعرست : كناية عن الجماع .

[2] رواه الدارمى ، كتاب المقدمة .

يُبْكِي هَذَا الشَّيْخَ إِنْ يَكُنِ اللَّهُ خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّه ؟! فَكَانَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) هُوَ الْعَبْدَ ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا .. وقَالَ رسول الله (ﷺ) : يَا أَبَا بَكْرٍ لاَ تَبْك ، إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَته وَمَاله أَبُو بَكْرٍ ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخذًا خَليلاً منْ أُمَّتي لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ ، وَلَكنْ أُخُوَّةُ الإِسْلاَمِ وَمَوَدَّتُهُ ، لاَ يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ بَابٌ إِلاَّ سُدَّ إِلاَّ بَابُ أَبِي بَكْرٍ [١] .

وتقول السيدة عائشة (رضى الله عنها) : لَمَّا مَرِضَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) مَرَضَهُ الَّذي مَاتَ فيه ، فَحَضَرَت الصَّلاَةُ فَأُذِّنَ ، فَقَالَ : مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بالنَّاسِ ، فقُلْتُ : إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسيفٌ [٢] ، إِذَا قَامَ فِي مَقَامكَ لَمْ يُسْمِعِ النَّاسَ منَ الْبُكَاءِ ، فَمُرْ عُمَرَ فَلْيُصَلِّ ، فَقَالَ : مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ للنَّاسِ ، فقلتُ لحَفْصَةَ : قُولِي لَهُ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ إِذَا قَامَ فِي مَقَامكَ لَمْ يُسْمِعِ النَّاسَ منَ الْبُكَاءِ ، فَمُرْ عُمَرَ فَلْيُصَلِّ للنَّاسِ .. فَفَعَلَتْ حَفْصَةُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) : مَهْ [٣] ، إِنَّكُنَّ لأَنْتُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ [٤] ، مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ للنَّاسِ .. فَقَالَتْ لى حَفْصَةُ : مَا كُنْتُ لأُصيبَ منْك خَيْرًا .. وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ فَصَلَّى ، فَوَجَدَ النَّبِيُّ (ﷺ) منْ نَفْسه خفَّةً ، فَخَرَجَ يُهَادَى [٥] بَيْنَ رَجُلَيْنِ ، كَأَنِّي أَنْظُرُ رِجْلَيْه تَخُطَّان فى الأَرْضِ منَ الْوَجَعِ ، فَأَرَادَ أَبُو بَكْرٍ أَنْ يَتَأَخَّرَ ، فَأَوْمَأَ إِلَيْه النَّبِيُّ (ﷺ) أَنْ مَكَانَكَ ، ثُمَّ أُتِيَ بِهِ حَتَّى جَلَسَ إِلَى جَنْبِهِ ، فَكَانَ النَّبِيُّ (ﷺ) يُصَلِّي ، وَأَبُو

---

[١] رواه البخارى ، كتاب الصلاة .
[٢] رقيق القلب ، سريع البكاء .
[٣] مه : كلمة زجر ، وإنكار بمعنى اكفف .
[٤] صواحب يوسف : مثلهن فى الجدال والإلحاح .
[٥] يهادى بين رجلين : يمشى بينهما معتمدًا عليهما لضعفه .

بَكْرٍ يُصَلِّي بِصَلاَتِهِ ، وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلاَةِ أَبِي بَكْرٍ .. [1]

وتقول عائشة (رضى الله عنها) : لَدَدْنَا [2] رَسُولَ اللَّه (ﷺ) فِي مَرَضِه ، وَجَعَلَ يُشِيرُ إِلَيْنَا لاَ تَلُدُّونِي ، فَقُلْنَا كَرَاهِيَةُ الْمَرِيضِ لِلدَّوَاءِ ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ : أَلَمْ أَنْهَكُمْ أَنْ تَلُدُّونِي ؟! قُلْنَا : كَرَاهِيَةٌ لِلدَّوَاءِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) : لاَ يَبْقَى مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ لُدَّ وَأَنَا أَنْظُرُ ، إِلاَّ الْعَبَّاسَ فَإِنَّهُ لَمْ يَشْهَدْكُمْ .. [3]

ويقول ابن عباس (رضى الله عنهما) : لَمَّا حُضِرَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) وَفِي الْبَيْتِ رِجَالٌ فَقَالَ النَّبِيُّ (ﷺ) : هَلُمُّوا أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لاَ تَضِلُّوا بَعْدَهُ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ رَسُولَ اللَّه (ﷺ) قَدْ غَلَبَهُ الْوَجَعُ ، وَعِنْدَكُمُ الْقُرْآنُ ، حَسْبُنَا كِتَابُ اللَّه .. فَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْبَيْتِ ، وَاخْتَصَمُوا ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : قَرِّبُوا يَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لاَ تَضِلُّوا بَعْدَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ غَيْرَ ذَلِكَ ، فَلَمَّا أَكْثَرُوا اللَّغْوَ وَالاخْتِلاَفَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) : قُومُوا عَنِّي ، وَلاَ يَنْبَغِي عِنْدِي التَّنَازُعُ .. [4]

وتقول عائشة (رضى الله عنها) : أَقْبَلَتْ فاطمة كأن مشيتها مشْيَة أبيها ، ودخلت عليه فى مرض موته وهى تقول : وَا كَرْبَ أَبَتَاهُ ، فقال لها : لاَ كَرْبَ عَلَى أَبِيكِ يَا بُنَيَّتِى بَعْدَ الْيَوْمِ ، فاقتربت من فِرَاشه ، وأسَرَّ إليها حديثًا فَبَكَتْ ، فأدناها منه مرةً أخرى ، وأفضى إليها بشىء فتبسَّمت وتَهَلَّلت أسارير وجهها ،

[1] رواه البخارى ، كتاب الأذان .
[2] لددنا : جعلنا فى جانب فمه دواء بغير اختياره .
[3] رواه البخارى ، كتاب الديات .
[4] رواه البخارى ، كتاب المغازى ، وكتاب العلم .

فقلت : مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ فَرَحًا أَقْرَبَ مِنْ حُزْنٍ !! فسألتُها عمَّا قال .. فقالت : مَا كُنْتُ لأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللهِ (ﷺ) .. فلما قبض (ﷺ) سألتُها ، فأخبرتني أنه أسَرَّ إليها فقال : إِنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُنِي بِالْقُرْآنِ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَــرَّةً ، وَإِنَّهُ عَارَضَنِي الْعَامَ مَرَّتَيْنِ ، وَمَا أُرَاهُ إِلاَّ وَقَدْ حَضَرَ أَجَلِي ، وَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِي لُحُوقًا بِي ، وَنِعْمَ السَّلَفُ أَنَا لَكِ ، فَبَكَيْتُ ، فَقَالَ : أَلاَ تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُــونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْعَالَمِين ؟!! [1] ..

ويخبر أنس بن مالك (رضي الله عنه) : أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ يُصَلِّي لَهُمْ فِي وَجَعِ النَّبِيِّ (ﷺ) الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ الاثْنَيْنِ وَهُمْ صُفُوفٌ فِي الصَّلاَةِ ، فَكَشَفَ النَّبِيُّ (ﷺ) سِتْرَ الْحُجْرَةِ يَنْظُرُ إِلَيْنَا ، وَهُوَ قَائِمٌ كَأَنَّ وَجْهَــهُ وَرَقَــةُ مُصْحَفٍ ، ثُمَّ تَبَسَّمَ يَضْحَكُ ، فَهَمَمْنَا أَنْ نَفْتَتِنَ مِنَ الْفَرَحِ بِرُؤْيَةِ النَّبِيِّ (ﷺ) ، فَنَكَصَ [2] أَبُو بَكْرٍ عَلَى عَقِبَيْهِ لِيَصِلَ الصَّفَّ ، وَظَنَّ أَنَّ النَّبِيَّ (ﷺ) خَارِجٌ إِلَى الصَّلاَةِ ، فَأَشَارَ إِلَيْنَا النَّبِيُّ (ﷺ) أَنْ أَتِمُّوا صَلاَتَكُمْ ، وَأَرْخَى السِّتْرَ ، فَتُــوُفِّيَ (ﷺ) مِنْ يَوْمِهِ .. [3]

هذا .. وتقول السيدة عائشة (رضى الله عنها) : كان رسول الله (ﷺ) وهو صحيح يقول : إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ ، ثُــمَّ يُخَيَّرَ .. وتقول : إِنَّ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيَّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) تُوُفِّيَ فِي بَيْتِــي ،

---

[1] عن فاطمة (رضى الله عنها) فتح البارى .
[2] نكص : رجع إلى الوراء .
[3] رواه البخارى ، كتاب الأذان .

وَفِي يَوْمِي ، وَبَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي [١] ، وَأَنَّ اللَّهَ جَمَعَ بَيْنَ رِيقِي وَرِيقِه عِنْدَ مَوْتِه ، دَخَلَ عَلَيَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بن أبِى بَكْر وَبِيَدِه السِّوَاكُ ، وَأَنَـا مُسْـنِدَةٌ رَسُولَ اللَّه (ﷺ) ، فَرَأَيْتُهُ يَنْظُرُ إِلَيْه ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُحبُّ السِّوَاكَ ، فَقُلْـتُ : آخُذُهُ لَكَ ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسه أَنْ نَعَمْ ، فَتَنَاوَلْتُهُ ، فَاشْتَدَّ عَلَيْه ، وَقُلْتُ : أُلَيِّنُهُ لَكَ ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِه أَنْ نَعَمْ ، فَلَيَّنْتُهُ ، فَأَمَرَّهُ ، وَبَيْنَ يَدَيْه رَكْوَةٌ [٢] فيهَا مَاءٌ ، فَجَعَلَ يُدْخلُ يَدَيْه فِي الْمَاءِ ، فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ يَقُـولُ : لاَ إِلَـهَ إلاَّ اللَّـهُ ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَات .. ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ فَجَعَلَ يَقُولُ : فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى ، حَتَّـى قُبِضَ وَمَالَتْ يَدُهُ ، فَقُلْتُ : إِذًا لاَ يُجَاوِرُنَا ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ حَدِيثُهُ الَّذِي كَـانَ يُحَدِّثُنَا وَهُوَ صَحِيحٌ [٣] ..

وتقول عائشة (رضى الله عنها) : مات رسول الله (ﷺ) ، وَأَبُو بَكْرٍ بِالسُّنْحِ [٤] ، فَقَامَ عُمَرُ يَقُولُ : وَاللَّه مَا مَاتَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) ، وَلَيَبْعَثَنَّهُ اللَّهُ فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِيَ رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ .. فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ اللَّه (ﷺ) فَقَبَّلَهُ ، قَالَ : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَده لاَ يُذِيقُكَ اللَّهُ الْمَوْتَتَيْنِ أَبَدًا ، ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ : أَيُّهَا الْحَالِفُ عَلَى رِسْلِكَ ، فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ ، فَحَمِدَ اللَّهَ أَبُو بَكْرٍ ، وَأَثْنَى عَلَيْه ، وَقَالَ : أَلاَ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا (ﷺ) فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ ، وَقَالَ :

---

(١) السَحْر : أسفل الصدر .. والنحر : أعلى الصدر .
(٢) الركوة : إناء من جلد .
(٣) رواه البخارى ، كتاب المغازى .
(٤) السنح : عوالى المدينة .

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ) [1] ، وَقَالَ : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ) [2] ، فَنَشَجَ النَّاسُ [3] يَبْكُونَ ، وقَالَ عُمَرُ : فَلَكَأَنِّي لَمْ أَقْرَأْهَا إِلاَّ يَوْمَئِذٍ ..[4]

هذا .. وقد اجتمعت الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة يتشاورون فى أمر الخلافة ، فلما علم أبو بكر بذلك أخذ عمر بن الخطاب وذهب إليهم ، فقالت الأنصار: مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ ، فقال عمر : سيفان فى غمد واحد إذًا لا يصطحبان ، يا معشر الأنصار ، أنشدكم بالله ، أَمَرَ رسول الله (ﷺ) أبا بكر أن يصلى بالناس ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : فأيكم تطيب نفسه أن يزيله عن مقامه الذى أقامه فيه رسول الله (ﷺ) ؟ قالوا : كلنا لا تطيب أنفسنا بذلك ، نستغفر الله .. ثم استطرد عمر قائلا : ومن منكم له هذه الثلاثة (إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا) [5] ؟ ثم مد يده إلى أبى بكر يبايعه .. وكان عمر بن الخطاب أول من بايع أبا بكر ثم بايع بعده الناس من الأنصار والمهاجرين ، ثم تلاهم مبايعة العامة .

---

[1] سورة الزمر آية ٣٠ . [2] سورة آل عمران آية ١٤٤ . [3] نشج الناس : غصوا بالبكاء من غير انتحاب .
[4] رواه البخارى ، كتاب المناقب .. وابن ماجه ، كتاب الجنائز .
[5] سورة التوبة آية ٤٠ .

ولما أرادوا دفن رسول الله (ﷺ) اختلفوا ، هل يحفرون له قبرًا أم يجعلون له لَحْدًا ؟! فبَعَثُوا إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ ، وَكَانَ يَضْرَحُ كَضَرِيحِ أَهْلِ مَكَّةَ ، وَبَعَثُوا إِلَى أَبِي طَلْحَةَ ، وَكَانَ هُوَ الَّذي يَحْفِرُ لأَهْلِ الْمَدِينَة ، وَكَانَ يَلْحَدُ [١] ، فَبَعَثُوا إِلَيْهِمَا رَسُولَيْنِ وَقَالُوا : اللَّهُمَّ خِرْ لِرَسُولِكَ ، فَوَجَدُوا أَبَا طَلْحَةَ ، فَجِيءَ بِهِ ، وَلَمْ يُوجَدْ أَبُو عُبَيْدَةَ ، فَلَحَدَ لِرَسُولِ اللَّه (ﷺ) ، فَلَمَّا فَرَغُوا مِنْ جِهَازِهِ يَوْمَ الثُّلاثَاءِ ، وُضِعَ عَلَى سَرِيرِهِ فِي بَيْتِه ، ثُمَّ دَخَلَ النَّاسُ عَلَى رَسُولِ اللَّه (ﷺ) أَرْسَالاً [٢] يُصَلُّونَ عَلَيْه ، حَتَّى إِذَا فَرَغُوا أَدْخَلُوا النِّسَاءَ ، حَتَّى إِذَا فَرَغُوا أَدْخَلُوا الصِّبْيَانَ ، وَلَمْ يَؤُمَّ النَّاسَ عَلَى رَسُولِ اللَّه (ﷺ) أَحَدٌ .. وَلَقَدِ اخْتَلَفَ الْمُسْلِمُونَ فِي الْمَكَانِ الَّذي يُحْفَرُ لَهُ ، فَقَالَ قَائِلُونَ : يُدْفَنُ فِي مَسْجِده ، وَقَالَ قَائِلُونَ : يُدْفَنُ مَعَ أَصْحَابِه ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه (ﷺ) يَقُولُ : مَا قُبِضَ نَبِيٌّ إِلاَّ دُفِنَ حَيْثُ يُقْبَضُ ، فَرَفَعُوا فِرَاشَ رَسُولِ اللَّه (ﷺ) الَّذي تُوُفِّيَ عَلَيْهِ ، فَحَفَرُوا لَهُ ، ثُمَّ دُفِنَ (ﷺ) وَسَطَ اللَّيْلِ مِنْ لَيْلَةِ الأَرْبِعَاءِ [٣] .. وحين لقيت السيدة فاطمة (رضى الله عنها) أنس بن مالك (رضي الله عنه) بعد ذلك قالت له : يَا أَنَسُ ، أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُولِ اللَّه (ﷺ) التُّرَابَ ؟!! [٤]

---

[١] اللحد : شق فى جانب الأرض .

[٢] أرسالاً : جماعات .

[٣] رواه ابن ماجه ، كتاب ما جاء فى الجنائز .

[٤] رواه البخارى ، كتاب المغازى .

خـــاتمة

وبعد .. فلعلك أيها القارئ الكريم قد لاحظت مدى المعاناة التى عاناها النبى (ﷺ) منذ ميلاده إلى وفاته ، ومدى المشقة التى كابدها فى سبيل إبلاغ رسالة الله تعالى إلى عباده .. فهلم بنا نستعرض تلك الحياة سويًّا لنرى أنه (ﷺ) قد ذاق طعم اليتم ثلاث مرات !! (المرة الأولى) : حين مات أبوه ، وهو لم يزل جنينًا فى بطن أمِّه ، فوُلِدَ ولم يجد أبًا يحمله ، ويفرح به ، ويحيطه بحنانه ورعايته ، ويُشْعِره بالحماية والعناية ، ولذة النطق بكلمة : يا أبتاه .. و(المرة الثانية) : عندما ماتت أمُّه ، وهو ابن خمس سنين ، وليتها ماتت وهو فى ملأ من قومه ، ولكنها ماتت فى طريق عودتـــها من المدينة إلى مكة ، ولم يكن معها سوى حاضنته أم أيمن ، التى عادت به خائفًا حزينًا يشعر بالوحدة والغربة .. و(المرة الثالثة) : حين مات جَدُّه عبد المطلب ، وهو ابن ثمانى سنين ، ومشى فى جنازته ، ورآه وهو يوارى فى التراب ..

وها هى أمُّه تدفعه إلى امرأة غريبة تأخذه على مضض ليتمه وفقره ، وترحل به بعيدًا لترضعه ، فيُحرم (ﷺ) من حنان الأم وشفقتها .. ومهما كان حنان حليمة السعدية ، وشعورها ببركة هذا الطفل ، فهى ليست مَنْ حملت به ووضعته ، كما أن لها ابنًا فى سنِّه يحتاج إلى رعايتها ، ولابد أن يكون مقدمًا على الغريب فى تلبية احتياجاته .. أضف إلى ذلك حادثة شق

الصدر التى - إن صحت - كانت مخيفة ومرعبة ، حتى إن حليمة حين أخبرها ولدها جاءت مسرعة فرأته ممتقعًا .. وبعد موت جَدِّه ، كفله أبو طالب ، وهو أفقر أعمامه ، وذو عيال كثيرة ، مما دفعه (ﷺ) إلى رَعْى الأغنام بأجر - وهو طفل - حتى يعين عَمَّه على نفقته ، ولم يُذْكر أنه (ﷺ) كان يلعب مع الغلمان فى سن اللعب واللهو البرىء ..

وحين بلغ (ﷺ) الثانيةَ عشرة من العمر أخذه عمه أبو طالب معه فى رحلته إلى الشام ، تلك الرحلة التى لم يجن أبو طالب فيها الكثير ، حتى إنه لم يكررها ، ولا شك أن الرحلة كانت شاقة مرهقة ، ولم يكن فيها أحد من سنِّه يأتنس به ، بل كان (ﷺ) وحيدًا وسط الرجال يخدم عمه ، ويُهيئ له متاعه ، ويُرَحِّل له ناقته ، وما إلى ذلك ، والسفر قطعة من العذاب ..

ثم ها هو (ﷺ) بعد ما بلغ مرحلة الشباب يعمل أجيرًا لدى السيدة خديجة (رضى الله عنها) ، ويسافر بتجارتها إلى الشام حريصًا أشد الحرص على الحفاظ على مالها وتنميته ، أمينًا عليه ، مما يشكل جهدًا زائدًا ، وهَمًّا دائمًا ..

ويتزوج (ﷺ) خديجة (رضى الله عنها) السيدة الثرية ، الملقبة بالطاهرة ، ويُهَيَّأُ للمتابع لهذه السيرة أن الدهر قد صفا ، وأن الأيام السعيدة قد أقبلت ، وأن أيام التعب والنَّصَب قد أدبرت ، ويُرْزَق (ﷺ) بالبنين ، حيث كان البنون أمل الآباء ، ولا يكاد يفرح بهم ، ويسعد بضحكاتهم

حتى تخطفهم يد المنون ، وهم فى طفولتهم البريئة ، الواحد تلو الآخر ، ولا تلد زوجه بعد ذلك إلا البنات ، فيرزق بأربع منهن ، فى زمان وبيئة تُعْتَبَر البنت فيه عارًا لا يزيله إلا الوأد فى التراب .. تلك البيئة التى لم تقتصر على وأد البنات ، وعقوق الأمهات بل تتعدى ذلك إلى عبادة الأصنام ، وتقديم القرابين للأوثان ، والبغى والعدوان ، والظلم والطغيان ، والتَّدَنى فى مهاوى الرذيلة والفساد ، ولم يكن أمامه (ﷺ) وهو صاحب الفطرة السليمة ، والْخُلُق القويم ، الْمُتَّصِف بالصدق والأمانة إلا أن يلجأ إلى الوحدة والاعتزال ، والبعد عن هذا الجو الموبوء ، فاختار (ﷺ) غار حراء فى أعلى الجبل خارج مكة ، حيث الهدوء والسكون ، يمكث فيه (ﷺ) أيامًا عديدة يتزود لها بما تيسر من زاد ، فإذا فرغ الزاد نزل إلى مكة حيث يمضى (ﷺ) أيامًا مع زوجه وبناته ، ثم يتزود ويعود إلى غار حراء ، نائيًا بنفسه عن مجالس أهل مكة العامرة بالخمور والقِيان [1]، واللغو من الكلام ، متفكرًا فى خلق السماوات والأرض ، متأملاً فى الكون ، باحثًا عن الحقيقة ، وعن المعبود الحق ..

وفى ليلة من ليالى رمضان ، وفى هدأة الليل يُفَاجأ (ﷺ) وهو فى الغـــار - الذى يصعب الوصول إليه فى ضوء النهار - بِمَنْ يدخل عليه قائلاً له : (اقرأ) .. ياهول المفاجأة !! فيقول ما أنا بقارئ - فإنه لم يكن يعرف

---

[1] القيان : جمع قَيْنة ، وهى الجارية التى تغنى .

القراءة ولا الكتابة – فيأخذه ويضمه إلى صدره ضمة تكاد تكسر ضلوعه ، ثم يقول له : (اقرأ) للمرة الثانية ، فيقول (ﷺ) ما أنا بقارئ ، ويضمه مرة أخرى ضمة شديدة ، ويكرر قوله له : (اقرأ) ، فيقول (ﷺ) : ما أقـــرأ ؟ فيتلو عليه الآيات التى تنـــزل على قلبه بردًا وسلامًا ، لكن جسده يرتعد ، ويملأه الخوف والوجل ، ويعتريه الاندهاش والتحير ، ويعود (ﷺ) مسرعًا إلى بيته يقول : زَمِّلُونِى .. زَمِّلُونِى .. دثِّرُونى .. دثِّرُونى .. ما الخطب ؟! ما الأمر ؟! مَنْ هذا ؟! وأى شىء هذا ؟!

لا شك أن الأمر فوق أنه مُرْبِك ومُحَيِّر ، فهو مخيف ومرعب .. ولما تأكد له (ﷺ) أن مَنْ أتاه هو ملك من السماء ، وأنه أصبح مُكَلَّفًا بأداء رسالة ربه ، شعر بثقل الحمل ، وخطورة العبء ، وعِظَم المسئولية التى ألقيت على عاتقه !! تُرى من يصدقه ؟! من يستجيب له ؟!

استجابت الزوج الحنون التى تعرفه (ﷺ) حق المعرفة ، واستجاب الصديق الوفى أبو بكر ، واستجاب الابن بالتبنى زيد ، وكذلك ابن عمه علىّ الذى كان صبيًّا فى كفالته .. ثم ماذا بعد ؟

أُمِر (ﷺ) بالابلاغ ، ويا لفظاعة ما استقبله به أهله وعشيرته ، الذين يعرفون صدقه وأمانته !! اتِّهام بالجنون ، اتِّهام بالكذب والادعاء ، اتِّهام بأنه مسحور أو ممسوس من الجن .. ولم يقتصر إيذاؤهم على الإيذاء النفسى ، بل تعداه إلى الإيذاء البدنى بإلقاء القاذورات عليه ، وأمام بيته ..

ومن الغريب أن أشد الناس إيذاء له وتكذيبًا كانوا من أهله وقرابته ، كأبى لهب وامرأته ..

ووصل الأمر إلى الحصار والمقاطعة ، وإلجائه (ﷺ) إلى شعاب الجبال ، هو ومَنْ والاه لمدة ثلاث سنين ..

وتأتى المصيبة الكبرى بموت الزوجة المؤمنة الصَّادقة الْمُحِبَّة الْحَنُون ، وموت العم المحبوب الذى كان كافلاً له ، حاميًا له ، ومدافعًا عنه دون أن يقر عينه بكلمة التوحيد !!

ويشتد الأذى ، ويلحق بالمؤمنين الضعفاء أمثال : بِلاَل ، وصُهَيْب ، وخَبَّاب ، ويَاسِر ، وعَمَّار ، وسُمَيَّة .. ويمر (ﷺ)عليهم ، ويراهم يعذبون بأفظع أنواع التعذيب ، ولا يملك إلا أن يقول لهم ، وهو يتمزق من الألَم : صبرًّا فإن موعدكم الجنة .. أى غيظ ! وأى حزن ! وأى غضب ! يعتريه من أجل هؤلاء الضعفاء الذين آمنوا به ، وأحبهم وأحبوه ، ولا ذنب لهم إلا أنـــهم آمنوا بالله ، وصدقوا رسوله ..

ويأمرهم (ﷺ) بالفرار والهجرة إلى الحبشة إن استطاعوا ، فمنهم من أفلح فى ذلك ، ومنهم من احْـــتُبِس ، فأما من أفلحوا فقد خَلَّفوا وراءهم لوعة الفِراق والإشفاق عليهم من الغربة ، خاصة أن منهم الأحباب كابنته رُقَيَّة ، ومنهم الأصحاب كزوجها عُثْمَان بن عَفَّان ، ومنهم الأقارب كجَعْفَر بن أبى

طالب .. وأما من احْـتُبِس فصرخات أَلَمِهِم تَقُضُّ المضاجع ، وتذهب النوم عن العيون ..

ويحدوه (ﷺ) الأمل فى أن يستجيب له أهل الطائف ، ويوفِّروا له الحماية ، وهيهات هيهات .. فقد أغروا به صبيانـهم ، وسفهاءهم فاستقبلوه بالسباب ، والحجارة حتى أدموا قدميه ، وألجأوه (ﷺ) إلى بستان حيث جلس تحت شجرة يشكو إلى الله ضعفه ، وقلة حيلته ، وهوانه على الناس ..

ويستدعيه الله – عز وجل – إلى السماء ، فيرى (ﷺ) التصديق له ، ويُسْتَقبل بالترحاب ، مما يزيد من خوفه ، وقلقه على قومه وعشيرته التى أعمتهم مصالحهم عن رؤية الحق والنور ..

ولعله (ﷺ) إن أخبر قومه بـهذه الرحلة الخارقة أن يصدقوه ، ولكنهم زادوا من تكذيبه ، واتِّهامه بالجنون ، وليت الأمر اقتصر على ذلك ، بل ارتد بعض مَنْ آمن به إلى الكفر ..

ويجتمع الصناديد يتشاورون ، أيخرجونه أم يحبسونه ؟ بل فليقتلوه .. ويُؤْمَر (ﷺ) بالهجرة إلى المدينة فيخرج مع صاحبه أبى بكر (رضي الله عنه)، يعانيان وَعْثَاء السفر ، والخوف من الطلب ، أو الرصد ..

وتستقبله المدينة بالفرح والسرور بعد طول تَرَقُّب ، وانتظار .. ولا يكاد يستريح من وَعْثَاء السفر حتى تحيط به مؤامرات اليهود والمنافقين ، مؤامرات

الوقيعة بين قبائل الأنصار الذين ألَّف الإسلام بين قلوبـــهم ، ومؤامرات البلبلة ، والتشكيك فى نفوس المسلمين ، ومؤامرات التحريش بين المهاجرين والأنصار الذين جمعهم التآخى فى الله ..

وتأتى وقعة بدر ، ويخرج المهاجرون آملين فى استرداد بعض ما فقدوه بمكة من أموال ودور من قافلة قريش القادمة من الشام ، وإذا بالقافلة تفوتـــهم ، ويجدون بدلاً منها جيشًا يفوق عددُه عددَهم بثلاثة أضعاف ، وتحدث المعركة دون توقع ، ودون استعداد ، ويشتد التوجه إلى الله ، واللجوء إليه ، إذ لو قُضِى على المسلمين فى هذه المعركة لانتهى الإسلام ، ولوئدت الدعوة فى مهدها .. ويحدث النصر بفضل الله ، ويعود المسلمون فرحين بالنصر ، وإن كانوا لم يحصلوا على ما خرجوا له .. ويدخل (ﷺ) المدينة بادئًا بالمسجد كعادته منتظرًا أن يرى البشاشة فى وجوه أصحابه الذين كانوا فى انتظاره على أَحَرَّ من الجمر ، فيفاجأ (ﷺ) بالوجوم يعلو أساريرهم ، إذ هم عائدون من تشييع جنازة ابنته رُقَيَّة ، التى تركها مريضة يرعاها زوجها عثمان ..

وينقضى عام ، وتخرج قريش بِخَيْلها ، وخُيَلائها لتثأر لقتلاها ببدر ، ويبدأ (ﷺ) التشاور مع الأصحاب ، فيفوض الكبراء الأمر إليه ، ويتحمس للخروج الشباب ، والذين لم يشهدوا بدرًا ، ويخرج استجابة لهم – وإن كان يرى غير ذلك – وينظم صفوفه ، ويأمر الرُّماة بعدم التحرك من أماكنهم ،

ويحدث اللقاء ، وتَهُب رياح النصر ، ثم ينفرط العِقْد ، ويتحول النصر إلى هزيمة مؤلمة بسبب عصيان بعض الرُّماة ، ويُصاب (ﷺ) فى المعركة ، ويسيل الدم على وجهه الشريف ، وتُكسر إحدى أسنانه ، ويقع فى حفرة ، ولا يستطيع أن يخرج منها إلا بمساعدة بعض مَنْ حوله من الصحابة ، وتنتهى المعركة ، ويشمت كفار قريش ، وينصرفون بعد أن نالوا ثأرهم ، واعتقدوا أنـــهم قتلوه ..

ويتفقد (ﷺ) ساحة المعركة ، ويا لفظاعة ما رآه !! أجساد أصحابه وقد صارت أشلاء بما فعله الكفار بـــهم من تمثيل ، وها هو عَمُّه حمزة أسد الله ، وأسد رسوله قد بُقِرت بطنه ، وأُخْرِجت كبده ، وجُدِعَ أنفه !! وتوضع الجثث أمامه جثة جثة ينظر إليها ، وتدفن بدمائها .. ويعود إلى المدينة وقد سبقته الأخبار لتستقبله شماتة المنافقين واليهود ، وصراخ النساء ، وبكاء أطفال الشهداء ..

وتتوالى الغزوات للدفاع عن كيان الدولة الناشئة ، وعقيدة الإسلام ، وتتوالى معها الأحزان باستشهاد أخلص الرجال وأحبهم إلى قلبه كجعفر بن أبى طالب ، وزيد بن حارثة – الذى كان فى مكان الابن – وعبد الله بن رواحة الشاعر ذى الحس المرهف ، والذى طالما دافع عنه بأشعاره ، وغيرهم وغيرهم ، بل وتموت ابنته زينب ، ثم تموت ابنته أم كلثوم ، وهما فى ريعان شبابـــهما ، ولا يتركان من الذرية ما يكون به السَّلوى ، وها هو ولده

إبراهيم يجود بأنفاسه فى حَجْره وهو لا يزال رضيعًا ، وتنحدر الدموع ، ولا ينطلق اللسان إلا بما يرضاه الرب ..

مصائب وفواجع تترا .. وجهاد مستمر فى قيظ ، وحر ، وريح لافحة ، وصحراء قاحلة .. وشَظَفٌ فى العيش ، فقد كانت الشهور تَمُرُّ ولا طعام له إلا التمر والماء ، وفراشه (ﷺ) من حصير لا يرحم الجسد اللين ، ووسادته من جلد حشوها ليف ..

كل ذلك ، والوحى ينـــزل ، والأوامر والنواهى تتوالى ، والتشريع يطلب التنفيذ ، ويطلب القدوة فى الطاعة ، والتخلق بأخلاق القرآن ، كما يطلب المثل الذى يُحتَذى ليكون أساسًا لتربية الأصحاب ، وتكوين المجتمع الإسلامى الذى به تقوم الدولة ، ويُحفَظ كيانـــها ..

رجل واحد مسئول عن كل ذلك ، ومُطَالَب بكل ذلك ، قائم بكل ذلك ، وهو صائم نـــهاره ، قائم ليله حتى تورمت قدماه ، وأشفقت زوجه عليه فعاتبته على ذلك .. حتى الرجل الشديد عمر بن الخطاب لم يملك دموعه حين رأى ما أَحْدَثه افتراش الحصير فى جنبه (ﷺ) .. ناهيك عن غيرة نسائه ، وما كن يفعلنه معه !!

وتمر الأيام ، ويأتى فتح مكة ، ويقف الذين كذبوه ، وآذوه أمامه ، لا يملكون لأنفسهم شيئًا ، فيقول (ﷺ) بصفاء قلب ، وسماحة نفس ، وبتواضع

الأنبياء : اذهبوا فأنتم الطلقاء !!! ويأبى وفاؤه إلا أن يعود إلى المدينة مع الأنصار الذين آووه ونصروه ، على رغم أن بلده مكة قد دانت له ..

ويحج (ﷺ) بالناس حجة الوداع ، يعلمهم مناسكهم ، وينصح لهم ، ويبين لهم طريق الفلاح ، ويحذرهم من التفرق والتمزق ، وطريق الخسران ..

ويعود (ﷺ) إلى المدينة بعد أن أدَّى الأمانة ، وبلغ الرسالة ، ويمرض (ﷺ) مرض الموت ، ويتألَّم ، ويتوجَّع ، ويُغْشى عليه ، ويُفِيق ، ويشير بإصبعه إلى السماء قائلا : بَلِ الرَّفِيق الأَعْلَى .. بَلِ الرَّفِيق الأَعْلَى ..

والآن بعد هذا الاستعراض السريع لحياة النبى الخاتم (ﷺ) قد نفهم لماذا قال له جبريل عليه السلام : أبْعَد الله رَجُلا ذُكِرْت عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْك .. فسكت (ﷺ) حتى قال له جبريل : قل آمين ، فقال : آمين .. [1]

اللهم صل وسلم وبارك على سيد الأولين والآخرين وخاتم النبيين والمرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

---

[1] ورد عن ابن حبان عن مالك بن الحسن بن مالك بن الحويرث عن أبيه عن جده (رضي الله عنهم) .

الفهرس

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية

٥٩٤٥ / ٢٠٠٥

من مصادر الكتاب :

(١) القرآن الكريم .

(٢) من كتب التفسير :

- " **الجامع لأحكام القرآن** " للإمام أبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى .
- " **تفسير القرآن العظيم** " للإمام إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى .
- "**جامع البيان عن تأويل آي القرآن** " للإمام أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى .

(٣) من كتب الحديث الشريف :

- صحيح إمام المحدثين : محمد بن إسماعيل البخارى .
- صحيح أبى الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى .
- صحيح الإمام أبى عيسى الترمذى .
- سُنن الإمام أبى داود السجستانى .
- سُنن الإمام أبى عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائى .
- سُنن الإمام ابن ماجه القزوينى .
- سُنن الإمام الدارمى .
- مسند الإمام أحمد بن حنبل .
- سُنن الإمام ابن حبان .
- فتح البارى فى شرح صحيح البخارى للإمام ابن حجر العسقلانى .

(٤) من كتب السيرة النبوية :

- سيرة ابن هشام .
- كتاب زاد المعاد ، للإمام ابن القيم .
- كتاب حياة محمد (ﷺ) ، للدكتور / محمد حسين هيكل .

(٥) من كتب سير الصحابة (رضوان الله عليهم) :

- كتاب " **الاستيعاب فى معرفة الأصحاب** " للإمام ابن عبد البر .
- كتاب " **أُسْد الغابة فى معرفة الصحابة** " للإمام عز الدين بن الأثير .
- كتاب " **الإصابة فى تمييز الصحابة** " للإمام ابن حجر العسقلانى .

إصدارات

فضيلة الشيخ / ياسين رشدي

١- سلسلة كتب الطريق إلى الله (خمسة عشر كتابًا) .

٢- التفسير الجامع لمعاني القرآن الكريم .

٣- شرح كامل واف للأحاديث النبوية التي أوردها الإمام البخاري في صحيحه .

٤- مجموعة من الإجابات الواضحة على أسئلة في مواضيع شتى تَهُم المسلم في دينه ودنياه .

هذا .. والجدير بالذكر أن جميع الإصدارات السابقة متوفرة على شرائط مسموعة ومرئية وأسطوانات (cd) ، وموجودة أيضًا على الموقع الإلكتروني لجمعية المواساة الإسلامية www.mouassa.org

لجنة نشر الثقافة

جمعية المواساة الإسلامية بالإسكندرية